وردي

NOVEL
رواية

أحمد العتبي

وردي

Wardi

أحمد العتبي

الطبعة الأولى: بيروت لبنان، 2018

First Edition: Beirut Lebanon, 2018

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

لبنان بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
دارالرافدين@daralrafidain_1

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 510 - 4

رواية

وردي

أحمد العتبي

www.daralrafidain.com

تنويه لا بدَّ منه..

1 - كل ما سيرِدُ في الرواية ليس حقيقياً البتة، كل الشخصيات والأسماء والأحداث من وحي الخيال، وهيَ لا تمتُّ للواقع بأي صلة، ولا أحد يتحملُ مسؤولية ما ورد في رواية (وردي) من معلومات وأفكارٍ وآراء سوى كاتبها وحده.

2 - تتكونُ الرواية من فصولٍ تضمنت بوحاً ذاتياً لأبطالها على شكل مذكراتٍ مكتوبة بخط بعضهم أو بحكاياهم الشِفاهية ورسائلهم التي بَعثوا بها لمن دوّنَها بالنيابة عنهم (أوّاب) وهو أحدُ الشخصيات التي عاشت في ذهن الروائي ولا تزال، فالروايةُ أولاً وأخيراً هي روايةٌ كونتها قصص أبطالها، وقد سمّيت الفصولَ بأسمائهم للحيلولةِ دون ضياع قارئ بسيطٍ في اشكالاتٍ سرديةٍ هو في غنى عنها.

3 - أدعو قرّاء الرواية للصبر على تحصيل أجوبة لماذا وكيف ولمَ، فما لم يكُن مفهوماً في أحدِ الفصول يزول عنه اللبسُ والإيهامُ في فصولٍ لاحِقة، كما أن طريقة تعدُد أصوات الرواة في هذه الرواية تجعلُ من الصعبِ السيطرةُ على التتابُع الحدثي وفق زمنٍ متسقٍ متصاعد، وتجعلُ مايسردهُ هؤلاء في فصولٍ مُتباعدة تتشابكُ فيها المصالحُ والمصائر وحدةً واحدة لتكوين النص الروائي.

4 - كل ما ورد من الرواية بصوتِ راوٍ عليم قد أتم الروائي كتابته، هو ما وجده متمماً لما ورد في المخطوط.

احمد العتبي

«خلطُ الواقَع بالخيال:
لغة اصطِلاحيّة فارغة،
وهذيانٌ تقني، وخيالٌ علمي»

جوناثان سي. سميث
العلم الزائف وادعاء الخوارق

«كلُّ أغنيةٍ هدوءُ الحب.
كلُّ نجمةٍ هدوءُ الزمن.
عقدةُ الزمن..
كلُّ تنهيدةٍ هدوءُ الصراخ»

لوركا كلُّ أغنية

ولاء: غيضٌ من فيض

«إنهض ولا تحزن على الدنيا الفانية
واجلس واقض اللحظة في سرور
لو كان الوفاء من طبع الدنيا
لما انتقلت إليك من الآخرين»

عمر الخيام الرباعيات

لطالما حرصتُ على عدم التكلم عن ماضيّي معتبراً نفسي ابن يومي، فقد آثرتُ أن أكتُم وقائعَ حياتي العَبثية الماجنة، منذ فارتْ فورة ذكورتي وحتى عامي العشرين، لأسردها كلها في كتاب في وقت نحصل فيه على المزيد من الحرية و تقبل الآراء، فقد وِلدنا وتربينا في وقتٍ صودرت فيه أفكارُنا و مُعتقداتنا و آراؤنا، وها أنا نفذتُ طلب صديقي أوّاب، وهو صاحب الكلمات الآسرة والأسلوب الجميل، فبدأتُ بتدوين غيضٍ من فيضٍ منها الآن لئلا تضيعَ وتذهبَ طي النسيان..

وأوّاب هذا واحدٌ من أصدقاء مقربين مني بشكلٍ كبير، كلٌ منا يرى نفسهُ مرآةً للآخر، ونشكلُ بمجموعنا إخوة لا يتخلى بعضهم عن بعض..

كان على أوّاب دخول معهد إعداد الأئمة والخطباء كما كان مقرراً له من قبل (شيخه) وهو الاسم الذي تعودَ أن يُنادي به والدهُ إمام أحد الجوامع في جانِب الكرخ من بغداد. كان أوّاب شبه فاشلٍ في الدراسة، لأن ثقافته فاقت ثقافة كل أساتذته في المدرسة، كان منذ صغره مُتمكناً من كتب التفسير والبلاغة

والمنطق، حَفِظ عدةَ أجزاءٍ من القرآن ثم تعلم نظم الشعر وحفظ بحوره، وكان أبلغ وأفصحَ من أستاذِ اللغةِ العربيةِ الذي يُدرسُه، وأكفأ حتى من والده في التجويدِ والترتيل.. هو باختصار مكتبة علومٍ لغويةٍ و قرآنيةٍ متنقلة.

يكفيني ما كتبتُ عن أوّاب، وسأبدأ بسرد قصتي بالتفصيل المُمل لعلها تنالُ إعجابَ قارئِها فأنال مُبتغاي بحصوله على المنفعة المتوخاةِ منها، على أنني لم أكتب ما أكتبه لأباهي به، فالكثيرُ من أحداث حياتي ليست محلاً للفخر، و سأكتبها كما هي بكل تجرُّد دون تحريف أو تعديل.

كان لسُمرة بشرتي ولملامحي الرجولية التي ظهرت مبكراً، دورٌ كبيرٌ في ظهوري أكبرَ من عُمري و جعلَ الكثيرين ذكوراً وإناثاً في مختلف الفئات العُمرية ينظرون إلي باحترامٍ أكثر مما يولونه لأقراني و أصحابي، وذلك منحني زهواً و اعتداداً بنفسي، و قليلاً من الغرور. لا أفكر كثيرا، بل أتخذُ القراراتِ بصورة آنيةٍ تبعاً للظروفِ المحيطة بي، وقد خرجتُ من تجارب حياتي كلها منتصراً لا اشكرُ على ذلك إلا ذاتي.

في منطقة الكرنتينة تسكنُ أسرتنا المكونة من أخوين وأختين تكبراننا وأب سكير يحتقرُ أمنا البائسة المريضة، قضت كل عمرها في حياكة البُسط والحصران والمهفات ومخدات التنور من سعف النخيل لتوفر لنا أثمان الطعام والملابس وغيرها، وكانت تشتري السَعف وبكراتِ الصوفِ وأقمِشةِ البالة بأثمانٍ مناسبةٍ من العم أبي جاسم بعربته التي يجرُها حمارهُ المنهك دوماً، وكُلها مما قاربَ رواجُها الزوال بعد العام 2003. فتصنعُ من السعف منتوجاتها تلك، وتمنح والدي الجزءَ الأكبرَ من عائِدها المالي ليشتري مشروبهُ اليومي بعدَ أن صارَ راتبُ التقاعد لايكفي حتى مشروبه، دون أن يجدي ذلك نفعاً في منعه من ضربها وتعنيفِها كل يوم.

عملَ والدي حرفياً بسيطاً في العديد من دوائر الدولة لفترة طويلة، لم يكُن موالياً للحزبِ والثورة أبداً، بل كان يسبُ الرئيس صدام حسين ليلَ نهار، حتى أن والد سنان- صديق طفولتي المقرب وأحد أعضاء مجموعتي المميزةِ من الأصدقاء قد قاطعَ والدي وكان لا يردُ عليه السلام خوفاً من احتمالِ كونهِ مُراقباً من قبلِ أجهزة الأمن فتصيبه سمعة معاداة البعث والسيد الرئيس إن هي ألصقت بوالدي، وربما كان يظن ان والدي أحد المخبرين، يسبُ صدام علناً ليرى تفاعلَ هذا وذاك مع تصرفه فيكتب فيه تقاريراً يرفعُها إلى رؤسائه..

وفي حقيقة الأمر فإن والدي لم يكن كذلك، بل كان رجلاً طيباً بسيطاً نجا بأعجوبة من بطش الحكومة التي أصدرت عشرات القرارات بالحبس والغرامات والإعدام لمن تطاولَ على شخص صدام في حينه!. ولكنَّ إحالته إلى التقاعد قبلَ سقوط النظام عام 2003 كانت من حسن حظه إذ استمرَّ منحه رواتب تقاعدية كونه قد احتسب ضمن متقاعِدي الدولة العراقية.

كان والدي قد قاربَ عقلُه الخَرف نتيجة تقدمهِ بالعمر وإجهاد السنين والعوز المادي الذي جعله يأخذ إجازات طويلة لعدةِ مرات يعمل فيها حمالاً في سوق الشورجة.

وكل تلك المعطيات كانت أسباباً لتزويج أختيَّ زواجاً مبكراً، فقد تزوجت إحداهما من رجل يكبرها بعشرين عاماً ويعمل تاجراً للبطانياتِ والفُرُش في سوق الشورجة، بينما تزوجت الثانية من معلمٍ بسيط محافظة القادسية التي عاد اسمها الديوانية بعد سقوط الصنم وضرب تمثاله بالنعال على مرأى ومسمعٍ من العالم كله.

في عامي السادس عشر أحسست أن أبالسة أخي علي تجعله متابعاً لي محاولاً تقليدي، لقد وجدَ في شخصيتي مثلاً أعلى له، فاحتويته وتقاسمتُ معه حتى علبة سكائري وعلمته كل شيء تعلمتُه..

كان علي مرسالاً بيني وبين أم سلمان جارتنا الخمسينية الفارعة الطول، ممتلئة الجسم التي ماعاد زوجها قادراً على العمل بعد أن تقدم به العمر واتعبته السنين واصابته جلطة قلبية قدم على إثرها طلبا لإحالته على التقاعد.. كانت البداية حين خاطبَها علي من خلف السياج المنخفض الفاصل بين منِزلينا قائلاً:

- مرحبا أم سلمان..
- أهلاً بك ياعلاوي، كيف حالكم، قلبي يتفطرُ على أمكم المسكينة وأنا أسمع صوت بكائها ليلاً، فأعلم أن الظالم لا زال يضربها، خذوا حذركم منه فإدمانُ العرقِ يُذهب العقل كما تُحرق النارُ الشجر.. أووووه أنا آسفة، هل من خدمة أؤديها لك؟
- يريد أخي ولاء رؤية خزان الماء الخاص بمنزلكم إذ يعتقد بوجود تسريب للمياه ربما يضر بسطح منزلينا المتجاورين.
- أووووه نعم إن فيه شقاً صغيراً يَقطرُ الماءَ منذُ عدة أيام، وقد حاولتُ سدهُ بجزءٍ من صابونة مرة، وقطعة فلين مرة أخرى فما نفعت لا هذه ولا تلك.. ولكن كيف تنبّهتم إليه؟ (قالت متسائلة ثم أردفت): لا مانع عندي، تعاليا أنت وولاء فلربما أصلحتُماه لي.

حسناً، أقرُّ أنَّ البداية صعبة، وتحتاجُ الى الكثير من التفكير، ثم يسهُلُ كلُّ شيء فيما بعد.. كانت أم سلمان طريقي لفهم النساء الكبيرات، ومن ثم الصغيرات، كانت تلتهمني في كل مرة ننفردُ بها ككعكة العيد، وكانَ علي يراقبُني بصمت، وهو صمتٌ ستكونُ له عواقبهُ..

ياسمين: شيء عن عائلتي

«يا من يلي أمرَ القضاءِ
وذاك من سوءِ القضاءِ
ويلٌ لقاضي الأرضِ يوم
الدينِ من قاضي السماءِ»
بديع الزمان الهمذاني يا من يلي أمر القضاء

تربيتُ في كنفِ خالتي وردة، ولم أعرف معنى الإحساس بالأمان ولم أجد الدفء إلا معها. لم يكن لي من أحد يُعطيني العيدية او يتابع دروسي وواجباتي او يمسحُ عني دموعي ويداوي أوجاعي، فتحتُ عيني على الدنيا وصرخت أولى صرخاتي يتيمة الأم ليتركني أبي مع جثتها الهامدة بائسة ممرغة بدماء ولادتي أبكي بلا توقف، تخلى عني إلى ما لا يعلمه من حوادث الأيام، ولمن لا يريد أن يعلمهم من الناس.

أخبرتني خالتي وردة انه كان متيقناً من أن ذلك الحمل كان فأل سوءٍ وبذرة ساعةٍ قذرة، بَذرني في رحم أمي حين كان مخموراً مُنتشياً برائحة السيكوتين وقطعة صغيرة من حبة ترامادول كان يُضيفها إلى الناركيلة.. فقد ارتبطَ بعد حصولِ الحملِ بمجموعةٍ دينيةٍ ما، فتحول إلى تقي عابد، انقطع إلى الصلاة والاستغفار و(ضرب الدرباشة) في إحدى تكايا الكرخ، تقول خالتي أنه نظر لحظتها إلي نظرة ملؤها الحقد والغضب قائلا: (لا بارك اللّه فيك! كنت سبباً في

وفاة أمك)، ثم أردف: (إنا للّه وانا إليه راجعون) وأدار ظهره لزوجته الميتة وخرج بعيدا إلى غير رجعة.

- هكذا بكل بساطة يا خالة؟

- نعم يا بُنيتي، هكذا بكل بساطة. كان كلباً ابن كلب.

- هكذا يترك ابنته؟

- نعم.. لا يفعل فعلته تلك إلا ابن الزنا.

- والصلاة والاستغفار؟

- من لم تنهه صلاته عن المُنكر فلا صلاة له. بئس الصلاة التي لا تنهى صاحبها عن منكر القول والقذر من الأفعال يا ابنتي.

- وماذا فعل بعد أن تركني؟

- هو لم يسأل عنك يوماً، لقد نسِيَك ووَلّى إلى غير رجعة، وقد علمتُ أنهُ تزوج من امرأة انجبت له من الذكور من جحدوه كما فعلَ معك، كما أنهم لم يقيموا لروحه مجلس عزاء، ولم يذكروه بخير لا في حياته ولا بعد مماته. وأدعو اللّه أن يسكنه جهنم خالداً فيها.

- لا تقولي ذلك!

- أتُدافِعينَ عنه يا ابنته؟

- أنا لا أسبُ ميتاً يا وردة ولا أريدُ لك أن تسُبي ميتاً، أليسَ سبابُ المسلِم فسوق؟

- هو ليس بمُسلم. ليسَ لهُ من أخلاقِ المُسلم شيء أيتها القـ. أدعو اللّه أن يسلط عليه زبانيته فيملئوا بطنه من شجر الزقوم وحميم السموم في

جهنم وبئس المصير.

- وهل يستجيب اللّه لك يا وردة؟

- قولي (خالة) يا بنت الكلب!

- خالة.

- عندما تخاطبينني قولي خالة وردة.

- خالة وردة.

- أهوووو ما هكذا يا بنت الـ أستغفر اللّه العظيم.

- وهل يغفر لك؟

- من ذا يغفر الذنوب غيره.

- كيف مع كل تلك المسيرة الحافلة بما أعلمه وما لم أعلمه؟

- أنا أطعِم الجائع و اليتيم، وأعطف على الأرامل والمساكين.

- لن يفيدك ذلك (قلتُها في عنادٍ محاولة استثارة غضبها)!

- ماذا أفعل؟ لن أترك عملي هذا.

- إذن أطعمي قطة قبل أن تموتي.

- أنا أطعم البشر وكل ذي روح، وكل ذلك لي فيه صدقة، و حذار أن تستهزئي بحديث النبي الكريم وما جاء في سيرته.

- هاهاهاها... أنت تقولين ذلك؟

- نعم. ومن يعرفه أكثر مني؟

وصمتت بعدها. وكان ذلك حديثاً مكرراً بصيغٍ مختلفة بيننا منذ أن وعيتُ عليها.

كنت عند ولادتي هزيلة ضعيفة ذات عينين شاب بياضهما لون أصفر فاقع، وهو ما حدا بخالتي أن تمنحني اصبعها المغموس بالدبس لأمتصه ثلاثة أيام كنت أنام فيها على إضاءة ساطعة لثلاث مصابيح صفراء علقتها فوق رأسي.

كانت خالتي فاتنة الملامح ذات بشرة بيضاء يعلوها بعض الكلف وشعر نحاسي لماع جميل، وعينين واسعتين يعلوهما حاجبان رفيعان مستدقا النهاية، شفتاها ذواتا حمرة طبيعية، فارعة الطول، مدورة النهدين، كبيرة الحلمتين..

تمارس خالتي أعمالاً ليلية فقط بينما تنامُ صباحا. كنتُ طفلة لا أعلم ماهية تلك الأعمال إلا أنني عشتُ طفولتي سعيدة نسبياً بهدايا كان يجلبها لي كل من يدخل المنزل، زائروا الليلِ كثر، هم أعمامي وأخوالي وأصدقائي، كلهم يجلبون هدايا وألعابا واقمشة وملابس وأحذية للعيد لكن أحدا منهم لم ينادني (ابنتي)، وقد حُرِمتُ من تلك الكلمة طيلة حياتي. وها أنا ذا بعد أن تخرجتُ من إعداديةِ التجارة، موظفة في أحد دوائر الدولة، لي راتبي وخصوصيتي ومبلغ لابأس فيه ادخرته للمستقبل، اضافة إلى كوني قد ورثتُ مهنة خالتي وردة، الوردة التي شمها الكثيرون ففقدت عبيرها.

والحق يقال، أنها كانت قمة في الطيبة ونقاء السريرة، وحسن العشرة، وكانت محط احترام الجيران، ولكن هموم الحياة وتفكيرها الشاغل بهموم من حولها قد جعلت منها عجوزا على عجل وقاربت فقدان عقلها لتهيم يوميا في شوارع الباب الشرقي والميدان والبتاوين والسعدون وغيرها، تستجدي الناس النقود، إذ لم يتبق لها ما يجلب المال سوى لسانها الذي استخدمته بترديد بعض آيات القرآن الكريم واشعارٍ دينيةٍ في مديح أهل البيت (عليهم السلام) تستعطف بها هذا وذاك لتحصل على بضعة آلاف من الدنانير. بعد أن كانت آية من الحسن والجمال و رجاحة العقل.

تعودُ عصراً، تسلم علي وتقول (لقد تعبت هذا اليوم كثيراً، لكنني حصلت على بعض المال أضيفه إلى ما لدي مما أدخره لدفني وإقامة مجلس عزاءٍ يليقُ بي، وبسُمعتي التي حافظتُ عليها في المنطقة بالرغم من كل ما فعلته، ولا يشابهها الا ليرة ذهبية)، تغتسل وتدلف غرفتها لتغط في نوم عميق حتى الصباح وهكذا دواليك..

لم أقو على مصارحتها يوماً بأنني رأيتها أكثر من مرة، جالسة على قارعة الطريق، في شارع الرشيد قرب البنك المركزي، وفي الشورجة عند سياج جامع الخلفاء، تستجدي المارة، على الرغم من أن لدينا ما يكفينا للغد، ولدينا هذا المنزل الذي سجلته منذ وقت طويل باسمي فليس لها في الدنيا سواي.

كانت تُحدثني كثيراً وبكلِ فخر عن مغامراتِها المجنونة في فترات شبابها، كيف كان الرجال يتوافدون لخطبتها فتقابلهم بالرفض، تقول أنها لم تخلق إلا لتكون فرساً برية جامحة لا يروضها إلا الرجال بأموالهم. كما لم تُرِد أن تعيش تجربة والدتي بزواجها من (ناجي) ذلك الشاب العابث الذي روى فمها بمئات القبلات في ظلام الليل فتعلقت به وأدمنت قبلاته حتى تزوجته وعاشا سوياً فسامَها سوءَ العذابَ بعد حبٍ ورغبةٍ عارمة، وهكذا فإن طرقاً كثيرة سلكتها مكنتها من الحصول على أي مكسب من أي رجل تريده.

أوّاب: شيخي ونشأتي/1

«إلهي من أنا؟ ومع من أكون؟
وإلى متى تغرورق عيناي بدموعٍ من الدم؟
عندما يطردُني الآخرون، إليكَ أتوجه.
وإذا طردتني.. فإلى من أتجه؟»
بابا طاهر الهمداني الرُباعيات اللوريّة

ولِدتُ وسط آيات من القرآن الكريم في منزلٍ ملحقٍ بمَسجدٍ من مساجد بغداد، كان والدي إماما له، كنت الأخ الأكبر والوحيد لثلاث بنات. نشأتُ نشأة دينية، هذا حلال وذلك حرام وما بينهما شبهات يجب أن أجتنبها، وحتى عامي العاشر حفظتُ ثلث القرآن على يد والدي الذي كان يطلب مني ان أناديه (شيخي)..

كانت ذاكِرتي وحشية، تمتصُ كلَّ ما يُلقى إليها من ألفاظ، فكانت بدايَة تعلُمي للعلومِ الشرعيةِ وكتابِ اللّه في السنة الثالثة من عمري، كانت والدَتي تقصُ علي مما حفظتهُ من شيخي قصصاً كثيرة عن فضل حفظِ القرآن وعلوم الفقه والحديث، كقصةِ عبد الرحمن إلسُديس الذي كانت والدته تشجعه هي الأخرى وتقولُ له: (يا عبد الرحمن، إنك ستصبحُ إمامَ الحرمين، فلتحفظ القرآن)، وكانت تكررُها عليّ كثيراً.

وَمما رسخ في ذهني أن شيخي ذكرَ لها قِصة سمعتها عن لسانِها فيما بعد

أن ابن بطوطة تكلمَ عن عاداتِ أهلِ مالي-السودان وقتذاك ومنها عناية أهلها بتحفيظ أولادهم للقُرآن وهم يجعلون لهم القيودَ إن ظهر في حقهم التقصير في حفظه، إذ مرَّ ابن بطوطة يوماً على شابٍ حسن الصورة، عليه ثيابٌ فاخِرة، وفي رِجلَه قيدٌ ثقيل، فقال لمن كان معهُ لم ذاك؟ أفقتَل الشابُ أحداً؟ ففهم عنهُ الشابُ وضحك، فأجابهُ أنه إنما قُيِدَ ليحفظَ القرآن!

طوال صِباي لم يُسمح لي بالاختلاطِ ببقيةِ الفِتية، أو لعبِ كرةِ القدم أو اللعب بـ(الدعابل) تلك الكرات الزجاجية الرائعة التي طالما حلمت بامتلاكها، خبأتُ يوما إحداها وقد وجدتها قرب باب المَسجد، فلما أحس بي شيخي قد خبأت (دعبلة) وخالفتُ أوامره وبّخني بشدة وقال إنها (مضيعة للوقت) وأن (ما فعلته يجلب غضب اللّه لان فيها ما يشغلني عن ذكره)!

كنت أرددُ اسم اللّه في كل مكان، عند دخول المنزل والخروج منه، قبل الطعام وبعده قبل الاستحمام والنوم والوضوء والصلاة ودخول دورة المياه وبعدها، إذ حفظتُ أن كل أمر ذي بال لا يُبدأ باسم اللّه فهو أجذم، أي متروكٌ ومقطوعٌ لا بركة فيه.

أمرني والدي أن أنام بمفردي في المخزَن الملحق بمنزلنا الصغير، لئلا أختلط مع أخواتي بعد أن قاربت البلوغ، وهكذا كنتُ وحيداً أرتعشُ خوفاً من كل حركة، وكل صوت، أقرأ آيات الحفظ من الشياطين والجان، أقرأ دعاء الحصن الحصين وغيره، أنامُ وعيناي ممتلئتان بالدموع، أفزع بضع مرات ليلا أكاد أتجمد من شدة البرد على الرغم من ارتدائي دشداشة وبيجامة وتدثري ببطانية ثقيلة، بللتُ سريري ثلاث مرات في أسبوع واحد، نهرني شيخي إثر ذلك، بل نظر إلي نظرة احتقار كأني حيوان بائس مجذوم، توسلته أن ينام هذه الليلة معي أو أن يجلس على سريري على الأقل ساعةً أو ساعتين ليقرأ آيات قرآنية ويُرقيني بيده الكريمة السخية وأنا الذي لم اطلب منه طلباً في حياتي فرفض.

كانت سنواتي العشر الأولى عبارة عن أوامر أتلقاها منه، تلقاها هو بدوره من أشياخِه والذين بدورهم ورثوها من ابائهم فاجدادهم فالنبي (وصولاً إلى اللّه العظيم) كما يقول هو!

تسمّرتُ بالفراش غير قادر على النهوض.. ماءت قطتان لم أعرف مكانهما ولكني أحسست أنهما تتشاجران، أغمضت عيني محاولا النوم، إحدى القطتين أمسكت ذيل الأخرى بأسنانها لترميها في فم كلب أسود ذي انياب حادة يعوي بشكل مرعب بينما يتساقط لعابه النجس من بين أسنانه!

لونٌ شديد الحمرة يبدو لي من خلف جفني المغمضين، قطط تجتمع حولي والكلب يعوي، ورائحة الدم تزكم الأنف، صرخت صرخة مخنوقة من حنجرة بائسة عطشى، مخالب حادة تخدش بطني فأشعر بنزيف دم حاد، نهضت واقفا على سريري، وفتحت عيني لأرى دما أحمر قاتما يملأ المكان تشرب منه القطط والكلاب، تموء وتنبح بكل ما لديها من قوة! والمنظر يكاد أن يوقِفَ قلبي و يُميتني في مكاني.

استيقظتُ أتعوذ باللّه من الشيطان الرجيم بعد ذلك الكابوس الذي تغيرت حياتي بعدهُ كثيراً وصارت أيامي سوداء مظلمة يوماً بعد يوم.

حامد.. مع والدة لاوان وعشرينية ما

«نلقى الجنسَ في التعبيراتِ اللاواعيةِ بكثرة
نلقاهُ في الحدّوتة والمزاح والأغاني والاحتفالات
والإنجازات. والجنسُ إن لم يكُن يُفسِرُ كل شيء
فهو موجودٌ في كلِ شيء»
د.علي زيعور صياغاتٌ شعبية حولَ المعرفةِ والخصوبةِ والقدر
المِهادُ الإناسيّ والتحتياتُ العَلائِقية في الذاتِ العربية

أنا ذكرٌ من نوع خاص، أنيق وهادئ ورومانسي وحنين، تقع الفتيات في شباكي دون أدنى مقاومة، أشرب وأدخن وأسهر، أدير صفحاتي الشخصية على الفيسبوك والتويتر والانستغرام بسهولة، فنشر صورة لي كاف بتحقيق أكثر مما أتمنى من الاهتمام والتعليقات والمشاركات، ونشر بعض كلمات لادينية تستهزي بالقيم والمُثل السائدة وبالأديان والمذاهب هو كافٍ لاثارة زوابع من النقاشات والتحليل والاضطراب الفيسبوكي حول شخصيتي.

أنا متبوعٌ لا تابع، وتلك أهم سماتِ شخصيتي، فمعَ قرابة خمسة آلاف متابعٍ على الفيسبوك، و ضعفهم تقريباً على التويتر وغيرهما من وسائل التواصل الاجتماعي أجد نفسي محط انظار الكثيرين.

أشركني والدي في دورات للتنمية البشرية وإعداد القادة الشباب التي تقيمها إحدى منظمات المجتمع المدني المشهورة في بيروت، وبذلك أصبحت رجلاً ذا

طرازٍ خاص إذا ما أضفنا لما ذكرته كل ما تمتعت به من جرأة ومثابرة وحُسن تعامُلٍ أكون فيه الرابح الأكبر دوماً وأبداً.

ترعرعتُ بين يدي والدي الذي منحني كل ما أردتُ ولم يبخل عليَّ بشئ، أذكر اننا كنا في تركيا في سفرة سياحية وكان عمري حينها أربع عشرة عاماً وأصر والدي على أخذي معه لتخليصي من امرأة بلغت الأربعين كدت أن أقتل نفسي في سبيل الحصول عليها وهي أم لاوان، صديقي الأقرب إلي منذ عامي التاسع!

كنت أذهب مع لاوان لندرس سوياً ونتناول غداءنا من يد والدته الجميلة الناعمة والرقيقة، مضت الأعوام بسرعة بكل ما فيها من مفاجآت وأحداث. لم أتخل عن صديقي لاوان، وهو بدوره لم يتركني لحظة قط..

ذات يوم، وبعد انتهاء ساعة التدريب في أحد النوادي ذهبنا إلى منزلهم.. كانت والدته تنظر إلي نظرات ملؤها الإعجاب ببشرتي السمراء البرونزية، وسرعة نموي وتغير ملامحي الذكورية على عجل، وقد صرحت بذلك أكثر من مرة على مرأى من ولدها ومَسْمع.

كانت شاعرة وقاصّة، لها عدد من المجموعات الشعرية في ما يسمى بقصائد النثر، أو القصيدة النثرية، التي شرحت لي أبعادها بعد أن وجدت عندي رغبة في فِهم طبيعتها وآليات إنتاج نصوصها، كما كانت تحفظ بحور الشعر العربي وتغنيها، حاولت تعليم لاوان وإياي غناءَ تلك البحور لكننا لم نكن نمتلك ذلك السحر الذي يكمن في من يستطيع نظم الشعر.

وفوق كل ذلك كانت فنانة من طراز خاص، واكثر ما انطبع في ذاكرتي من أعمالها الفنية لوحة ميلاد فينوس التي رسمت نسخة ضخمة منها علقتها في غرفة نومها مع بعض التعديلات عليها، وهي لوحة تقبلها المجتمع الأوربي المحافظ وقتذاك ولم تكن إلا عذراً من (ألكسندر كابانيل) لرسم أنثى عارية بجميع عناصر المدرسة الرومانسية، كانت أم لاوان تشبهها، وما أجملهما هي واللوحة تلك.

ظلت أم لاوان تتفرسني وتراقب نضجي يوماً بعد يوم، تنفرد بي مرات عديدة لعدة دقائق.. كنت أعلم كل معاني نظراتها وابتساماتها التي تحرك كل الشر الكامن في داخلي حين يكون الشيطان ثالثاً لخلوتنا.. تنامت تلك العلاقة لتزيد بتسارُع مجنون من قبلاتٍ خفيفةٍ مجنونة وحتى تماهى ما فعلناهُ مع أفلامِ بورنو شاهدناها سوياً في منزِلها وكانت تطلُب مني أن نفعَلَ فِعلَي البطَلَين!

وقد كنت أخبر والدي بما يدور معها بالتفصيل الممل ولا أخفي عنه شيئاً. كان يفخرُ بي، نعم.. بكل بساطة كان يتباهى بما افعل أمام عُمّالهِ في معارض السيارات التي يمتلكها. لكنه كان يريد الخلاصة، لا يُحب مني التفاصيل. هل فعلتَ فعلتك؟ نعم. (عفية إبني رجّال من ظهر رجّال)!

ولما رأى مني التمادي وعصيانه ونسيان دروسي و واجباتي، كانت ردة فعله أن منعني لقاءها وولدها مُغرياً إياي بالمال، بسيارةٍ اشتراها لي، وسفرةٍ طويلةٍ إلى سوريا ولبنان وتركيا اشتقتُ فيها إليهما، إلى صديقي الغالي، ووالدته التي منحتني مفاتيح كل شيء.

تعرفت في إسطنبول تحديداً بفتاة عشرينية كأنها ملاك من الفردوس قد تنزّل عليّ دونما حَسَنةٍ مني فعلتها أستحقُ عليها الثناء والإحسان، كانت بيضاء البشرة، حمراء الشعر، مَمشوقة القِوام، مُكتنزة الأرداف، متوسطة النهدين...أنسَتني الدنيا وما فيها، كانت مَعرفتي بها ولِقاءاتي معها على علمٍ من والدي الذي سُرَّ كثيراً لمشاهدتي وأنا أخرج من تعلقي المَرَضيّ بأم لاوان.

كنت أنساها شيئاً فشيئاً مع مرور الوقت، وأنسى لاوان ايضاً..

وهكذا لم أكن مخلصاً وفياً لأحد، وهو ما أراده لي والدي، ولكنني مع ذلك كنتُ صديقاً جيداً للناس، لكل الناس، وكنت في كل علاقاتِ الصداقةِ والعلاقاتِ الاجتماعية التي مرت في حياتي المميز والأغنى والأفضل والأجمل خَلقاً والأكثر خُلقا وأخلاقاً.

مرت سنوات أخرى حتى وجدت نفسي طالباً في كلية الفنون الجميلة ببغداد، لا اعلم سبب اختياري لها، وربما يكون الوفاء لذكرى أول امرأة وطأتْ شفتاها شفتيّ دافعاً لي لدراسة الفن.

في يوم ما، دخلتُ غرفتي.. خلعت حذائي الروغان الأسود وجواربي، حركتُ أصابع قدمي مطقطقاً إياها، حللت ربطة عنقي ورميتها جانبا وفتحت أزرار قميصي العليا، ثم جلست إلى حاسوبي الشخصي، ربطت به هاتفي النقال، ونسخت مافيه من آخر صوري إلى الكمبيوتر، اخترت احداها لتكون صورة صفحتي الشخصية، كانت الصورة جانبية تبين شعري الطويل، المعقوص إلى الوراء، ولحيتي السوداء القاتمة المثلثية الشكل وشواربي الأنيقة، وبشرتي البرونزية النقية، نشرت الصورة للعامة لتحصل على أربعة وأربعين إعجاباً واثنين وعشرين تعليقاً خلال دقيقتين فقط.

اخذت شهقة طويلة من سيكارتي جاعلاً الدخان يمر في جوفي لأستبقيه حتى الانتشاء ثم أطرحه من فمي وأنفي..

اخرجتُ هاتفي النقال وكتبت: (مهما كانت هيبتي، تبقى أنثاي سر الحنان). اخترتُ من قائمة جهات الاتصال أثنتين وأرسلتها لهما.

جاء جواب أولاهما بكلمة واحدة: (كذاب). فيما لم تجب الثانية، فكتبت للأولى: (اشتاق لصوت انفاسك، واشتهي تذوق رضابك، وأذوب في حب كل ما أراه منك على كاميرا الكمبيوتر). فما لبثت أن أكملت سيكارتي وأطفأتها حتى جاء الرد: (أنا طوع أمرك يا قمري، كم أنا محظوظة بك)!

سنان: بعضٌ من حكايتي

لم يكن لطفولتي أي معنى حتى صار أوّاب رفيقي في المدرسة وأخي وشريكي في الساندويجات التي كانت والدتي تضعها في حقيبتي المدرسية، لم اكن أذكر غيره في أحاديثي، في المنزل والمدرسة ومدينة الطب مع الفريق الطبي الذي تم تكليفه من قبل وزير التربية شخصياً لمتابعة حالتي المرضية التي جعلتني معزولاً عن أقراني وعن عائلتي وساهمت في جعلي انطوائياً غريب الأطوار.

كبرت بسرعة دون ان أميز حدثا واحداً جميلاً منذ نعومة اظفاري وما تبعها من مرحلة المُراهقة وحتى يومِ الناس هذا..

وجدتُني رجلا بمرضٍ مقرفٍ نادرٍ مستديم، لا زوال له ولا تناقص، مُذ كنت طفلاً كنت أؤمر بوضع علبة مناشفِ تنظيفٍ جافة مع قنينةِ كحول لتعقيم بعض الشرى التي رافقتني طوال حياتي وها أنا الآن لازلت أضعها قربي، وأحرصُ على أن لا أخرج في جو رطب مُثقل هواؤه بذراتِ المياهِ التي تزيدُ من شدة ذلك الطفح الجلدي المؤلم، كما لا أخرج في جو حار كي لا يتعرق جسدي فيزيد العرق من فرط الحساسية للماء لتكبر أحجام الشرى التي تحرقها أملاح التعرق هذه المرة فتصبح أكثر ألما عن ذي قبل، كان أوّاب يرافقني إلى حمام الهيئة التدريسية حيث يجفف لي معاناتي بتلك المناشف، ولا زال على ذلك الحال حتى اليوم.

لم أكن أعرف نفسي جيداً، لم أمارس ألعاب الحب يوما، جل ماكان يهمني هو أن أشرب وأدخن وأعيش حياة الليل مع اصدقائي أوّاب -زميل دراستي المتوسطة والاعدادية- وحامد وولاء وهما زميلاي في كلية الفنون الجميلة، وهؤلاء أعز ما لدي في هذه الدنيا.

كنت آخذ مصروفي من والدتي التي غلبت على أفعالها معي اليوم مشاعر الاحتقار، وأمعنتِ في إهانتي كلما وجدت لذلك سبيلاً، بعدما كانت بالأمس والدة حنونة لطيفة محبة، فلقد اتجهت بعد انتقالنا للسكن في الجادرية للأعمال الخيرية عبر منظمات المجتمع المدني (NGO) كما أصبحت لها بعد حين عضوية فخرية في منظمات اقليمية اهتمت بحرية النساء وقضايا الجندر والعنف الأسري، وظاهرُ عملِها الإنسانيةُ والتعاونُ والمُساعدة في دُولٍ مُتعددة مادياً ومعنوياً، ولكنها كانت عكس ذلك تماماً، فقد اكسَبَت الحياةُ قلبَها قساوةً لا اظنُها تزول، وصار الحصولُ على مكاسبٍ ماليةٍ وصنعِ أمجادٍ شخصيةٍ هنا وهنالك محط اهتمامها بالدرجة الأولى لا أسرتُها.

ولكنها بالرغم من انشغالها الشديد وسفرها الدائم وتغيُرها تجاهي، لم تمنع مصروفي عني، لئلا اسرق او اتورط في قضية مالية لا يُحمَدُ عقباها، حسناً.. بالرغم من غباء الفكرة إلا أنها اهم الأفكار التي استحوذت على تفكيرها في تعاملها معي. وقد جعلتها تلك الفكرة كريمة معي إلى حد ما.

اذكر انها دخلت علي غرفتي في احد الايام قبل عام مضى، كانت تحمل بيدٍ مُصحفاً وطلبت مني أن أقسم لها أن لا أتسبب لها بفضيحة، أية فضيحةٍ كانت، مالية أو أخلاقية، وقد اقسمت لها بناء على طلبها أنني لم ولن أقيم علاقة غير شرعية مع أي فتاة خارج نطاق الزواج، ولن اسرق، ولن آخذ أموالاً بفائدة، ولن أصيبَها بأي فضيحة امام الناس، وتلك الأخيرة كل همها.. هي تخاف الفضيحة، ولا شئ غير ذلك، هذا ما أصبحت عليه والدتي، امرأة عصابية مهزوزة، تدعي الهدوء

والقوة، تدافع عن الأسر وتحميها من التفكك، وتحمي النساء المعنفات، في حين أن أسرتها ماضية نحو التفكك بتسارع لن تستطيع الصمود أمامه.

فهذه حالي، شابٌ معقدٌ غير اجتماعي، لا اختلطُ بأحد سوى أصحابي الثلاثة المقربين، ولا أخرجُ إلا قليلاً، لم أكن أنوي من دراستي للفن إلا تحصيل شهادة أولية لأكون ناجحاً أمامها بمقاييسها وأحكامها في الحياة والنجاح، آكل وأخرج مع أصحابي وأنام ملء جفوني وليحترق ما يحترق من الدنيا، فأنا في غنى عن كل المصاعب والمشاكل التي تعتري العالم ولست سوى جزءٍ ضئيل تافهٍ منه، ولديَّ مايكفيني من مرضي الذي يعيقني عن الاندماج الكلي او حتى الجزئي بكل ما هو حولي.

وأما أختي سولاف فعصابية مجنونة هي الأخرى، ورثت أغلب طباع والدتي، وهي عنيدةٌ متمردة وغير قنوعةٍ بالمرّة، تحبُ الحياة والملابس والمأكل والخروج والسهر في حفلات عيد ميلاد صديقاتها وقد منحتها والدتي الكثير من الاهتمام والرعاية وقدراً كبيراً من الحرية لأنها ترى فيها نسخة منها، كما تُعدُّها لترِث نشاطها الإنساني والاجتماعي والتجاري.

سولاف: شئ عن العائلة والنشأة

سولاف هو اسمي، اسم جميلٌ أحبُه، ومعناه الشلال بلغة الكرد في شمال العراق، يُكتب بلهجة أهل الشامِ بلا واو، وهو في كونه بلا واو ذو أصلٍ عربي فصيح ومعناه الخمر الخالص من كل شيء وأول ما يعصر منه.

أبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين عاماً، أسكنُ حالياً في أحد أحياء بغداد الراقية، رسبتُ في كليتي سنتين، لم تكن دراسة آداب اللغة العربية تستهويني. أردتُ أن أصبح مُمرضة، إلا انني لم أوفَق في تقديم مستمسكاتي لكلية التمريض وفق تعليمات التقديم المُباشر لمُضي فترة التقديم حينما كنتُ مع والدتي نقضي رحلة سياحية في تركيا، فاضطررتُ لانتظار القبول المركزي وهو ماجعلني طالبة في كلية الآداب التي لم أحبها يوماً.

انا نحيفة برونزية البشرة ذاتُ جسدٍ ممشوق، وشعر أسود يصل حتى أسفلَ ظهري، حاولت أمي علاج حب الشباب الذي برز مشوهاً وجهي خلال فترة مراهقتي دون نتيجة تذكر، كما استعملت بعد حين إبراً لتبييض الوجهِ والجسم لكن جسدي أبى اللون الفاتح، فاستسلمتُ اخيراً بعد رحلةٍ طويلةٍ من تجربةِ منتجاتٍ كثيرةٍ. وابتدأتُ بمتابعة شهيراتِ النساء ذوات الأجساد البرونزية وتأقلمتُ مع لون بشرتي وأحببته فيما بعد، كما لجأتُ إلى استعمالِ الليزر لمعالجة آثار حب الشباب برفقة والدتي التي أجرت بعض عمليات الشد بخيوط الذهبِ في أحدِ مراكز التجميل ببغداد.

توفيَ والدي وكان صاحب شركة بسيطةٍ لصناعة البسكويت وأنا في عامي الثاني، ولا أملك أي ذكرياتٍ عنه.

أما والدتي فهي امرأة حديدية، قاسية الملامح، حادة الطباع، تزوجت بعد وفاته من أحدِ عمّال المَعملِ لتديمَ تواصُلها معَ العمل وكان طبعُه شبيهاً لها، وذلك مما جعلَ علاقتهُما غير مُستقرةٍ يشوبُها الخلافُ والشجارَ الدائم، وكان نتيجة زواجهما بعد أن تطلقا أن اكتشفت حملها منه بأخي سنان، الذي عاش طفولة قاسية معذبة لمرضه.

ولما كبُر سنان قليلاً كانت والدتي ترى في نفسها امرأة شابة لا تزالُ تمتلكُ سحراً وجاذبية فتزوجت مرة ثالثة، ولكنها لم تهمل رعايتنا وتوفير احتياجاتنا أبداً، كان زواجها هذه المرة من رجل أعمال كبير يعمل في مجال الخدمات الإغاثية والإنسانية، وارتبط نشاطه مع نشاطات جمعيات الأمم المتحدة العاملة في العراق قبل 2003 ضمن برنامج النفط مقابل الغذاء والدواء، كان رجُلاً طيب القلب، مخلصاً لها، وكان يعطفُ علينا، ساعدها بتأسيس جمعيتها الخيرية قبل أن يلقى منيته في حادثِ سيارةٍ مؤسف بعد الاحتلال الأمريكي للعراق وسقوط نظامه الحاكم، وكان ذلك على الطريق السريع الرابط بين بغداد والبصرة حيث كان متوجهاً بعد أن خططُ كثيراً بمعيةِ ومشورةِ أمي للشراكةِ مع مستثمرين أجانب في تمويل مشاريع استثمارية في جنوب العراق.

وجمعية والدتي وإن كانت غير مسجلة بشكل رسمي قبل الاحتلال وسجلتها فيما بعد لدى مركز المساعدة الأمريكي لمنظمات الـ(NGO) وفي وزارة شؤون المنظمات غير الحكومية فيما بعد هي أهم ما تمتلكه في حياتها حالياً، تعملُ ليلاً ونهاراً فيها، كما افتتحت مؤخراً شركة سفر وسياحة أدارتها بنفسها مما أرهقها وجعلها في سفراتٍ وغيابٍ مستمر عنا في الآونةِ الأخيرة.

أخي سنان أسمر البشرة، أشعث الشعر، متوسط الطول، عريض الكتفين، ذو لحيةٍ وشاربٍ بسيطين، وشعر جسمٍ كثيفٍ كوالده، هو عابثٌ وفاشلٌ بكل بساطة لاهدف له من حياته، يقضي نهارهُ غاطاً في نوم عميق، يسعل كثيراً أثناءه بسبب التدخين، لاينهض من سريره حتى الثانية بعد انتصافِ النهار، يُدخن علبتين من السكائر يومياً ويتناولُ الخمر مع أصدقائه بين الحين والآخر، وكان كل ذلك سبباً في فشله الدراسي وفصله من كليته إثر غيابه المتكرر بدون عذر.

كنتُ أكرهه، وأكره فشله وانطواءهُ على ذاته وبضعة أصدقاء تافهين معدودين على الأصابع هم مثله على الأغلب.

فشِلتْ أمي فشلا ذريعاً في ردعهِ عمّا هو فيه من ضياع، عاملته بحزم تارة، و برقةٍ تارةً أخرى، حاولت في فترة ما ردعه بالقوة وفرض إرادتها عليه، لكنها اهتدت إلى اتباع سياسة الاحتواء معه بعد نصيحة مني، لئلا نخسره بشكل نهائي..

ولاء: مع الجارة أم سلمان

أصعد عند المساءِ إلى سطح المنزل، لأنشر الغسيل لوالدتي التي ما عادت تمتلكُ قدرة ارتقاء درجات السلم، حاملاً معي كتاب الأدب والنصوص، أحاول حفظ ما أستطيعه من نماذج شعرية فيه، وهارباً من والدي الذي يطلب مني دائماً أن أحضر له العَرق من (ساحة الميدان)..

ومع أن في ذهابي إلى الميدان لجلب العرق لوالدي، موافقة منه للخروج لتلك المنطقة التي تعد من المناطق غير الآمنة بالنسبة لشاب مراهق، ففيها ما فيها من مخاطر، إلا أنني كنت أشتري ربعية لي بمبلغ أدخره لنفسي من مصروفي اليومي.

كنت أكره خدمته وأكره تصرفاته معنا منذُ طفولتي، ولكن ذلك لا يمنعُ إحساسي بالشفقةِ عليه.. نعم بالشفقة، أنا متناقض السلوك تجاهه. هو الأب المُهملُ العُصابيُّ على الدوام والمستبد برأيه الخاطئ في الأغلب، كانت والدتي تدعو عليه ليل نهار (اللهم إني مغلوب فانتصر) (اللّه م إني مغلوب فانتصر) (اللهم إني مغلوب فانتصر)....

فتاتان مراهقتان تلمع جدائل شعرهما بفعل أشعة الشمس، تلبسان دشداشتين بيضاوين من قطن ناعم مزينتين بورود حُمر وصُفر، تلعبان لعبة الـ(توكي) على سطح المنزل المقابل لنا تذكرانني بأختي البعيدتين عنا، فأشتاقُ الى رؤيتِهما كثيراً.

تمسحُ الفتاتان رسم لعبة التوكي من أرضية سطح منزلهما وتجلسانِ على أرضية السطح، تغنيان أغنية جميلة أضحكتاني بها وأعادتا لي شيئا من البهجة على الرغم من أدائها بطريقة مضحكةٍ حوَرَتا فيها بعضاً من مفرداتِها:

(ياحوته يا بَلاعة.. هدي كمرنا بساعة

هدي كمرنا العالي.. لا أضربج بنعالي)

تخطر ببالي الحوته أم سلمان، فأترك كتابي وأقفز نحو سطح منزلها، ترتجف ام سلمان فزعا لما رأتني وتقول:

- ما الذي أتى بك يا ولاء؟

- لم أستطع إكمال دراسةِ مادة امتحاني، رميت بكتابي جانباً وقفزت نحو سطح منزلك، أريدك.. نعم اريدك ولا أستطيع تركك، بل لا أرجو أن يمر علي يوم دون أن يكون لنا لقاء خاص فيه.

- هلمَّ بنا على عجل. سيأتي أبو سلمان في غضون نصف ساعة`

- عشر دقائق كافية لي لأتم ذلك!

- هيا إذاً.

كانت تنعته بكلمة (الشِفيّه) دوماً في حظوره وغيابه، ولم يأبه هو لذلك، حتى تعود الكلمة منها، وأصبحت تجري على لسانها مجرى الثرثرات الكلامية التي تقضي بها وقتها، إذ لم يكن معها من يسليها في المنزل فقد زوجت ولدها الوحيد الذي آثر السكن في بيت أهل زوجته بعد سنة من زواج كان مليئا بالمشاكل التي لم يجد لها حلاً إلا الابتعاد عن والدته صانعة الخلافات العائلية الماهرة لأتفه الأسباب وبكل معنى الكلمة.

أفعل ما أفعله على عجل أخبرها بأنني أريد لعلي أن يطأها فتجيبني

بالموافقة (مادام من طرفك أقبل، تدلل انت وعلي)، وأتركها غارقة في نشوة لم تحصل عليها منذ فترة واسرع نازلا لأشتري زجاجة العَرق اليومية لوالدي.

ننامُ أنا وعلي على سريرين متوازيين في غرفة ذات بابٍ وشباك غير مطلين على داخل المنزل، فلا يستطيع أحد دخولهما إلا من سطح المنزل، وهو ما منحنا خصوصية أكبر لكون النساء ممنوعات من الصعود إلى السطح في عائلتنا..

نُدخن ونتسامر حتى وقت متأخر من الليل، ننام ونصحو ونأكل ونشرب ونخرج سويا كتوأمين متلازمين، أجد في علي الابن الذي أقلق وأخاف من تقلبات الأيام عليه، بل وحتى أخافُ عليه من نفسي التي تجنحُ كثيراً نحو الملذاتِ والشهواتِ، وأجدُه أحيانا الناصح الأمين الذي يمنحني الرغبة في السير نحو الأمام وترك تخبطي وعبثي، ومع كل ذلك فإن تأثيري في شخصيته أكبر وأوضح من تأثيره عليّ..

يختلط في شخصه الجدّ والهزل، والقلقُ والتوجس والشجاعة والإقدام، يكونُ خائفاً ضعيفاً فأحتضنه، ويصبحُ شامخاً قوياً مجاهداً في صخب الحياة ودوامات الأيام فيحتضنُني، أتجه يمينا فألقاه كظلي لا يُفارقني، وينظر شمالاً فيجدني ظله لا أفارقه لحظة..

كانت أم سلمان تسألني عنهُ دوماً بعد أن أخبرتُها برغبته بتجربة ما قد تمنحه إياه، أرادت أم سلمان تجربة شئ جديدٍ مع علي، أخبرتني بأنها ستكون تحت أمره وطوع يمينه.

حاولتُ استغلال إلحاحها بلقائه فطلبت منها مبلغاً من المال، لشراء ملازم لي ولدفع قسط لمدرس علي الخصوصي لمادة الرياضيات فالامتحانات على الأبواب ولابد لعلي أن ينجح وهو الذي يكره الرياضيات ويعاني من دراستها، فاستجابت

أم سلمان الطيبة القلب ولم تمانع ابداً، بل زادتْ على المبلغ الذي طلبته وكانت تمنحُني مبالغ مالية كهدايا دون أن أطلب منها شيئاً..

لم تكن الفترة طويلة بين علمها برغبات علي ولقائهما، فما هي إلا بضعة أسابيع حتى كان علي معها يأخذ منها درسه التطبيقي الأول.

كانت تلك المرة الأولى التي وجدت نفسي فيها مرتبكاً تجتاحُني هواجسي ومخاوفي.. ألف ألف فكرة تزاحمت في بالي، أدخن وأشربُ بيدين مُرتجفتين، وأخرُجُ كل حينٍ إلى سطح المنزل لعلي أرى علياً عائداً..

تأخر علي، قررت أن أعبر إلى منزل الحوته أم سلمان، أتخيلها قد أتت على علي فاغرة فاها لتزدرده لقمة واحدة، أو لعله يبكي بين يديها الآن خجلا منها... أضحك مما أنا عليه من هواجس هاهاها كلا، أبعِد تلك الخيالاتِ التافهةِ عنكَ يا ولاء، فعلي رجلٌ فحلٌ، وسيأتي حتماً مرفوع الرأس!

وفجأة يبرز علي! ما أن رآني حتى أسرع نحوي راكضاً، أحتضنته بقوة وقبلت جبهته..

- تأخرت يا حبيبي.. لقد قلقتُ عليك كثيراً

- لمَ القلق؟ وهل ذهبتُ لأحارب في الجبهةِ مثلاً؟

- لا أعلم.. (تنهال دموعي فجأة وأجذبه نحو غرفتنا سائلاً إياه): ها ولك سولف.. حمامة لو غراب؟

- حمامة استاذي.. حمامة.

أوّاب: شيخي و نشأتي/2

«هذا بياني الأخير الذي أدلي به من كوكبِ الوحوش
لن أغمُرَ نفسي ثانيةً أبداً في مياهِ بالوعاتِ الأدب التي
لاقرار لها. سوفَ أجدُ عملاً أحفظ به تماسُك الجسد
والروح مع بعضهِما، ولن أبذُلَ محاولةً لأن أكتُب وأنشُر»

روبيرتو بولانو نجمةٌ بعيدة

(الحمد للّه تعالى وكفى.. والصلاة والسلام على حبيبهِ أبي القاسم المصطفى.. وصلوات اللّه وسلامه على اشرف خلقه آل بيت نبيه، والسلام على ساداتنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبضعة الرسول فاطمة الزهراء البتول وعلى الحسَن والحُسَين، وحمزة والعباس، وعلى أزواج النبي الطاهراتِ من الأنجاس والأرجاسِ..

الحمدُ للّه الذي توحيدُه أجلُّ ما اعتنى بهِ عبيدُه
العالِمُ الحيُّ القديمُ الباقي القادِرُ الغنيُّ بالإطلاقِ

أما بعد..

أوصيكم عبادَ اللّهِ ونفسي الخاطئة المُذنبة بتقوى اللّه العظيمِ وطاعته ولزوم أوامره وكثرة مخافته فإنها شعارُ المؤمنين، و دِثارُ المتقين، و وصية اللّه تعالى فيّ و فيكم اجمعين.....)

صوتُه الجُهوري يصدحُ من خلال مكبرات الصوت في أرجاء المنطقة، يحضر

للصلاة خلفه عشرات المصلين، يتسابقون بعد أداء صلاة الجماعة ليصافحوه ويتكلموا معه، ويسألوه عن ما أختلفوا بشأنه من أمر دينهم ودُنياهم، كان يبتسمُ للجميع، لكل المؤمنين المتقين الذين يخافون اللّه ويخشون عذابه، ولايدعون من دونه أحدا..

في البداية أسرتني كلماته وحلمتُ أن أصبح خطيباً مثله و دعوت اللّه وتوسلته ليلاً خلالَ أدائي لصلاة الليل أن أكون سبباً في نجاة من يسمعُ الكلام ويعي معناه و يطبقه، كنت أريد أن أنطق بما يحمل الناس على الطاعة، واجتناب المعصية و الآثام..

وفي فترة ما، كنت قد انتجتُ نصاً قريباً إلى روايةٍ صغيرة، أو قصةٍ طويلة، نوفيلا كما يسميها الكتاب ممن جعلوا الرواية سيدة أجناس الأدب بعد أن هجروا الشعر وصناعته.. كتبتُها خفية من أنظار شيخي في عامي العاشر، و هو ما زادني فخراً بنفسي لما لم يحققه أقراني، رسمت في تلك النوفيلا صورة نبي اللّه آدم.. كيف عاش في الجنة وكيف أُبعِد عنها مطروداً مذموماً بغوايةِ إبليس الرجيم، ليستقر وزوجه حواء على الأرض، لقد كونت فكرتي العامة فيما كتبت حول ما قرأته في القرآن وكتب التفسير المختلفة، التي كانت في مكتبة المَسجد، لكنني حينها جعلتُ من الشياطين والجان وأقوامٍ أخرى كالغيلان والعماليق والسعالي شخصياتٍ في قصتي تلك، إذ لم تكُن من حدودٍ لخيالاتي، ولم يكن من مُحددٍ لما يمكن تسميته بابداع طفلٍ لم يتجاوز عامه الحادي عشر، جاء بها:

[صنعَ إبليسُ لنفسهِ عرشاً على ماء البسيطة، في تحدٍ منه لِبَني آدم، الذين اعتقدوا أنَّ من خُلِق من نار يرتعِدُ و يخافُ الماء حتى قدّسوا ذلك الماء، وعبده بعضُهم وجعلوهُ ربَّ أرباب الأرض و أقدسَ أقداسِها، جلس عليه بكلَ هيبة و وقار و نادى في أبنائه هفاف و زلنبور و ولّها و أبيض و ثبر و أعور و داسم و مطرش و دهّار و تمريح و لاقيس و مقلاص و أقبَض ولما وصلوا عنده انحنوا له

إكراماً وتذللاً وخشيَة غضبه وعقابه.. أشارَ لهُم برفع رؤوسِهم في حضرتهِ، فلما رفعوها قال:

(إني أنا ربكم انشأتكُم من جسدي فأحسنتُ ذلك، لا يهوه و لا ربٌ غيري أنا ملكُ الظلامِ وسيدُ الأرضين كلها.. فسيحوا في الأرض فاجعلوا من نسلِ آدم عبيداً لي و لكم، لكلٍ منكم عملاً خصصتُه به، أعظمُكم عندي منزلة أعظمُكم فتنة لمن كانوا أفاضِلنا في الفردوس الأعلى، وسيكونون بتعاضُدكم وتكاتفكم من الأخسرين بعد حين)].

كانت تلك النوفيلا أكبر تجارب حياتي وقتذاك وقد لاقيت القمع والمُجابهة بالسب والضرب والشتم من شيخي عندما اكتشفها ولو أنها لم تنل التمزيق والحرق على يديه لأصبحت بعدَ تطويرها بما أمتلك اليوم من إلمام بفنون أدبية ومعلومات دينية وتاريخية من أروع ما كتب في قصة أبي البشر آدم عليه السلام.

لقد ظن الشيخُ بعد قراءتهِ لما كتبتُ بإصابتي بمسٍ شيطاني وكان يرقيني ويُجبرني على شرب ماء قرأ عليه فاتحة الكتاب سبعاً، كل قدح ماء على ثلاثِ جرعات آخذ بين كل منها نفَساً عميقاً و يجبرني أن أدعو لنفسي و له بالمغفرة والرضا من رب العزة جلَّ وعَلّا.

حينما بلغتُ الحُلم إبتدأ معاملتي ببعض الخُشونه، أصبحت أراه شيئاً فشيئاً رجلاً قاسياً بلا قلب، صارَ يوبخُني لأدنى الأسباب، لم يكن يُحبني، كان مُهتما بأخواتي أكثر مني، فهن برأيه الطريقُ إلى الجنة، وأنا عاجلا أم آجلا سأكون كما خطط لي من حفظةِ القرآن وأتوجهُ بعد إتمام الاعدادية إلى معهد إعدادِ الائمةِ والخُطباء لأتمّ مسيرته و أخلفه فيما هو فيه وأكون له ظلاً وسنداً وعوناً..

كان سبباً رئيسياً في خوفي من كل شيء، ومعاناتي من الوحدة، لم يسألني عن امتحاناتي أو فروضي المنزلية يوماً، وأكاد أجزم أنه لم يكُن يعلمُ في أي صف أدرس..

وبعد حين تغيرت نوعيةُ قراءاتي، فصِرتُ أقرأ كتباً أستعيرُها من المكتبةِ العامة التي أذهب إليها كل شهرٍ مرتين، أستعيرُ كتُباً أخفيها بين كُتبي المدرسية عن الفلسفة، عن فلسفة أفلوطين وسبينوزا ومالبرانش وهيغل وغيرهم..

بحثتُ عن الإله في الفلسفة، ما لهُ وما عليهِ، كما قرأتُ كتُباً تهتمُ بجدلياتِ الفارابي وابن سينا وابن رشد والسراج واحمد بن خابط وابن سمعان الهندي وأبو البقاء الكفوي..

كان من عادةِ شيخي أن يخرُج من عُزلته كل ثلاثة أيام زادت أو نقُصتْ، فيُنادي على والدتي لتهرع إليه على عجل.. يطلبُ منها مناداتي، فتجيبه (حاضر يا شيخ)، و ما أن أحضر بين يديه حتى يسألني كل مرة الأسئلة ذاتها:

- هل قرأت وِردَك اليومي من القرآن؟

- نعم شيخي.

- هل صليت على النبي مائة مرة؟

- نعم شيخي.

- هل حمدت اللّه مائة مرة؟

- أجل بالطبع حمدته ولم أنس ذلك يا شيخ.

- هل حوقلتَ وكبرتَ اللّه مائة مرة؟

- نعم

- إذن اذهب إلى غرفتك ونَم.

- حاضر

وهنا يبتسم راضيا وأغادرُ إلى المخزَن وحيداً.

في أحدِ الأيام، أخبرت والدتي شيخي أنها شاهدتني أدخنُ مع أحد أصحابي في طريق عودتنا من المدرسة. كانت قد سألتني حينها عن ذلك التصرفِ المُشين، فأجبتُها:

- لا تخافي يا أماه، لن أموت بسببِ سيكارة، لقد جربتُها فحسب، وأقسِمُ انها كانت المرة الأولى، شهقتان أو ثلاثا يا حبيبتي ليستْ في كل الأحوالِ بمُميته، ولن تجلب لي سرطاناً بعد حين.

- ومن صديقُ السوءِ هذا الذي كان يدخنُ معك؟

- سنان يا أمي، هو أفضل صديق لي، بل إنه صديقي الوحيد، وأنت تعلمين من أمرِهِ كلَّ شيء، فالشرى المائي قد آذاهُ كلَّ الأذى، وقد استعطفتهُ حينَ طلب مني تجربتها معه، لا شيء غير ذلك.. أقسم لك بربِ الكعبة، هي مرةٌ واحدةٌ لا سابق لها ولن تتكرر.. لا تخبري شيخي بالأمر وادعي لنا بالتوفيق.

لكنني فعلتُها مرة ثانية ودخنتُ مع سنان وكنت أشعرُ بلذةٍ كبيرة في ذلك، وكررتها ثالثة، وكنت أتلذذُ في المرة الثالثة أكثر من سابقتيها، بل أنني أنا من ألححتُ على سنان أن ندخن، ربما تحدياً لذاتي التي ترزحُ تحتَ سلطة والدٍ ذا قلب متحجرٍ لا يرحم ولا يعذِر، ولا يُحبُ إلا نفسه..

في الحقيقة هو تزوج ليُكمِل دينه، وأنجبَنا ليكسب رضا ربه بتربية أطفالٍ صالحين، كانَ يطعِمُنا ويسقينا لا لحبه لنا بل لئلا ينال غضب خالقه، عزلني عن أخواتي في هذا المخزَن القذر ليتخلص من مشاكل محتملة على الرغم من أنه كان في المنزلِ ثلاثُ غرفِ نوم، يمكنني استغلالُ أحدها، وربما أراد لي العُزلة كي أعيش متصوفاً عابداً لا لأنال الرضا والمغفرة لنفسي، ولكن لينالهما هو عن تربيتي وإحساني لنفسي بأداء عباداتي! في المحصلة النهائية، فإنه قد فعل كل ما فعلهُ لنفسه فقط.. لينالَ الفردوسَ ويتناكح مع حورياتِ الجنة، ويخدِمهُ

وِلدانُها المخلدون، ويتركَ والدتي بلا بعل في أحد القصور السماوية، كنتُ أتسائلُ حينها مع نفسي إن هو تركها ونال سبعين حورياتٍ من الجنة، فكيفَ ستعيشُ بلا زوج؟.. ولكني لم أجِد فيما قرأت لذلك جواباً شافياً كافياً حد اليَقين.

كانت مشاعرُ الإعجاب السابقة لشخصه تتحولُ في داخلي لكُرهٍ عميق، لأدنى فِعلٍ يفعلُه..

وأياً ما يكُن فإن والدتي التي وعدتني بعدمِ ذكرِ أمرِ التدخين أمامه قد نكثت بوعدها لي، وأخبرتهُ ذات ليلة بما كان بيني وبينها، وهو ما جعله غاضباً بشكلٍ جنوني، قيدَني إلى سريري في الغرفة الحقيرة المشؤومة بحبلٍ غليظ وضربني بحزام جلدي على باطن قدمي عشرين (فلقة)، وتركني على هذهِ الحالِ ليلةً كاملة بعدَ أن نزعَ المصباح الذي أضاء الغرفة..

في اليومِ التالي، وبعدَ ليلةٍ مظلمةٍ مُرعِبَةٍ خِلتُ انها لن تنتهي، كنتُ مُجبَراً أن أعتذِرَ منه، وأقبل ظاهر يمينه، خاتميه الضخمينِ في وسطاه وبُنصُره، وهو يتكلمُ معي ويَحُثني على الاجتهادِ في لِحاقِ الكامِلين مادام في الوقتِ سَعة، وعلى الارتباطِ بالدينِ والابتعادِ عن جليسِ السوء، يقصدُ بذلكَ سنان..

كان الكره بداخلي يتصاعدُ تجاهه، تمنيتُ نفسي كلباً أعضُ يده وأنهشُ منها ما استطعت، وهل يُعاملُني إلا ككلب؟ أو كحيوانٍ منزلي آخر يخرُج عن السيطرةِ فيستعمل العصا معه؟

بكل ذلك حلَّ الظلام في قلبي لكل ما له علاقة بشيخي كما الظلامُ حلَّ في الغرفة الشيطانية الخرِبة تلك.

رؤى: العائلة والتربية

﴿أَوَمن ينشؤا في الحِليَةِ وَهُوَ في الخِصامِ غيرُ مُبين﴾
القرآنٌ الكريم سورة الزُخرُف:18

اسمي رؤى.. لا أرى ضرراً في علاقات الفيسبوك ووسائل التواصل الاجتماعي الأخرى إذا ما استُعملت بدقة و حذر، فهي ككؤوس زجاجية تشربُ الخمر بها تارة وتشربُ العصائر بها تارة أخرى، فإن انت شربت الخمرة سكرت و إن زاد سُكرك خذلت نفسك وخذلتَ المُحيطين بك، وإن أنت شربت العصير ما أصابك من ضرر شئ.

لي عددٌ من الاصدقاء على الفيسبوك وغيره، لكلٍ منهم خط أحمر لايتجاوزه معي، على الرغم من أنني قد كنت نشرت صورتي الشخصية الحقيقية دونَ خوفٍ أو وجل.

لطالما سعى والدي لجعل شخصيتي قوية و حاول إبعاد أشباح الخوف الأنثوي التقليدي عني، لم يكن يريدني ابنة تقليدية، أراد أن أتميز على كل فتيات الدنيا، لأنه أحبني وتعلق بي بشكل كبير، إذ لم يرزق و والدتي بطفل غيري، فأنا وحيدة في عائلتنا المكونة من أب و أم و ابنة، كان صديقاً لي منذ أيام طفولتي، وكنت طفلته المدللة حتى تساقطت أولى قطرات دم انسابت بين فخذي في الحمام، حين ناديت والدتي بلسان يرتعش خوفاً مما جرى، بالرغم من انها قد أعلمتني بما سيحصل في مرحلة نضجي المرتقبة.. كان أبي حينها يشرب القهوة كعادته،

وجلست أمي معه تشرب شايها الأخضر بشكل يومي مكرر.. فزع والدي، وأبلغها أن تسرع نحوي.. فهرعَت نحو الحمام، أبلغتني انه لا داعي للخوف، سيزولُ كل ذلك بعد عدة أيام، إنها فقط بويضتي الاولى التي سقطت مني لتعلن انني أصبحت امرأة بالغة ناضجة.

نظرتُ إلى جسدي أمام المرآة كثيرا بعد ذلك اليوم، رأيته ينمو ويزداد جمالاً يوماً بعد يوم، رأيت الفراشات تحوم حول حمالة صدري، وتحط على خدّيَ المتوردين حمرة.. مددتُ سبابتي نحو الاعلى فحطت عليها فراشة ناعمة رقيقة بجناحين رائعين، يتراقصان بمرور نسمات باردة عذبة حركت ستارة غرفتي الزهرية اللون ولامست شفتيّ المُنتفختين..

ربّاني والدي تربية صالحة، كان يراعي خصوصيتي كلما تقدمت بي الأيام، إحترم رغبتي بوضع أحمر الشفاه للمرة الاولى وأنا بنت سبعة عشر ربيعاً، فقد أخبر أمي بعد نقاشات مستفيضة عقداها سوياً بأنه لا يمانع وضعي أحمر شفاه باهت اللون في المناسبات العائلية و عند خروجنا بسيارته سوياً، كما حصلت موافقته على استعمالي الملقط لتحديد حواجبي و اشترى لي فيما بعد ماكنة خاصة لنمص الحاجب وتعديله في عيد ميلادي في تلك السنة..

انحدرت والدتي من عائلة شيوعية، وقد قتل أبوها على يد النظام السابق بتهمة التحريض ضد حزب البعث العربي الاشتراكي والانتماء للحزب الشيوعي العراقي، وتركت أمها الحياة السياسية بعد ذلك وحتى الأكاديمية إذ كانت أستاذة مختصة بتاريخ الشرق الأدنى القديم في جامعة بغداد واعتزلت التدريس لتلازم المنزل لتربية والدتي وأخويها الصغيرين معتمدة على أموال منحتها لأحد معارفها من الصابئة المندائيين لتكون شريكته في محل لصياغة الذهب في شارع النهر. وقد قررت والدتي أن تدرس التاريخ فتكون امرأة حديدية كجدتي التي تحملت كل الصعاب ولم تنحن أبداً.

وكان والدي أحد اقربائها، وعمل موظفاً في وزارة الثقافة، حتى حصل على شهادة الدبلوم العالي المُعادل للماجستير عن طريق منحة قدمتها أحد المنظمات الأجنبية للوزارة، وعند ذلك قام بنقل خدماته لوزارة التعليم العالي ليصبح تدريسياً لمادة الاقتصاد في الجامعة المستنصرية.

كنت أحاول استراق السمع من غرفتي في الطابق العلوي لنقاشات والدي ووالدتي التي يعقدانها في المَطبخ عند حلول الشتاء، وفي غرفة المعيشة (الهول) صيفاً، فأسمعه يقول لها:

- هي مصدرُ فخرنا، فتاة متميزة ذكية وجميلة، واللّه يحب الجمال، وأحمر الشفاه والحلي والزينة وكل ذلك ديدنكن يا بنات حواء، وفيكن يقول اللّه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ في الحِلْية وهو في الخِصام غيرُ مبين﴾.. أتركيها وشأنها يا أم رؤى حماك اللّه تعالى.
- ولكن يا عزيز..
- قُضي الأمر. وانتهى النقاش.
- حاضر يا عزيز، ستتحمل كل العواقب أنت وحدك، أنت المسؤول عن هذا الملف، وأنا متأكدة من ان عدم استعمالك للحزم معها سيحملنا ما لا طاقة لنا به.
- هاهاها...
- لقد ربيناها يا امرأة وأحسننا تربيتها، وإن أنت وضعت الفتاة في علبة معدنية ومنعتها كل أسباب الاتصال بأحد، فإن هي أرادت أن تفعل شراً بنفسها لفعلت، ولما استطعتِ منعها لا أنت ولا ألف أم مثلك.
- أووووف منك عزيز.. كلامك مقنع ولكنك تعرف مخاوفي، آسفة فربما كان كلامي حاداً بعض الشئ.

ـ لا عليك يا حبيبتي.

بالقاعدة المتينة من الترابط الأسري والحب كنا أسرة مثالية وكنت انثى حُرة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى..

سولاف: سنان في المستشفى

استيقظتُ مُبكراً، ذهبتُ للحمام لأغتسل، ثم ارتديت تنورةً مُكسمة رمادية اللون، وقميصا أبيض ضيقاً، يبدو أنني اكتسبت بضع كيلوات إضافية ولا بد لي من اتباع حمية من نوع آخر لأحافظ على لِياقتي.

نزلتُ السلم ففوجئتُ بسنان قد نهض قبلي وارتدى ملابسهُ هو الآخر متهيئاً للخُروج، فسألته:

ـ أكادُ لا أصدقُ عينيّ.. أفي هذا الوقت المبكر تخرُج؟

ـ نعم لقد اتصل أوّاب بي مساء الأمس يدعوني لأمر هام.

ـ ما يكون ياترى؟

ـ لا أعلم، إن سألت والدتي فأبلغيها أنني سأكونُ في منزل ولاء نذاكرُ بعض الموادِ الدراسية كي لا تقلق.

ـ لا بأس، سأبلغها بذلك. ألن تتناول فطورك؟

ـ كلا..

أما أنا ففتحتُ الثلاجة، وأخرجتُ قطعة بيتزا أكلتها على عجالةٍ من أمري وخرجت.

كان الجو مُتربا على نحو تصعبُ معه الرؤية، حمدت اللّه انني لم أرتدِ

تنورتي السوداء.. انتظرتُ سائقَ الخط قليلاً حتى وصل، كنا ثلاثة فتياتٍ فقط في الخط، لم تجمَعنا يوماً محادثةٌ سارتْ على نحوٍ جيد، ولم نكُن صديقاتٍ أبداً حتى صرنا لا نكلِمُ بعضنا بعضاً ويتولى السائقُ تنظيم المواعيدِ بالاتصالِ بكلٍ منا على حِدة، وهو رجلٌ طيبٌ صائمٌ مُصلٍ على الدوام، تزوجَ في السادسة عشر من عمره وله الآن ثلاثة أولاد توائم يكبروننا عُمراً وابنتان اثنتان وقد دخل عامهُ الثاني والأربعين.

وما إن وصلت السيارة إلى باب الكلية حتى رن هاتفي..

- ألو سولاف؟

- نعم.. تفضل..

- أنا حامِد ياعزيزتي..

- أفٍ لك، هذا الرقم العاشر لك، كم من مرةٍ أخبرتُك أن ترسِل لي رسالة تُعلِمني فيها بتغيير رقمك فأنا لا أجيبُ اتصالات بأرقامٍ مجهولة.

- هذا ليسَ وقتاً مناسباً لذلك يا سولاف. فنحنُ في مستشفى الراهبات.. تعرض سنان إلى بعض الرضوض وكسر في ساقه نتيجة حادث سيارة..

- حادث؟

- نعم. لاتخافي.. الوضع مسيطرٌ عليه.

- كيف حدث ذلك؟ هل كنتَ معه؟ أرجوك.. لا تخفِ عني شيئاً.. أريد أن أكلمه..

- هو مع الدكتور في الداخل، تعالي وسأشرحُ لكِ... إنه بخير فلا تقلقي..

- وكيف لا أقلق؟ سآتي على الفور.

هرعتُ من فوري إلى مستشفى الراهبات وكان حامد بانتظاري عند بابها الخارجي..

- ما الذي حصل؟

- كسر بسيط أسفل رُكبته اليمنى وبضعة رضوض في قدميه، وقد قام الطبيبُ بما يلزم بعد أخذ عيناتِ الأشعة، سنان يرقدُ الآن في الطابق الثاني، وسننقله إلى منزلكم عصرا.

- ومن الذي احضره؟ لمَ لمْ يتصل بنا هو؟

- سائق تلك السيارة هو من جلبَه للمستشفى، وهو من اتصل بي حين طلب سنانُ منهُ ذلك قبل أن يفقدَ الوعي.

- وأين هو سائق التاكسي ذلك؟

- تعرفين القوانين ياعزيزتي، فالمُبلِغ عن هكذا حوادث يُحتجز حتى تأتي الشرطة لأخذِ أقواله. لقد انتظرني الرجُل ها هنا حتى قدِمتُ وشكرتُه طالبا منهُ المغادرة وتبادلنا الأرقام.

- هلا ذهبنا إلى غرفة أخي؟

- تعالي معي.

أمسك حامد بيدي، لنرتقي السلم نحو الأعلى، كلامه معي أشعرني بالطمأنينة ويده الضخمة الدافئة بعثت دفعات من الطاقة سرت في جسدي لتهدئَ من رَوعي وتقلِلَ من توتُر أعصابي، أفلتتُ يدي مِنهُ بسرعة، على أنني بعد حين حينما ادلَهَمَّ الظلام فكرتُ في أنني لو أبقيتُ على يدي بين ثنايا يده الدافئة، حتى نصِل باب الغرفة على الأقل، أو حتى حين ندخلها، فسنانُ يغطُّ بالتأكيدِ في نومٍ عميق.

إحساسٌ لم أجربهُ من قبل، هو مزيجٌ من الشعورِ بالطمأنينةِ والدفء بين يدي رجُلٍ أنقذ أخي وتولى مسؤوليته قبل مجيئي، وقد بدا لي ذلك بداية لتغيير نظرتي إليه..

كنت أفكرُ كيف أني لم أضعُف أمامَ أي شاب حاولَ ملاطفتي في الكلية، ولم أكن فريسة لأحد بل كنت دائما قوية صلبة كوالدتي، ولكني لم أكن صريحة حد القباحة وعدم المجاملة كمثلِها، بل كنت أتلاعبُ بهذا وذاك دون أن ينالا مني شيئاً.

حين وصلنا الغرفة، كانت إحدى الممرضاتِ هناك تغيرُ لهُ كيس المغذي. أعطاها حامد إكرامية فامتنعت عن أخذها ولما ألح تقبلتها شاكرة إياه وتوجهَتْ إليّ بالحديثِ طالبة أن لا أبكي، قالت إن الموضوع بسيط ولا يستحق ما أنا عليه من انفعال. سحب حامد كرسياً وطلب مني أن اجلس، فشكرته، جلستُ قبالته على الطرفِ الثاني للسرير.. لمحتُ في عينيهِ بريقاً أخّاذاً، وميزتهما تنظرانِ إلي فتظاهرتُ بعدمِ الاكتراث على الرغم من أنهما لم تنظرا إلي تلك النظرة الاعتيادية التي تعودتُها منه.

اتصلتُ بوالدتي وأعلمتها بما حصل، وقلت لها أن لا داعي لحضورِها، سنتكفل أنا وحامد بايصال سنان إلى المنزل عصراً.

ممرضة أخرى حضرت إلى الغرفة، ربما تكون قد تعدت عامها الخمسين إلا أنها انيقة لا يبدو على وجهها أثر السنين، توجهت لي بالكلام:

- أنت قريبته؟ (قالتها وأشارت بيدها لسنان)

- أخته.

- إن لنفسِكِ عليك حقاً، كفاكِ فقد قطعتِ لي قلبي بدموعك، والموضوعُ

لا يستحق كل ذلك، تعالي معي، عدّلي مكياجك فقد يستاءُ خطيبُك للأمر(وأشارت بعينيها لحامد)

ارتبكتُ من فوري وسرت في جسمي رعشة، فأجبتُها:

- هو صديق أخي، وليس خطيبي.

ولكنها سحبتني من يدي نحو غرفة المُمرضات لتمسح بيديها الحانيتينِ ما سالَ من المكياج على وجهي وتجففَ دموعي بمنديل قماشٍ معطر وتهدئ من روعي..

وصلَ ولاء وأخوهُ علي للمستشفى، ألقيا عليّ التحية وصافحا حامد بحرارة، وجذباه نحو الخارج ليسألاه عن تفاصيل الحادث، وقد بدا عليهما التأثر الشديد لما حصل.. ظلوا في الخارجِ حتى دخنوا سكائر الدنيا كلها بكل شراهة!

التفتتُ لأرى أوّاب خلفي، فزعتُ وكدتُ اصرخُ لولا الخجل، لقد أخافني بوقوفه خلفي مباشرة.. ربما لم يقصد ذلك، ولكنها المرة الأولى التي أراه فيها حليق اللحية والشارب، حليق الرأس، تلمع عيناه بوهج أحمر براق، وتعلو وجهه ابتسامة ليس لها محل في هذا الموقف بدا لي على الرغم من قصر قامته كأنه واحدٌ من أبطالِ (Twilight Saga) الهادئين في أغلب المشاهد على الرغم من كونهم مصاصي دماء، ولكن ذلك ربما يعودُ إلى تعودهم دماء الحيوانات بدل البشر، أووه كنت مشتتة الانتباه وقد أتعب تفكيري ما مر بي من حادث سنان حينها.

- آسف أشدّ الأسف، ربما أكونُ قد أخفتُك.

- لا داعي للاعتذار، فأنا التي لمحتُ وجودَك فجأة.

- أردتُ أن لا أزعج أخي الحبيب إن أنا أحدثتُ جلبة عندَ دخولي، أكررُ أسفي.

ـ لا داعي لذلك، وأنت متفضلٌ بمجيئك. كيف حال والدتك وأخواتك؟

ـ بخير.

ـ والشيخُ كيف هي صحته؟

ـ هو بأحسنِ حال، أفضل مني ومنكِ.

وتبسم بهدوء فلم أفهم أكانَ يمزحُ أم هو جادٌ في حديثه.

سنان.. تجمعُ الأصدقاء في منزلي

أجلسني حامد على كرسي متحرك و دفعني إلى البارك حيث ركن سيارته، ثم حملني بمساعدة أوّاب و ولاء، إلى المقعد الخلفي لسيارته مُمدداً قدمي المكسورة، سولاف تجلس في المقعد الأمامي لسيارة حامد، أما الثلاثة الباقون فيستقلون سيارة أجرة، توجهنا جميعاً نحو منزلنا في الجادرية وقد كنت اطمئن سولاف التي أصفر وجهها على صحتي وأدعوها لعدم القلق وأطلب من حامد أن يركن السيارة على جانب الطريق لنشرب العصير سوياً، فيكون لي ماطلبت ويشتري ست علب عصير نشربها بينما حاول ولاء أن يلقي علينا أحد النكات فاعترضه أوّاب:

- ستفضحُنا.. أنا متأكد!

أجابه ولاء ضاحكاً:

- كلا.. لا تخف هي ليست من ذوات 18+ هاهاها.

يقول نكتته فنقهقه ضاحكين، حتى سولاف التي رأيتها متأثرة لما أصابني كانت تضحكُ بعفويةٍ بالغة.

وصلنا إلى المنزل، لنجد والدتي بانتظارنا..

- حمداً للّه على سلامتك، لا بأس عليك يا بُني، لا تحزن. فأنت محاط بأصدقاءٍ رائعين، سيكونُ لهم دورٌ كبيرٌ في جعلك تتعافى بأسرع ما يُمكن.

قبلتني قبلة دافئة على وجنتي وأمسكت بيدي اليمنى بكلتا يديها وعيناها تدمعان وهو ما منحني إحساساً بأهميتي لديها للمرة الأولى! حتى أنها عرضت على أصدقائي المبيت معي حتى أتحسن، سألها حامد ممازحاً (كلنا يا أم سنان؟) فأجابته بابتسامة: (ولم لا، فالمنزل يكفيكم جميعاً.. و سولاف تستطيع العناية بكم أخوة لها بالإضافة إلى سنان الحبيب)! فعلقت: (واااووووو الحبيب مرة واحدة هنيالي بك يا أماه هاهاها) فغمزت لي بعينها، لكن ولاء قدم عرضاً أفضل من مبيت الجميع وهو أن يتناوبوا على رعايتي، وأيّدهُ أوّاب في ذلك.. فتوافق أمي وتقول مازحة بأنها أختهم الكبيرة وسولاف أختهم الصغيرة فيضحك الجميع. يقول ولاء:

- هذه الليلة سنكونُ سوياً معك، وسنكونُ في الغد وما تلاه في مُناوبات لرعايتك وفق جدولٍ نتفقُ عليه ونعرضُه للتصويتِ ونقرّهُ بالأغلبية البسيطة.

تجيبه أمي:

- أهلاً بكم جميعاً سأذهبُ لأحضّرَ العشاء.

تناولنا وجبة عشاءٍ خفيفة وظللنا نتسامرُ حتى ساعات الفجر الأولى.

أوّاب: وحدةٌ و رُعب

توسلتُ مِراراً وتِكرارا لوالدتي -التي لم تكُن ذات تاثيرٍ يُذكر في إدارة شؤون المنزل أو المشاركةِ باتخاذِ القراراتِ المصيريةِ التي تخص العائلة أن تتحدثَ مع الشيخ بشأن نومي وحيداً في المخزَن المظلم المخيف، لكن دون جدوى.

لم يكُن ذلك المكان الموحِش يشجع على القراءة أو الأكل أو الشرب أو أي شيء، كان عبارة عن غرفة مظلمة رطبة مبنية بطريقة (العكادة) القديمة أبعادها 2×3 متر، تتدلى من سقفها مروحة تدور بحركة بطيئة على الدوام وتصدِر مع حركتها صوتاً مزعجاً لم ينته على الرغم من تزييتها، وفي أحد جوانبها ضوء خافت لمصباح أصفر بغيض كنت أكره ضوءه واستبدلته فيما بعد بمصباح فلورسنت أبيض عدة مرات كان يعطبُ في كل مرة دونَ سبب حتى أعدتُ المصباح الأصفر فعادَ يعملُ بشكل طبيعي، وهو مما جعلني أشكُ بأمر هذه الغرفة الصغيرة، وظلت بابُها الخشبية ذات المزلاجِ الصدئ مغلقة بقفل كبير على الدوام حتى صارَتْ غرفتي.

إزدادَ نحولي وفقدتُ شهيتي للطعام وتبِع ذلك أن ضعُفت قواي وتهالك جسدي ليلة بعد ليلة في ذلك المكان المتروك، كانت الحرارة ترتفع بلا مبرر هناك، في أشد أيام الشتاء برودة كنت أخلعُ عني كل ثِيابي وأشغل المروحة السقفية ليلاً، فلا تنفع في جعل المكان أنسب للنوم، لَكَم بقيتُ على حالي في تلك الليالي التي تجعلُ السريرَ الحديدي يكوي قدميّ ويدَيّ، فاضطرُ للنوم على الأرض..

في ذاتِ شتاء، قصصتُ على والدتي يوماً أني رأيتُ من خلال زُجاج شباكِ غرفتي الصغير رجلاً في الظلام ذا ملامح تشبهُ شيخي أو هو حقاً شيخي ليلتين متتاليتين، يخرج من المنزل ويتوجه نحو غرفتي يخرج من فمه بخارٌ أبيضٌ محمرٌ كثيف، و يفرك بيديه من شدة البرد، يقترب من الغرفة، فأختبئ تحت بطانيتي كأني غاطٌ في نومٍ عميق، فما أن يصلَ الباب، حتى يسحب المزلاج فيغلقها من الخارج ويمضي. وكان كل ذلك يثيرُ في الرُعب الشديد.

- أنا خائف.

- ممَ يا بُني؟

- لا أعلم. من تصرفاتِ شيخي، أو ممن قامَ بتلك الفعلة المثيرة للريبة.

هو رجلٌ عارفٌ فقيه متقي، وكل تصرفاته لها أبعادٌ لا نعرفُها نحنُ بعقولنا البسيطة. (بذلكَ أجابتني وقتها بكل سذاجة).

- لربما كنت تتخيلُ ما لم يكُن؟

- لم أرَ إلا حقائِق!

- سأسأله.. سأسأل شيخك يا أوّاب.

بذلك وعدتني ولكنها لم تُنفِذ وعدَها ذاك، و لم تسألهُ على الأرجح.

ومما اذكره و لا أنساه أني كنتُ قد عدتُ من امتحان نصف السنة لمادة الرياضيات فرحاً بما حللته من أسئلة، ربما سأحصل على ثمانين بالمائة، و هو أقصى ما كنت أتمناه، أكلتُ طعام الغداء في غرفةِ الضيوف، وحملتُ معي سندويجاً من الجُبنة وقدحاً كبيراً من الشاي مضافاً إليه القليل من القهوة لمساعدتي في الدراسة للامتحان القادم، وبضع حباتِ زبيب، و ذهبتُ إلى

غرفتي، صليتُ صلاة الظهر والعصر والمغرب واحدة تلو الاخرى وقرأتُ وِردي اليومي من القرآن الكريم، ولما انتهيت قبلتُ المُصحف وبدأت أدرس، يا اللّه توكلت عليك، وكنت أردد: ففهمناها سُليمان وكُلاً آتينا حُكماً وعِلماً..

كنت دون إرادة مني أحمل المصحف بيدي سائراً به نحو الخارج، يداي ترتجفان وتنهال دموعي بغزارة، فتحتُ باب غرفتي، رميتُ المُصحف أرضاً وأغلقتُ الباب، يدٌ حارةٌ أمسكت كتفي بقوة واعتصرت عِظامي، سقطتُ عند ذلك أرضاً و صرختُ بشكل هستيري: أرجوك اتركني.. ابتعد.. حاولتُ أن أفلت يدهُ وأهرب نحو باب المنزل لكن البابَ يبتعدُ شيئاً فشيئاً حتى يبدو لي أنهُ على مسافة خمسين متراً، سحبني بقوةٍ إلى داخل الغرفة..

في داخل الغرفةِ كلبٌ أسود كان ينبح أمامي محاولاً الانقضاض علي، صحت بأعلى صوتي طالباً النجدة، هجم الكلب عليّ، تفوح من أسنانه وجسمه رائحة دمٍ وبولٍ وطينٍ لزج، حاولتُ أن أتحاشى هجومه فلم افلح بِصدّهَ و امتلأ جسدي بلعابهِ النتن و عضني حتى كاد ليقطعني إرباً إرباً.

فتحتُ عينيّ لأجدَني نائماً وسط المَسجد ممسكاً بقدم والدي الذي غلبه النوم وهو يتلو القرآن الكريم ليلاً.. لا دم في يدي، إنه كابوس آخر..

لكن ما الذي أتى بي إلى هنا؟ لأسرع عائداً نحو غرفتي.. كلا لن أعود إليها بعد اليوم، وعقابُ شيخي لهُوَ أهون عليّ مما يحصل معي فيها، سأحتمي بجدران المَسجد من كوابيسي الشيطانية المُريعةِ تلك أو الحقائق التي تحصل معي فقد اختلطت عليّ الكوابيس بالواقع حتى ما عُدتُ أميزُ بينهما.. ظللتُ حتى ساعات الفجر الأولى أحاول اختيار البقاء أم المضي إلى غرفتي البائسة المُرعبة، و لكني في النهاية اخترت العودة إليها فالنهار قد يبددُ كلّ تلك الرؤى و ربما تعرضت لضربٍ مُبرح من شيخي لا طاقة لي به.

عدتُ إلى غرفتي وكان كل شيء طبيعياً و المصحفُ لازال في مكانه داخل الغرفة، توضأتُ بماء دافئ وصليتُ ركعتين، استلقيتُ أرضاً بعد ذلك و تففتُ عن يميني وعن شمالي ثلاثاً ثلاثاً كما قرأتُ المعوذتين وفاتحة الكتاب وغططتُ في نوم عميق.

سنان: مع الـ(وردي) للمرة الأولى

استذكرتُ مع أوّاب أيامنا الدراسية، كيف كنا نهربُ من الدروس لندخن خلف المدرسة، نتبادل الحديث عن محمد الطحش المتدني الذكاء، كيف كان يتلقى الضربات الموجعة من الطلبة ككيس كبير للملاكمة لايصيبه أي أذى.. هو يدرس الطب في أوكرانيا الآن! هاهاها يا لسخرية الأقدار! محمد الطحش يدرس الطب بمعدل السادس العلمي 61 % وأنا أدرسُ الفنون الجميلة ومعدلي 66 %... الدنيا في بلدنا تسير باتجاهات معاكسة لما هو عليه العالم المتحضر، والخرابُ في مجتمعِنا قد وصل إلى معدلاتٍ قياسية.

طلبتُ من أوّاب أن يشاهد أحد الكليبات في هاتفي النقال لحيدر الحنين زميلنا في المتوسطة، الذي رسب في الصف الثاني، كيف أصبح فنانا مشهوراً تتراقصُ من حوله أجملُ الفتيات واغتبناه على عادتنا مع أغلب أصدقائنا حيث كان مبرر أوّاب (لا غيبة على فاسق).

في الواحدة بعد منتصف الليل، كنتُ ممدداً على السرير، وأوّاب مُستلق بنصف جسمه على الأريكة إلى جانبي الأيسر وقد أسند ظهره إلى المخدة.. نظرت إليه فوجدته صامتاً سارحاً بتفكيره.. تحيط بوجهه الظلمة، كان كأن قرني الشيطان اعتليا رأسه، كانا قرنين عظيمين وقد تلون وجهه بلون أحمر قاتم مخيف.. أغمضت عيني ثم فتحتهما فلم أجد ما رأيته قبل قليل، أوه يا لي من أحمق.

نظر إلي ثم قال:

- سيكون لنا موعد مع فتياتنا في منزل ياسمين عن قريب، حالما تتماثل للشفاء ياعزيزي، فلقد اتفقنا انا وحامد و ولاء على الذهاب هناك، وتم تنسيق كل شيء.

- أنا احبكم يا أوّاب..

- وكلنا نحبك يا أخي، ولن نتخلى عنك. (قالها وقد بدا عليه السعي لإرضائي بكل طريقة، كم أنا محظوظ به(

استأذنني بالذهاب إلى دورة المياه.. تأخر نحو ربع ساعة ثم عاد مبتسما على نحو غريب، سألته عن سبب تأخره، فأجابني بسؤال آخر:

- ألا تزال مشاكلك مع سولاف قائمة حتى اليوم؟

- كلا.. فقد صححنا الكثير مما كنا عليه من خلاف. لقد تقبلتني على ما أنا عليه، وهي تهتم بي.

- كيف تسير أيامها في كلية الآداب؟

- لا أعلم. لا نتحدث كثيرا حول ذلك.

تعلو فاه ابتسامة أخرى لم أفهم مكانها من الحديث فيقول:

- هي ممثلة رائعة، ويا للأسف أنها لم تدخل كلية الفنون الجميلة!

- ما الذي تقصده؟

- لاشيء.. لاتشغل بالك و دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.

- وما ذلك؟

- حديث نبوي شريف، سأشرحُه لك لاحقاً.

- ألا ترى نفسكَ قد أصبحتَ غريبَ الأطوارِ بشكلٍ كبير؟ إنك تزدادُ غرابةً يوماً بعد يوم، ما عُدتَ بالنسبة لي أوّاب الذي عرفته وقضينا أياماً من العُمر سوياً

- ومن ذا الذي يظلُ على حاله يا سنان؟

- أعلمُ ذلك.

- لكنَّ أيامك في المستشفى قد غيرتكَ كثيراً!

- قلتُ لك يا صديقي، دوامُ الحالِ من المُحال.

ثم تناول بيده سيكارة من علبة السكائر الموضوعة على المنضدة.. أشعلها بقداحته السوداء اللون وقدمها لي بعد أن أخذ نفساً منها، و وضع في فمه أخرى وقد دخننا كثيراً حتى امتلأت الغرفة دخاناً فطلبت منه فتح الشبابيك للتهوية.

سرح كل منا بأفكاره بعيداً عن الآخر لبعض الوقت، و ربما أكون قد غفوت قليلاً، لا أدري بالضبط أنمت أم لا، لكنني رأيت صاحبي محاطاً بالظلمة يحرك يديه وشفتيه، كأنما يحادث أحداً لم أره بصوت هو أقرب للهمس. تعوذت من الشيطان الرجيم وأغمضت عيني مرة أخرى، وهنا قد بدأ الخوف والريبة يتسللان إلى قلبي، ثم تجرأت أن حادثته:

- أوّاااب..

- .....

- أوّاب، ألا زلت صاحياً؟

رفعت من نبرة صوتي منادياً إياه.. فلما ظننت أنه سمعني استدار رأسه

نحوي ببطء بزاوية قائمة كأنه روبوت في حركته الميكانيكية التي شابها صوت حديد صدئ لم يتم تزييته، لم يكن تخيلاً هذه المرة.. لقد كان حقيقياً. كان جسده لا زال في ذات وضعه أثناء استدارة رأسه، كما لا زالت يداه وشفتاه تتحركان بذات الطريقة!

- ماذا تريد؟ (قالها بصوت خشن لم يبدو كصوته جمد دمي في عروقي)

- لالالا لا شيء.

- ماذا تريد؟

- أوّاب أأأ أرجوك.. أنا.. لا تتعمد إخافتي، فأنت تعلم، الشرى يكاد يقتلني، إنه حارق!

- ما بك يا أخي؟ (هنا يعود إلى وداعته وطبيعته، وكأن شيئاً لم يكن)

- لا شيء. كنت خائفاً.. وتعرقت كثيراً.. هلا تمسح العرق عني وتدهن لي ظهري؟

- بالطبع. (انت تدلل)

- شكراً

- خذ هذا القرص، سيشعرك بتحسن.

- ما هذا؟

- إنه دواء، وصفه لي الأطباء منذ أيام المستشفى، وقام بتطويره أحد أصدقائي في المختبر مضيفاً إليه بعض المواد الطبية ليخفف من حدته، ويمنحني السعادة، ويمنحني قدرة التغلب على خوفي!

- كل ذلك؟

- نعم.. كل ذلك في قرص واحد.

- ما اسمه؟

- وردي

- أخي سنان.. إعلمْ أن لا أحد خاف بقدر خوفي، ولا أحد قدم كل ما قدمته من تضحيات، و لا أحد عاش مأساتي.

- أعلم واللّه يا عزيزي.

- لا تحلف (قالها بعصبية وقد تغيرت ملامحه).. لا تحلف بهذه الطريقة!

- أي طريقة؟

- هذه.

- ولمَ لمْ تخبرني شيئاً عن ذلك العقار في رسائلنا المتبادلة من قبل؟ وخلال زياراتي لك في المستشفى؟

- لم تسنح لي الفرصةُ لذلك.

- فهل وصفهُ لك طبيبُك المختصُ حتى بعدَ خُروجك؟

- إنك تُكثرُ من الأسئلة.. وتعلمُ أنني لا أحبُ ذلك

- أتصدق.. لقد خُيّل لي أني رأيتُ على رأسك قرني الشيطان قبل قليل!.. لا أعلمُ كيف ذلك ولا أستطيعُ وصفه مفصلا ولكنني رأيته، وأنت تخيفني يا أوّاب!

- هاهاهاها.. أوتصدق ما رأيت؟

- لا أعلم.. آسف، كلا.. إنها هلاوس ليس إلا.

ـ بالطبع يا أخي..

ـ هات القرص، و صب لي الماء لو سمحت.

ـ انت تدلل.

ابتلعت القرص مع الماء.. وسلمت للنعاس نفسي، فما عاد بي قدرة أكثر على الصحو و ربما قاربت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. أحسست بيدي أوّاب الحانيتين تنظفان قيح بعض الشرى في ظهري وخاصرتيّ وكتفيّ، ثم مسدتا لي شعري بحنان هو أشبه بحنان الأب المفقود الذي كنت بأمس الحاجة إليه في ذلك الحين، وفي كل حين.

ولما استيقظت صباحاً تكلمنا بشأن تلك الحبوب، كنا قد اتفقنا على إخبار بقية الأصحاب بموضوعها، وحصل ذلك فعلاً وتمت تجربتها من الجميع فيما بعد، وكانت النتائج مذهلة.

حامد: The tale of tales ولقاءُ سولاف

اتصلتُ بسنان لأخبرهُ بأني عند باب المنزل، فأبلغني أنه سيرسلُ أوّاب ليفتح لي الباب.

- السلام عليكم.. كيف الحال؟ (مددتُ يدي مُصافحاً إياه فصافحني بحرارة مع ابتسامة زينت مُحيّاه).

- كلنا بخير.. تفضل.

- أحضرتُ معي كيلو كباب للعشاء وسنشاهد في سهرتنا معاً فيلم (The tale of tales).

- وما ذاك؟

- سلمى حايك يا عزيزي. سلمى واشطبوا كل أسمائِكم.

- واووو.. رائع.

ارتقينا السُلم نحو الأعلى، فصادفنا سولاف وجهاً لِوجه.. كانت ترتدي بيجاما قصيرة وقميصاً ذا أزرارٍ أمامية بدا جميلاً عليها، ركزت نظراتها عليّ والتقت أعيُننا لثوانٍ وسلمت:

- أهلا حامد. اليوم دورك؟

- نعم. هو كذلك.

- البيت بيتك، أنا في غرفة والدتي بالاسفل في حال احتجتم شيئاً.

- خذي وقتكِ، شكراً لكِ.

- انصرفت دون أن تلقي بالاً لوجود أوّاب.

ودون ان يلقي لها أوّاب بالاً قالَ لي:

- جميلة (وصفها بذلك وعيناه تُشيعانها صوبَ السُلم)

- عسل (قلتها وأنا أعض على شفتي السفلى)

- سولاف تهتمُّ بك، هل شاهدتَ نظراتها كيف أنها ما فارقتك يا دون خوان؟

- من؟ آه.. نعم. ولكنها أخت صديق طفولتك، وقد تربيت معها كأختك؟

- ليست كذلك. أنظر كيف تلبستها أنثى الشيطان فجعلتها مغرية شهية!

- ولكنكم تقولون أن ليس للشيطان إناث؟

- من قال ذلك؟

- أنتم.

- من نحن؟

- أنت وشيخك والكثير من النقليين!

- أها.. اتقصد ما كان من حديث أن للشيطان ذكراً في فخذه الأيمن ونقيضه في فخذه الأيسر؟

- هاهاها. إي نعم. هذه القصة. ينكحُ الشيطان نفسه فتخرج من كل جماع خمس بيضات، تفقس عن عشر شياطين صغار!

بدا أوّاب غاضباً، مُحمرَّ الوجه تطاير من عينيه شررٌ بعد أن سكت قليلاً، ثم قال:

- من قال ذلك؟ هذه تخاريف ليس إلا، وليس لها من سند صحيح. إن

الشيطان يجري منك مجرى الدم من جسدك، إنه عظيم حين يكون أنت، وتكونُ أنت هو، ما الشيطان إلا أنت تتجسد فيك شرورك وذاتُ الشر التي تنمو داخلك. حتى تكتمل ذاتك تلك فتتصيَّر لك صورته، ويكون أمامك جسداً له صوتٌ و رسمٌ و فعل.

... (كنت صامتاً بعد أن تبدل الغضب في عينيه إلى ابتسامة استرقها من بين شفتيه)

غمز لي أوّاب بعينه، وابتسم ابتسامة ملؤها الفخر ومضينا نحو سنان.

بعد ثلاث ساعات كنا قد شاهدنا الفيلم وقضينا فيها أوقاتاً ممتعة، و بعد إلحاحنا الشديد، قرر أوّاب الاستجابة لنا والمبيت.

وعندما كنا نتحادث رنّ هاتفي معلناً وصولَ رسالة:

- (حامد بعد 10 دقائق انزل للاسفل. أحتاجك لأمر هام. سولاف)

فأجبتها دون أن أفكر:

- (الساعة 3:00 أوكي؟ لا أريد أن يحس أحدٌ فيُسيء الظن بنا. ولكن ماذا هناك؟)

فأجابت:

- (لا شيء. أردتُ استشارتك في أمر هام وخشيتُ أن يسمع أوّاب ما يدور بيننا من كلام).

كنت قد اقترحت على أوّاب وسنان تناول حبة (وردي) مما تعودناه جميعاً فور بداية الفيلم فوافقا على الفور، وقد بدا عليهما التعب فغط كلٌ منهما قبل انتهاء الفيلم في نوم عميق مع أروع احلامهما ونوازعهما.

نزلتُ صوب الاسفل في الساعة 3:05، كنت مرتديا بجامة تصل حتى ركبتي فيما أبقيت على قميصي مفتوح الأزرار حتى الأسفل، لم أكن أعلم ماذا تريد

بالضبط، ولكني أكاد أجزم على أن كلام أوّاب عنها صواب كُله أو جُلّهُ، فبعد تجارب كثيرة مررت بها صرت أميز من نظرة واحدة على مبعدة من أنثى رغبتها بي من عدمها، ولكن أنى له ذلك الحدس الذي أمكنه من تحديد ذلك.

طرقتُ بابَ الغرفة هامساً:

- سولاف مرحبا...

كلمتني من وراء الباب:

- كنت اود ان اتكلم معك، حسبتك لن تأتِ، ولكنك كنت عند حسن ظني بك، دقيقةٌ واحدةٌ وسأخرج.. لنتكلم في المطبخ.. انتظرني هناك.

- حسناً، سأكون في المطبخ بانتظارك يا عزيزتي.

- وأقبلت نحوي وأنا في المطبخ جالس..

- حامد.. انت سكران!

- آسف، لا تقلقي، ماذا بك؟ (دنوت منها قليلاً ثم جلست على حافة مائدة الطعام فيما هي جالسة بقربي على الكرسي وعلى أكتافي تجلس عفاريتي تهمس لي بمدى روعة شفتيها ونهديها المنتصبين).

- إنه أوّاب، لا أعلم ما حلّ به، يصيبني بالرعب.

- عم تتحدثين؟ أهناك ما لا اعرفه؟

- نعم. كنت جالسة أشاهد التلفزيون فإذا به أمامي فجأة، أفزعني كثيرا، وقال لي أشياء كثيرة عني وعنك وعن سنان أرعبتني... (سالت على خدها دموعها فسحبتُ منديلاً أعطيتها إياه.. تلامسَت يَدانا فهاجَ مني ما لا أقدر على ردعه)!

- حامد أصحيح أنك تحبني؟

ـ أحبك؟ (استغربتُ من ذلك السؤال المفاجئ دون أي مقدمات. ولكنني استعملتُ حدسي كرجل له من التجارب ما لم تكن لغيره، فقلت لها مجيباً): طبعاً أحبك.

ـ حامد.. أوّاب أخبرني أننا سنعيشُ ونموتُ سوياً، قال أنه حلم بذلك.

ـ العمر كله حبيبتي.. العمر كله..

لم أكن أتوقع أن يكون الأمر بهذه السهولة! لم أعلم أن أوّاب مجنون إلى هذه الدرجة، واااوو أشكرك يا صديقي من كل قلبي أن مهدت لي الأمر.. مسدت شعرها ووضعتُ ظاهر سبابتي على شفتيها مداعبا ثم احتويتها بقوة بين أضلُعي.

حككتُ بيدي فروة رأسي ولحيتي وفتحت عينيّ رافعا يدي التي لا أخلع ساعتي منها أبداً.. إنها السادسة صباحاً! يا ويحَ أهلكَ يا حامد، قم فانهض سريعاً وانظر ماذا فعلت!. كنت أخاطب نفسي بعد أن وجدتُني في سرير سولاف! نهضت سريعاً وارتديتُ قميصي وبيجامتي وهرعتُ مسرعاً نحو الأعلى..

فتحتُ الباب فإذا بي أجد أوّاباً جالساً مغتبطاً، وقد بدا لي أنه ينتظرني، فصدمني ذلك كما صدمني كيف أنه صحا من نوم عميق بعد سهرة الأمس لساعة متأخرة من الليل؟

مد يدهُ نحوي فتحها ليرمي حبة الوردي التي تدرجت حتى وصلت قدمي!... سألني:

ـ تونست؟

ولاء: في منزل سنان

يتماثلُ سنانُ للشفاء يوماً بعد يوم، وتكادُ الامتحاناتُ الفصلية أن تبدأ وهو لم يحضر أياً منها بسبب رقادِهِ في الفِراش، لكن الاجازة المرضية التي زودتنا بها ادارة المستشفى تفي بالغرض، ثلاثون يوما ربما تكون كافية لالتئام العظم وعودته إلى وضعه الطبيعي سالما معافى..

يسألني سنان عن رؤى صديقة حامد الحالمة الرومانسية، كيف هي علاقته بها؟ فأجيبه:

- ينوي حامد أن يُعرفها على كامل المجموعة حالما تتماثل للشفاء، هو يُعِدّ العُدّة لإقامة غداءٍ خاص يجمعُنا في أحد المطاعم الراقية.
- تقصد أنه لم يصحبها إلى بيت ياسمين؟
- كلا. هي ليست من هذا النوع.
- وما أدراك؟
- ليست كذلك. لقد أحسن أبواها تربيتها، وهي مثال الفتاة المتحررة العفيفة.
- متأكد؟
- نعم.
- الكثير من العفيفات يقعن في حباله، أنت تعرف أنه شاب لا يمكن رفضه وهو يحسن معاملة الجنس الناعم.

- وانت تعرف أنه لايخفي عنا شيئا. ارجوك ان تغلق الموضوع وكفانا نهشاً بأعراض الناس.

تطرق سولاف الباب..

- ولاء.. الغداء جاهز.

- تفضلي سولاف الوردة.

- تفتح الباب وتدخل حاملة معها صينية فيها من الطعام مرق و رز ولبن وزيتون وسلطة..

يسألها سنان عن أمهما التي لم يرها منذ ثلاثة أيام، فتجيب:

- لقد ذهبت إلى تركيا للقاء أحد الممولين لجمعيتها الانسانية، لم نرد إخبارك بالأمر لئلا تقلق عليها، أو ربما تظن أنها فضلت عملها عليك فأنت دائما تسيء الظن بها.. إنها تتصل مرتين يوميا للاطمئنان عليك.

- اوكي. قدمي لها فائق شكري، قولي لها أنني بخير. وضعي الصينية هنا. (يقول ذلك فيحرجها لتذهب بدون ان تنبس ببنت شفه).

- لاداعي لما قلت ياسنان. لقد احرجتها أمامي. هي لاتستحق منك هذا الأسلوب في الكلام.

- اتركها وشأنها. و تعال لنأكل إني أتضور جوعا، كما أتوق لسماع بعض المحاضرات، هل سجلت لي شيئا منها في هاتفك النقال؟

- سأدعك تستمع للمحاضرة الأخيرة حول السريالية في الفن، السريالية تحرر تفكيرك الواعي من العقل والمنطق مهما كانت العواقب.

يسترسل الدكتور (سيروان عصام الباجلاني) بالحديث عن تاريخ ظهور

السريالية حتى يغلبنا النعاس قليلاً بعد ان أنهينا طعام الغداء ووضعنا الصينية جانباً..

(يصور سلفادور دالي ولويس بونول صورة بالأبيض والأسود تتكرر مِراراً وتكراراً ويعاد عرضها عشرات المرات.. رجلٌ يُمسك بسبابتِه وإبهامه عين امرأة فيوسعها طولياً عبر سَحبها من الأعلى والأسفل، ويمسك بيده الثانية مشرطاً صغيراً يشقها به...).

يقاطع سنان صوت التسجيل قائلا:

ـ ما هذا؟ أوقفه أرجوك.

ـ هل أنت خائف؟

ـ كلا. ولكنه مقرف.

ـ لا عليك، ها قد أوقفته. سأسمعُك محاضرة أخرى.

رؤى.. أول الغيث

الاسم: رؤى عزيز، العمر: ثمانية عشر عاماً، محل الولادة: بغداد/ المنصور، تاريخ الولادة: -----

تعرفتُ على العديد من الشبان على الفيسبوك وكان ذلك السطر ما أنسخه دائما لكل من أتعرف عليه، لم أخف هويتي، ولم استعمل اسماً مستعاراً، جميع من تعرفت عليهم أصدقاء لا أكثر، حسناً فعلت إدارة الفيسبوك بتفعيل إمكانية الحظر و تقديم البلاغات و إخفاء الأصدقاء وغيرها من وسائل الحفاظ على الخصوصية..

أنشر صورة لشعري وقد صبغته بلون بلاتيني فتنهال علي التعليقات، كلها تثني على جماله وحسن أداء عاملة الصالون، و يسألني البعض عن العلامة التجارية للصبغة وطريقة الاستعمال ومكان الصالون.. أنشر صورة أخرى أسأل فيها أصدقائي عن آرائهم واللون الذي يمكنني استعماله لصبغ أظافري، فتبدأ الاقتراحات ولاتنتهي.

أنا لست سطحية كما من الممكن أن تُفهم تلك التصرفات حين أقوم بها.. ولكني أرى أن بعضاً من تلك المنشورات من الواجب طرحها، بل انني في حاجة ماسة لها، لا أعلم لم، ولكنها ضرورية، حسناً، ربما أكون سطحية قليلاً، ولكنني أُحسن التصرف إذا ما تعرضت لمأزق ما، واكتسب خبرات من التعامل مع الناس شيئاً فشيئاً.

يمر اليوم وأنا أحلم بما سأكون عليه في المستقبل بعد إتمام الاعدادية وبمعدل اثنين وثمانين في المائة، لكن تلك الافكار المشتتة سرعان ما تتلاشى ليستقر فكري عند كلية الفنون الجميلة التي نصحني أحد أصدقائي في الفيسبوك بها، وأقنعني بسحره أن أختار الفن طريقاً أسير فيه.

تكلمنا كثيراً عن الفن.. عن طاقاته السرية في النفوس وفي المجتمعات، عبر توحيد الإنسان مع العالم من حوله، من خلال تمثيل الطبيعة والكون والذات البشرية والرغبات الشيطانية والملائكية لبني آدم في تشكيل ببعدين أو ثلاثة أو أكثر.

حدثني ذلك الشابُ الساحر مراراً عن كون الفن مساعداً لتطور الأمم عن طريق إحداث تغييرات ثورية عبر التاريخ الإنساني، و عن تباين أوصاف تلك التغييرات، فقد تكون صادمة أو مثيرة للقلق أو جميلة أو حتى قبيحة..

كان يؤمن بأهميةِ تدريس الفن لكل المراحل العمرية، و حتى في الكليات الغير متخصصة بالفن، بل هو يذهب إلى أكثر من ذلك، فيرى أن مختلف العلوم يجب أن تدرس لمختلف الدارسين دون التقيد في الفرع ذاته الذي يتخصص فيه الدارس، كان يرى على سبيل المثال وجوب تدريس الفن للأطباء و الفلسفة والاجتماع، و وجوب تدريس الأدب والجغرافية والتاريخ للمختصين بالرياضيات، و وجوب تدريس الرياضيات والتاريخ وعلم النفس للفنانين، وهكذا بالنسبة لبقية العلوم، كتعليم الحدادة والسباكة وصيانة السيارات للبقالين والجزارين... ولما سألته عن ماهية تلك الفكرة أجاب بأننا بذلك نبني مجتمعاً حراً خالياً من الاحتكار المهني لمهنة ما، مجتمع يستطيع فيه أن يمارس أي فرد من أفراده أي مهنة بالحد الأدنى. وعلى الرغمْ من أنني كنت أجادله بأن تلك الفكرة ستخلق مجتمعاً فوضوياً بامتياز إلا أنه كان يدافع عنها بأنها ستخلق فرصاً متكافئة للجميع، إلا لمن تميز بالحصول على شهادة اكاديمية ذات اختصاص دقيق لا يمكن أن ينافسه فيها إلا القليل من الناس..

وعلى الرغم من أنني لم أتخيل أبداً أن أرى مجتمعاً كهذا وكنت غير مقتنعةٍ بإمكانية انشاء مجتمع حر كذلك الذي يدعو إليه مُحدثي إلا أنني صرت أسيرة أفكاره صباحاً ورُحت أشرحها لوالديّ لأرى مدى إمكانية تحققها بموجب ما لديهم من معرفة وخبرة تفوق تلك التي أملكها بأضعاف مضاعفة.

كان حامد وذلك اسمه، مثقفاً، ذكياً، وجذاباً بشدة، استلطفته كثيرا يوما بعد يوم، بالرغم من أنه حاول غوايتي أكثر من مرة، إلا أن ذلك لم يشكل فرقا في إنجذابي نحوه، لم تكن أساليبه رخيصة، بل كانت مبتكرة ومتفوقة على غيره، أحببتُ تميُزه، وحبه لذاته التي ربما تشابه حب الذات عندي، لكنني لم أعلم حقيقة مشاعره تجاهي..

هل يستلطفني أم يحبني أم يعتبرني مجرد دمية لا أكثر؟ هو وسيمٌ تحيط به فتيات كثيرات يتمنين صحبته...

بعد عدة محادثات في بضعة أيام، طلب مني أول أمس أن نتبادل رقمَي هاتفينا، فأجبتُه لذلك، لكنه لم يتصل حتى الآن، هل أتصل به أم أنتظر اتصاله، ما بالُ حامد ذلك لايغادر تفكيري، ويستحوذ على اهتمام خلايا عقلي هذه الفترة، فبالرغم من كوني صلبة الإرادة حسب ما تقوله لي النجوم في صفحات الجرائد والمجلات، إلا أنني أضعف تجاه طلباته، التي يخيل لي معها انها رغباتي أنا لا هو، يزرع الفكرة في دماغي عبر ايحائه لي انني انا من أريد ذلك..

- هل ترغبين بنثر شعرك البلاتيني أمام الكامرة الخاصة بك؟

- نعم ارغب.

- أمتأكدة أنك تريدين ذلك؟ فأنا أشعر بنعاس شديد، و أود الذهاب إلى السرير، ربما لن أبدل ملابسي و سأنام بربطة عنقي و ملابسي الرسمية وحتى جواربي!

- أوه.. جيد انك قد خلعت الحذاء!

- هاهاها لو لم يكن متسخاً لما خلعتُه.

- إنتظر من فضلِك. سأريك شعري... لتبق معي خمس دقائق إضافية.. يهمني سماع رأيك.

- حاضر.

فأنثر شعري لكامرتي ويستمتعُ بالمشاهدة.

وبعد أن أريته إياهُ سألته عن رأيه، ليأتي جوابه بكلمة واحدة: جميل. ثم يصمت لبرهة انتظر خلالها ما يمكن له كتابته غيرها حتى تلمع عيناه و يأتي سؤاله: ماذا تريدينَ غير ذلك؟ وهو يبرز امامي معتدلاً بجلسته مسنداً ظهره إلى الكرسي بثبات.. فأجيب: لاشيء. فيغلق كامرته معاقبا إياي.

أسرحُ في خيالاتي التي لا أسيطرُ عليها في بعض الأحيان. ما الذي دهاك يا أميرَ الوسامةِ لتفعل ذلك بي؟ أليس لديك رأفة بمن انتظرتْ طويلاً لتحظى بك خفية عن أعين جميلاتك المستيقظات الراغبات بتخيُل نوعِ عطر جسدِك عبر صور وسامتك التي تسحق الفتيات بها سحقاً؟ هل أريدك؟ نعم. أريدُك ولا أنكِر أمام ذاتي، لكن كبريائي يمنعُني من المطالبة بك. أنا أفضلُ حالاً هكذا. وكفة كبريائي تفوق كفة رغباتي العارمة للحصول عليك. لكن حتامَ سأقاوم؟

حامد: ليس حلماً ما كان!

مذ حدث ماحدث وسولاف تنظرُ إليَّ نظرةَ رغبةٍ محمومة في تذوق ما هو كامنٌ خلف أستار قلبي الذي طالما فضح أمري وكشف عن رغبتي في كل حالاتي، تتفحصني من الأعلى حتى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى، تبلعُ ريقها، تغمضُ جفنيها بتأنٍ ساحر، وما بين إغماضة جفنها وفتحها يكمن جمال كونِنا كله، حين تنطبقُ الأجفان تسري فينا رغبة التجربة، وحبُّ الاستطلاع، ويأسرنا هوسُ التعلق.

لم نُجرِ أيَّ كلام شفاهي خلال الأيام الأربعة اللاحقة لخلوتنا التي أثبتت لي نظراتُها أنها كانت حقيقية بكل محتواها، كان الكلامُ مفهوماً من حركات السنتمترات المرتعشة من الجسد حين يرى الجسد، وكذا الشفاه المرتجفة إثر رؤية الآخر.

حينما دنوت منها تلك الليلة لم أكن بكامل وعيي، ثم أنها زادتني سُكراً على سُكري، لتصبح كل حواسي أسيرة شهوتي بها.

لم أحس بطعم كل الفاكهة وشراباتها المُنعشة، وطعم كل قطع البسكويت والآيس كريم والشوكولاتة الساخنة فيها، منعتني نظراتي من كل ذلك، ولم أفكر إلا في اقتناص تلك الفريسة الهائمة التي لا صياد لها فكان لي ذلك بيسر وسهولة ودون أن اكلف نفسي أي عناء يذكر..

ذات صباح مشرق جميل، جلستُ في كافتريا الكلية متفكراً فيها، وأنا الذي لم تشغل بالي أي فتاة ولم تشكل أي أنثى لي عقبة أبداً ولم أجتز عتباتِ الممنوع

إلا معها. إذ كيف ستكونُ صورتي أمام سنان صديقي فيما لو علم أنني على علاقة بأخته وهو الذي ما انفك يدعونا بين الحين والآخر للاختلاط بأسرتهِ معتبراً إيانا إخوته وخواصه. وبينما أنا سارح الذهن، فاجأني ولاء، وقد دخل للتو قائلا:

- صباحك عسل، كيف الحال؟ ما لي أراك سارحاً شارد الذهن تفكر؟ وأنا الذي خَبِرتُ فِعلَك يَسبق فِكرك؟

- هاهاها... وكيف ذاك يا صاح؟ أوجدتني أقيم علاقة مع السعلاة العجوز أو الحوته كما يحلو لك أن تسميها؟

- أتعلم أنني كنت أفكر وأخطط قرابة ثلاثة أشهر لكل ذلك؟

- ثلاثة أشهر؟ تعالَ أعلمك.. ساعتان فقط هو كل ما تحتاجه صاحبتك.

- أرأيت؟ هذا ما أقصده.

- هي جرأة وليست رجحاناً للفعل على الفكر. فتلك من التسرع والعجالة وأنا لست ممن يمتلكون تلك الصفة. دعك من ذلك.. كيف حال والدك؟

- يسلم عليك. يقول عنك (خوش زلمه)، ويشكرك على السكائر والدشداشة التي بعثتها له.

- لا شكر على واجب يا صديقي، نحن إخوة، وسنظل كذلك.

- إن شاء اللّه. أتعلم، ليس لي مزاج لحضور المحاضرة القادمة، هلا نذهب نقضي وقتاً ممتعاً معاً؟

- موافق. أنا أيضاً كنت أنوي عدم دخولها، سواء أدخلتها أنت أم لا.

تجولنا بالسيارة في بعض شوارع بغداد، حتى انتهاء فترة الظهيرة، كنا خلال جولتنا قد شربنا فنجانين من القهوة ودخننا الأركيلة في احد المقاهي وتناولنا

بعدها طعام الغداء في أحد مطاعم الاعظمية، وأوصلت ولاء أخيراً إلى داره.

مضيتُ بعد كل ذلك إلى سولاف، أقصد إلى سنان! فكرتُ أن أتصل بها قبل وصولي.. و يبدو أنها كانت ممسكة بهاتِفها، فما إن رنَّ حتى أجابت:

- أهلا بك يا حامد، أين انت؟ (قالتها بترحابٍ بان واضحاً في نبرة صوتها)..
- مساء الخير.. أنا قريب جداً.. سأصل في غضون أربع دقائق فقط لداركم.
- ممتاز.. (قالتها بثقة فمنحتني جرأة أكثر لأفتح معها الموضوع مباشرة)
- لديَّ كلام هام معك.. لا تبلغي أحداً بحضوري.
- فكيف نتحدث إذن؟
- اخرجي إلى الباب الخارجي، وإن أردت اصطحبتك بسيارتي هُنيهة.
- ذلك ما كنت أفكر فيه، فانتظرني إذن عشر دقائق حتى أغير ملابسي وأكون عندك.

لم يبدُ في كلامها أيٌّ غضبٍ أو حنق تجاهي، بل كانت جادةً عارفة بما تقول، وقد انفرجت أساريري لذلك، و رُحت أرتب شعري ناظراً من مرآة السيارة الجانبية بعد أن ركنتها على جانب الشارع، قبالة منزلها.

رؤى وحامد/1

« الحبُ ليسَ ضعفاً يا حواء وإنما قوة..
قوةٌ للروح.. حينما تحبينَ شخصاً ما،
فأنت تحبينَ الناس جميعاً «
بُرهان شاوي- متاهة إبليس

كنت أنظر إلى باب كلية الفنون الجميلة الواقعة في الوزيرية فينشرح صدري لما أنا مقدمة عليه. سألني والدي عن حامد، الشاب الطيب المحترم الذي أخبرته عنه، فأجبته بأنه سيتصلُ بين لحظةٍ وأخرى، وأن موعدنا سيكونُ في كافتريا الكلية في تمام الساعة العاشرة صباحاً.. اختار والدي علبة من عصير البرتقال بينما طلبتُ عصير الأناناس..

كنت قد ارتديت تنورة زهرية اللون، واسعة من الاسفل، قصيرة تظهر أسفل ركبتي، شعري البلاتيني المشقر كان مميزاً لمظهري، تفوحُ مني رائحة عطر (كوكوشانيل) وكان هدية والدتي لي صباح هذا اليوم، و ارتديت حذاء أسوداً لماعاً مدبباً من الأمام من ماركة (كوتشي) بكعب رقم9، مع قميص أسود مخرم من أعلى الكتفين و حتى الكمين. فيما ارتدى والدي زياً رسمياً اسوداً و ربطة عنق زرقاء اللون و وضع بعض الزيت على شعره الأبيض ما أكسبه لوناً فضياً رائعاً.

برز حامدٌ اخيراً من باب كافتريا الفنون بلحيتهِ المدببةِ من الأسفل مرتدياً بدلةً سوداء وربطة عنق حمراء، و نظارة بعدسة ذهبية كبيرة تشبه عين بعوضة.

كان يحمل معه أربعة مفاتيح جعلها في حلقة وضعها في سبابته اليمنى يتلاعب بها وهو قادم إلينا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة رائعة. عرّفتُهما ببعض، فتصافحا بحرارة وجلس حامد إلى مائدتنا لنتبادل أطراف الحديث.

طلب حامدٌ قهوةً سوداء، شربها، ثم بدأ الكلام عن سيارته ذات الدفع الرُباعي وعن أزمات البلد السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ووَصف مجتمعنا بأنه أحد المجتمعات المأزومة بشكلٍ مُركب، فحالُنا اليوم نتاج أزمات مُركبة متداخلةٍ يصعُب مُعالجتها -على حد تعبيره- فأثار إعجاب والدي بشخصيته الرائعة، وفهمهِ الدقيق لمسارات الحياة الاجتماعية لعراق ما بعد 2003، وهو ما لم يكُن يدركه شابٌ بعُمره بكل تأكيد.

طلبَ والدي منهُ مُرافقتنا لتقديم الملفِ الخاصِ بي والمُتضمن وثيقتي المدرسية ومُستمسكاتي الثبوتية الأربَعة وكتاب الكفالة إلى شعبة التسجيل، فأجابَ حامد قائلا: (لا تهتم يا أبا رؤى، واطمئن بشأن الملف، أعطني إياه، واعتبر ابنتك قد صارت طالبة في كلية الفنون الجميلة منذ اليوم، بل منذ هذه اللحظة)، ثم أثنى على حسن أخلاقي وتربيتي وذوقي في اختيار الملابس ودعانا للخروج.

زرنا شارع المتنبي في ذلك اليوم، وتنقلنا بين مكتباته، وقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها ذلك الشارع العريق، اختار والدي بعض المصادر التي وصفها بالمهمة، وأنا راقت لي بعض مجلات الأزياء والموضة واشتريت ستة عشر عدداً من أعداد الأعوامِ الثلاثةِ الماضية من الطبعةِ العربيةِ لمجلة National Geographic)) كما أهداني حامد روايتين هما (دفتر المذكرات) و(عزيزي جون) لنيكولاس سباركس وكنت قد شاهدتُ الأولى فيلماً سينمائياً، واشترى هو لنفسه كتباً و رواياتٍ أخرى.

شعرنا بالامتنان لحامد، لايصاله لنا حتى باب المنزل، و ودعناه ممتنين بعد أن

أهدانا هديتين وضعهما في كيسين ورقيين كان قد أعدهما مسبقاً، احتوى الأول على عطر فرنسي لي، والثاني على ربطة عنق لوالدي.

بعد قليل كنت لوحدي في غرفتي أتصل به لأشكره فقلت له مازحة:

- ألم تجد غير ذلك العطر تهديه لي؟

- ولم يا عزيزتي؟ ألم يعجبك؟.. لاعليك سأهديك عطراً غيره، ما عليك سوى أن تبعثي لي باسمه فأرسله لك حتى باب المنزل خلال ساعة. تزيدُ أو تنقُصُ قليلاً.

- ما هكذا قصدت، لقد أعجبتي رائحته، ولكن..

- ولكن ماذا يا حبيبتي؟

- حبيبتك؟ (عند هذه الكلمة اضطربتِ ولم أعرف ماذا أقول)!

- نعم حبيبتي.. فأنا أحب كل الناس، ما قيمتنا في الدنيا دون أن نُحِبَّ ونُحَبْ؟ بل ما قيمة الدنيا كلها بلا حُب؟ إن الأرض تدور بالحُب، والسحب تسيرُ بالحُب، والرياحُ تحملُ لنا حباً توزعه بين أبناء الأرضِ الطيبين.

- الطيبيون فقط؟ (سألته ذلك لأداري خجلي ولأغطي على انجذابي نحوه و ربما أردت أن أطيل النقاش لأسمع صوته مدة أطول)!

- نعم ياااا ح، ب، ي، ب، ت، ي.. حبيبتي. (كان يتهجؤها حتى تكاد روحي أن تخرج مني لتعانق صوته ثم أردف): الحب للطيبين من البشر، يوزعونه لمن شاءوا، يمنحون بعضاً منه لأمثالهم، و القسم الآخر لمن اتصفوا بالشر، و بعض من هذا يعطونه إياهم شفقة وعطفاً لأنهم أشرارٌ لم يعلم الحب إلى قلوبهم طريقاً، والباقي لربما استطاعوا به إصلاحهم..

- إذن هناك شر محض؟

ـ كلا. كل الموجودات اتصفت بحب الخير والسعي نحوه، حتى خلَت قلوبها من الحب فأصبحت هكذا.

ـ حامد..

ـ عيون حامد..

ـ انا أعتزُ بك

ـ وماذا بعد؟

ـ لاشئ!

ـ هل تريدينني أن أعاقِبَك فأنهي المُكالمة؟

ـ كلا

ـ قوليها إذن!

ـ ماذا؟

ـ قولي أنكِ تحبينني..

ـ أحبك (قلتُها بصعوبة ولو كان شاهدَ خجلي لضحِك كثيراً عليَّ ولاعتبرَني ساذجة ليس إلا، وهو ما لستُ عليه ولكنهُ حامد المختلف عن كل رجل عرفته وتحدثتُ معه)!

ـ وأنا أعشقك يا روح حامد.

ـ العطر..

ـ ما به؟

ـ العطر يفرق الأحباب يا حامد.

- تلك مجرد ترهات كالقبلة ما بين العينين، فلن يفرق بين قلبين إلا ما هو أكبر من كل ذلك، أتركي أحاديث جداتك وكوني واقعية، وعيشي معي الحياة الجديدة التي اخترتها بمحض إرادتك مع حامد.
- أستأذنك.. فقد سمعت صوت أقدام على الدرج، لا بد أنها والدتي. (أغلقت بعدها الخط وأنا متيمة مذهولة لا أدري إلى أين سأسير معه).

وكان ذلك سؤال الأسئلة.

حامد: سولاف تغرق في بحاري

«تعالي نصنعُ من قُبَلاتِنا جَبَلاً عالياً كالجوديّ،
نتسلقهُ بهدوء، قُبلةً بعدَ قُبلة.
ماذا تُريدينَ أن نفعَل،
إذا كان نوحٌ لا يُريدُنا في السفينة؟»
عبد العظيم فنجان كمشة فراشات

سولاف التي لا تحب إلا نفسها والتي تكرهُ سنان وتكرهُ اجتماعاتنا تتمنى الاقتراب مني والحصول على وقت تقضيه معي بأي طريقة ممكنة، سولاف تريد أن تتذوق كل ما لدي..

سأعطيها دروسا خصوصية في الحب، وستكون ايقونتي وعملي الفني القادم، ولن أتراجع عن ذلك..

على جسر الجادرية طلبت مني ركن السيارة في جانب الطريق وابتدأت الحديث:

- حامد. أنت لستَ من النوع الذي يروقني زوجاً، لن أتوسل إليك بعد ما كان لتتزوج بي، فهذا ليس من شيمتي وقد منحتُك ما منحتك إياه بمحضِ إرادتي، كما أنني على يقين بأنك لن تفعل إن أنا طلبت ذلك منك.

- ولكنني معجبٌ بك منذ فترة!

- ثم ماذا؟ الآن تحققَ لك مرادك وحظيت بي.

- فما طلباتك؟

- أنت تروقني صديقاً مقرباً وشريكاً محققا لرغباتي، كنت انا سيمون التي أرسلت إليك تلك الصور الإباحية قبل فترة، وأنا سوزان التي أجبتك برسالة أنني طوع أمرك. حامد.. أنا آسفة إذ كذبت عليك لكنك تعني لي الكثير. كنت أحاول الوصول إليك لكن قربك من سنان يمنعني ذلك. والآن بعد الذي كان لم يعد هناك من حاجز يفصلني عنك. حامد.. أنا

هنا لم تستطع أن تكمل كلامها حيث غلبَت غريزتُها شجاعتَها وتحولت من مخاطبتي بتعالٍ وتكبُر إلى حالة تجعلها أقرب ما يمكن لأن تسكب لتراً كاملاً من الدموع.. مددتُ يدي لأمسك بيمينها وأضعها على قلبي..وشيئاً فشيئاً ابتدأتْ مسيرتي معَها، رحلتُها في جسدي يقابلُها سفراتي بين ثنايا جسدها الجميل.

وذات يوم، في حدائق شارعِ أبي نؤاس، كنا قد تجولنا كثيراً في الطريق المتعرج من تحت الاقواس المزينة بنباتاتٍ دائمة الخضرة، تحاورنا وكنا نتحينُ الفرصة لسرقة قبلة من بين شفتي بعضنا البعض أو حتى قبلة هوائية نتخيل فيها تشبُث أنفاسنا ببعضها، تحدثت مع سولاف عن كيفية قضاء أوقاتي وعن فلسفتي في الحياة، وعبثيتي، والتدخين، وحب أدوار البطولة، والشراب، وإغواء هذه وتلك.

أعطيتها ثلاثة من أقراص الوردي فأخذتهن بكل سرور.. وقلتُ محبِباً ذلك العقار بنظرِها:

ـ أتعلمين يا سولاف عدد من تناولوا أشباه هذه العقاقير؟ كم من الذكور تعرفوا على الحور العين في الحياة الدنيا؟ وكم من الإناث تراقصنَ مع شياطين الجان وتمايلت أجسادهن فوق سُحب الشهوة؟ أتعلمين لو أننا مُنِحنا حرية أكبر، وكسرنا حواجز المألوف، وتجاوزنا بعض المحظورات الأخلاقية والدينية فلا بد لعالمنا أن يكون أجمل..

أسرتني بعينيها وهي تنظر إلى شفتيّ صامتة لا تنبس بكلمة وقد بدا أن كلامي قد وافق هوى في نفسها.. جلسنا على مصطبة في الحديقة وعلى مقربة منا أحد رجال الأمن وقد أحسست أنه يراقبنا، كانت منتشية بملمس يدي التي أفرك بها يدها ثم أدخِلُ إبهامي في فجوة كونتُها من مُلاقاة سبابتها وإبهامها معاً..

ـ سولاف حبيبتي، مارأيك لو ذهبنا يوم غد إلى منزل إحدى معارفي نقضي هناك وقتاً ممتعاً؟ (لاتجيب فيما عيناها لازالتا مسمّرتين على شفتيّ).. سولاف، حبيبتي، عمري، سوسو..

ـ أجابت بكلمة واحدة: (موافقة).

كان رجل الأمن يتقدم تجاهنا بعينين تشوبُهما الريبة، فانسحبنا من الحديقة عائدين نحو سيارتي.

ياسمين: أنا و نورة والأصدقاء

«ما هو جسدُ الرجُل؟ إنهُ شِرارٌ من نار
لاقت الماءَ فانطفأت
ما هو جسدُ الرجل؟ إنهُ قبضةٌ من قش
لاقت النارَ فاحترقت
ما هو جسد الرجل؟ إنهُ فقاعةٌ من ماء
مزقتها الريح»
من أشعارِ الـ(Gond) الهندي المسمى (Dadarid)

أنا بكل بساطة ياسمين ناجي، موظفة حكومية، محجبة سمراءُ البشرة معتدلة الجسم، بحاجبين رفيعين، لم آبه إلى موضة الحواجبِ الغليظةِ ولم أغير شكل حاجبي وكذا شفتي التي لم استعمل لها أي حقن بوتوكس بالرغم من اهتمامي بتفاصيل الموضة الأخرى، أميلُ لارتداءِ تنورةٍ طويلةٍ وقميصٍ فضفاضٍ على الدوام، وهما سرُّ جاذبيتي، فالجاذبية بالنسبة لي ليست جاذبية جسدٍ ممشوق مغرٍ ودلع، بل الجاذبية مجموعٌ من قول وفعل وحركات مصطنعة وأصيلة بالإضافة إلى قوة الشخصية، وأنا أتمتع بكل ذلك..

تعرفتُ على حامدٍ وعلى الكثيرين من أمثاله عبر موقع (الخاطبة دوت كوم) ومواقع أخرى، هذه المواقع ببساطة أوكار للدعارة في الأعم الأغلب، يسجلُ العضو فيها بياناته الشخصية، وزنه وطوله ولون عينيه وشعره ومواصفاته، إضافة

إلى نبذة مختصرة عنه تكون في الغالب: (أنا عصامي ومحترم وأقدر الارتباط وأرغب بكذا وكذا).. وهي الصيغة الكلاسيكية للتعارف وقد استبدلت في وقت لاحق بالتانكو والكوكو و الويجات وبرامج اخرى..

حامد أبرز معارفي، وقد جعلت داري التي اعيش فيها مع خالتي المسنة تحت تصرفه، يصطحب إلي اصدقاءه ولاء وعلي وسنان وأوْاب، نسكر ونلهو سويا مع فتياتي حتى الصباح..

سنان.. أحد أصدقاء حامد، شابٌ فاشلٌ اجتماعياً، لا ربط بين مظهره الرجولي المفرط وأدائه خلف الأبواب، لايتحدث شيئاً ولايجامل أحداً، يبدو بعد ثلاثِ كؤوس من المشروب وربما حبة فياغرا 5. ملغرام كالثور الهائج، يدخل الغرفة مصطحباً إحداهن معه، فتارة ينجح في إذكاء نيرانه، وتارة أخرى يفشل فشلاً ذريعاً فيصفع رفيقته ويرفسها لإثبات رجولته، كما يتهمُها بالبُرود..

في ذات مساء، كانت نورة وهي فتاتي التي تتحمل كل الإهانات والضربات والكلمات القذرة- قد خرجت من الغرفة تاركة فيها سنان وهي ترتدي عباءتها، هرعتُ إليها إذ لم تكن على عادتها. سألتُها:

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

- إلى المنزل، لقد انتهت الحفلة وقبضتُ الثمن.

- وكم الثمن؟

- هذا (قالت ذلك وهي ترفع يدها التي تحمل فيها ورقتين من فئة الخمسة وعشرين ألف دينار).

- ما هذا؟ (أشرت بيدي إلى وجهها المدمى الذي تحاول تخبئته)..

- أجابت وقد رفعت الخمسين ألفاً بيمناها وأشارت بيسراها إلى خدها ورقبتها:

- هذا ثمن هذا.

كانت تنوي أن تكيل لي بعض السباب، لكنها فضلت الصمت وابتلاع ما كان في طرف لسانها من كلمات.. وكنت قد تداركتُ بُكائها فمسحتُ بعض دموعِها بمنديل حملته وأنا مذهولة صامته!

- تعالي أخبريني ما حصل.. أرجوك يا حبيبتي..

- لم أطِق النظر إلى جسده الملطخ ببقع حمراء ازدادت مع انقطاع التيار الكهربائي، ومع زيادة تعرقه نظراً لحرارة الجو، وحتى تحركت المروحة بكهرباء كهرباء المولد كان عرق جسده يسيل عليّ مروراً بتلك البقع من الشرى المقرف... دفعته عني بقوة ونهضت، فصفعني صفعتين أفقدتاني توازني وأسمعني كلاماً بذيئا..

- وماذا حصل بعدها؟

- ..... (تبكي)

- تكلمي..

- نعتتُه بالأجرب وشتمتُه

- ألا زال في الغرفة؟

- نعم. اتركيه (قالتها متوسلة وهي تمسكُ بذراعي، وكنت قد هممت بالذهاب نحو الغرفة)

- أفلتي يدي..

- أرجوك اتركيه.. إنه واقف الآن أمام المرآة، يبكي كطفل صغير، أعطاني هذه النقود وطلب مني أن أغادر!

- ..... (أجيبها بصمت وذهول)

- ياسمين.. أعيديها إليه حينما يخرج من الغرفة. أنا أشفق عليه.

- ماذا؟

- إفعلي ذلك وحسب.

- كلا. لقد أعطاك إياها عن طيب خاطر! ولن يأتي إلى هنا ثانية.

- هل ستطرديه؟

- إن له كرامة ستمنعه من المجئ ثانية، وإن هو أتى فلن يطلب منك شيئا بعد.. صدقيني.

- لا تخبري أحدا بما جرى.

- لك ذلك.. اذهبي رافقتك السلامة.

أما حامد فهو رجل متعدد العلاقات، نرجسي ومحبٌ لذاته بشدة، يعتدّ بشخصيته القوية أمام المجتمع، يسعى دوماً لإرضاء شهواته أيا كانت، بحسنها وقبحها، كان يطلب أشياء غريبة تفعلها له من هي معه ممتنة شاكرة، تتصل بي فتياته اللواتي كن يطلبن رقمي في غفلة منه كي يتابعن أخباره على الرغم من ان واحدة منهن لم تكن لتأتي إلا بموافقته ورضاه، إلا سولاف اخت سنان، التي أوقعت بحامد أو أوقع هو بها.. لا اعلم.. لكني لم أعتد رؤية مثل علاقتها في تجاربي وعلاقاتي كافة، هي مجنونة أدمنت حبوب الوردي مع حامد، كما أدمنت حامد نفسه! وهي تنفذ كل طلباته بلا تردد، وتتردد علي باستمرار -دون علم سنان طبعا- نتجول في الشوارع نرتاد المطاعم والمقاهي، نبحث عن اللاهثين خلف ما يشبع فورات ذكورتهم، كما نأخذ منهم ما نريد، في أي وقت نشاء.

ولاء رجلٌ جرئ وشهمٌ، فيه كل الخلق القويم، والرحمة والانسانية، لم أر في

حياتي ذكرا بطيبته، يحترم أنثاهُ ويراعي مشاعرها، يسمع لها وينصحها، ولايأخذ شيئا مالم تقدمه له..

في أحد الأيام كنت شاردة الذهن معه في غرفتي، تأخذني افكاري إلى حيث لا أدري.. خاطبني ولاء قائلاً:

- ياسمين ما بك؟

- لاشيء، هيا لننته مما نحنُ فيه، أرجوك..

- ياسمين، لا أستطيع!

- ماذا؟

- لست معي اليوم، فيم تفكرين؟

- لاشيء

يبتعد عني حتى طرف السرير..

- ياسمين احكِ لي..

- عم أحكي؟

- عن ما يؤذيك ويغيب تركيزك ويشتت انتباهك، أرجوك تكلمي.. لك مطلق الحرية.

- وهل لمثلي أن تشتكي لمثلك؟

- ومن أنا إلا بشر من طين كمثلك!

- هل ستفهمني؟

- من يعلم؟ ربما أكون أكثر من يفهمك.

- و ربما لا..

- إن تكلمت لن تخسري شيئا..

- آه.. الدنيا بمن فيها كلها أذى وهي مصدرٌ لآلامي..

- كل من في الدنيا؟

- ولاء.. الدنيا وسخة، وأناسها قذرون، وأنا تعبت من حياتي التي أعيشها.. تعبت من كل شيء، ربما ستضحك مني، ستقول يا لهذه العاهر التي تعتقد نفسها فيلسوفة زمانها.. والتي تعتقد نفسها أطهر الخلق وهي في الوحل تسقط، ومعه تذوب وتتلاشى لتصبح شيئاً من القذارة التي تتعفف عنها.. ولاء.. أنا.. أنا..

- لن أقول ذلك لو كلفني ذلك حياتي.

تغلبني دموعي فلا استطيع الكلام، يقترب ولاء ليحتضنني بكل ما أوتي من قوة، ولاء يقبل رأسي، ويحتضن عريي ويغطيه بجسده.

كم تمنيت وأنا أحتضن ولاء أن أحظى بحبيب مثله أو زوج مثله، أن أسلمه روحي لتهيم في حضرته وتنال رضاه وتنفذ له أوامره.

رؤى وحامد/2

«في العشق.. صلصلةٌ جرس،
واستخفافٌ بكل الحرس، وعنفوانُ الحِصانِ مع الفرَس»
يوسف زيدان فقه الحب

تم قبولي بفضل اللّه ومساعدةِ حامد وتشجيع من والدي في قسم الفنون التشكيلية/ فرع الرسم وهو ذاتُ القسم الذي يدرس فيه حامد إلا انه في المرحلة الرابعة.

يطمئن علي حامد بين الحين والآخر اثناء الدوام، يمر بي للقاعة الدراسية وهو ما يزيد من ثقتي بنفسي وعزز من إصراري على تحقيق أفضل النتائج...

لقد وجدت فيه شاباً مثالياً ملائما للزواج بي، يحيطني باهتمامه ورعايته، لم يطلب مني حتى الآن شيئاً لا أخلاقياً.. من يعلم.. لو طلب مني بعضاً من الجنون لربما ناله فأنا ميالة له بشكل كبير، بل بشكلٍ مبالغٍ فيه كما كانت والدتي تقول لي في أحد أحاديثنا النسائية الجانبية عن الرجال.. جرأتهم و تماديهم و جنونهم.. لكنه احترمني على الدوام.

كان يمتدح لوحاتي واعمالي الفنية كلما رآى بيدي عملاً أنجزه.. اخبرني بأن في داخلي ثورة فنية من الأحاسيس والمشاعر والإبداع يجب أن ترى النور، كما عرض بعضاً من لوحاتي في شارع الفنانين في منطقة الكرادة و عرفني على بعض معارفه في داخل الكلية و خارجها، فقد كنت أخرج معه لنتمشى قرب

الكلية او نتناول غداءنا في احد المطاعم القريبة، ثم تطور ذلك شيئاً فشيئاً بمرور شهر أو يزيد لينال ثقتي به فأمضي معه بسيارته إلى الكرادة أو الجادرية أو متنزه الزوراء..

أضع الهيدفون في اذني كلما سنحت لي الفرصة لأستمع لبعض الموسيقى والاغاني..

تستهويني إليسا وهي تمثل قمة الرقي والرومانسية بالنسبة لي، لا منافس لها في ذلك..

أسمع أغنيتها (أجمل إحساس) وأتخيل نفسي مع حامد زوجين سعيدين نأكل الفشار ونشاهد أفلام الكرتون، أرتدي له ماترتديه إليسا لحبيبها، وأصنع له أشهى المأكولات، وأضع ظلال الجفون الأسود أو الرمادي. أشم عطر حبيبي وأتنفس أنفاسه بكل ما أوتيت من لهفة وأروي شفتيه ووجنتيه بقبلاتي، فيبادلني القبلات والشغف ذاتهما..

أجدُني حين أكون معه من أشد الناس فرحاً، كنت أتشوق لمجيئه إلى قاعة المحاضرات باحثاً عني، ولكنه لم يكن ملتزماً بالدوام فقد كان على انشغالٍ دائم.. يأتي ليمنحني جرعة من البهجة ويذهب فأزداد له شوقاً..

لم يقل لي يوما بأنه يرغب الارتباط أو الزواج بي، أي حب هو حبه هذا؟ أيكون قد تراجع عن كلماته التي كانت كقطرات ندى بللتني حين تفتحتُ وردةً جوريةً؟ أيكون قد أغمضَ عينيه عني وأنا من أبصرتُ الدنيا بعينيه؟

حدقتُ في عينيه بشغف حينما جلسنا في الكافتريا ذات يوم، حتى أن كل من مر بنا علم من تلك النظرات أني عاشقة وأكاد أذوب كمكعب سكر صغير

في قهوة بنظرة منه أو لمسه. وضعت يديّ في متناول يديه على المنضدة، لا أعلم ما الذي ينتابني حين يداعب بسبابته أصابع يدي، لكني أحس بكل ذلك الجنون يسري في كل سنتمتر مني ويسلبني قوتي للمقاومة، و أود أن أشكره على ذلك فيمنعني كبريائي.. بل أود ان اطبع قبلة على شفتيه الرطبتين دوما أو حتى يديه الضخمتين عرفانا مني بجميله.. وإذا رأيتُ لسانه يبلل شفتيه أعض على شفتي بدوري لا شعورياً فينبهني: ماذا بك؟ ويشير إلى شفتي.. ها، لا شيء. أجيبه كغبية لا تعلم ما تقوله لحبيبٍ يتلاعبُ بها ويغويها وهو يعلم نفسه المنتصر في النهاية.

في يوم آخر، انتظرت حامداً في كافتريا ذات أجواء رومانسيّة هادئة في حي المنصور، كنت بكامل أناقتي أرتدي بنطلوناً أسوداً ضيقاً، مع قميص أبيض بلا ياقة، يبدو مفتوحا بشكل مبالغ فيه من الأعلى نحو جانبي كتفيّ، كما وضعت ماكياجاً داكناً لم يناسب شخصيتي الهادئة ولم أفعل ذلك إلا لمّا أخبرني برسالة منه أنه يتوق لرؤيتي بشكل مختلف عن كل يوم، كنت أنظر لنفسي بذلك المظهر و بما رافقني من مشاعر في ذلك اليوم كأنثى نسر جامحة تحتاج لمن يروض شغفها المجنون. بالطيرانِ في أعالي ذاتها.

كان يمشي برويّة واتزان على بعد عشرة أمتار مني وقد تخلى هو الآخر عن هيئته اليومية المعتادة وارتدى قميصاً أبيضاً ذا قماش خفيف وبنطلوناً رمادياً فاتحاً وقد تخلى عن ربطة عنقه وسترته وفتح الأزرار العلوية الثلاثة لقميصه حتى بان شعر صدره الأسمر وكان من الواضح لي أنه لم يرتد إلا هاتين القطعتين على جسده.. احسست بعض الفتيات ينظرن إليه، حيّا فتاتين لا أعرفهن جالستين مع أحد الشبان فحيّتاه بودٍ وابتسامة، وظننته قد نال اهتمام كل الجالسين، أغمضت عيني لبرهة كأني في حلم لا أريد له أن ينتهي..

مد يده نحوي فانتصبت واقفة لأمد يدي نحوها، وكان الأجدر بي أن أجلس

وأمد يدي دون الوقوف، لكنه حامد.. حامد العشق.. فتلقفها مني بحرارة مصافحاً إياي، ثم لم يفلتها حتى اقترب أكثر و وضعها على صدره سائلاً إياي: أتحسين بنبضات قلبي؟ فأخفضت رأسي بخجل. ثم جلسنا ننظر لعيني بعض.. جذب يدي ثانية و وضعها مرة أخرى على صدره ثم قال:

- أتحسين نبضاتي تتصاعد تحت يدك؟

- ماذا؟

- إنه قلبي يتلفظ باسمك رؤى رؤى رؤى...

- لا أصدق ما أراه، لا أصدق ما أسمعه، كأنما أنا في حلم جميل..

- بل صدقي يا روح حامد وكل نبضه.. صدقي يا روح الروح وعشق العمر كله.

حامد يسحب يدي ويضعها فوق شفتيه، أداعب شفتيه وشاربه الكث، ويلثم يدي بقبلات ضاع مني عددها واحد إثنان أربعة عشرة عشرون أربعة وثلاثون قبلة و ربما أكثر فتسري رعشة في كل أجزائي أفقد فيها السيطرة على حواسي كلها!

- رؤى.. أللووو.. رؤى، ماذا بك؟

- ها.. لا شيء.. أنت هنا؟

- ستجعليني أجن تماماً بتلك التصرفات! كنت قادماً نحوك، لوحت إليك بيدي من بعيد، ولكني واقف هنا أمامك منذ ثلاث دقائق وأنت سارحة مغمضة العينين!

- آسفة، كنت أفكر بأمر ما. آسفة وكفى. حامد اجلس ياعزيزي.

ـ ما هذا الحرف الذي يتدلى من السلسلة التي على رقبتك؟

ـ إنهُ حرف (S).. سميرة، اسم والدتي رحمها اللّه.. توفيت وأنا طفلٌ صغير.

ـ رحمها اللّه.

ـ تبدين فاتنة بشكل غير متوقع هذا اليوم.

ـ أراق ذلك لك؟

ـ واااووو نعم كثيراً.

ـ وانت تبدو رائعا ومثيراً.. آسفة، أقصد وسيماً.. وسيماً (كررتها لأخفي ارتباكي وتخبطي في كلماتي).

فتحتُ شفتيّ كمن تهمُ بقولِ شيء ما، ثم ضممتهما وسكتت.

ـ ماذا؟ أتريدين قول شئ؟

ـ كلا. لا شئ.

ـ بلى.

ـ كلا. (وهززتُ رأسي نافية كالغبية هاهاها)

ـ بلى يا حبيبتي.

ـ ماذا؟ (ابتسمت أنا)

ـ حبيبتي.. انت. (ابتسم هو)

ـ ماذا؟ (بانت أسناني على الأكثر بسبب ابتسامة عريضة مني)

ـ حبيبتي حبيبتي حبيبتي رؤى. (قالها بشغف و رقة).

- تريدين هذا؟ (سألني وهو يضع بيدي فوق قلبه النابض بتسارع)!

- نعم أريده (أجبت بسرعة و دون أي ارتباك)

- هو لك.

مع تلك التطورات في علاقتي بحامد، وغيرها أخرى لا مجال لحصرها.. حامد جعلني عاشقة وصار يقودني إلى ما لا أعلم!

أوّاب: ظهور سيدي سوميا

والدتي امرأةٌ وفية، صابرة، عبوس على الدوام، تصوم الدهرَ كله، لا تأكل معنا إلا نادراً، ولا تفارقُ الدموعُ عينيها فرحاً أو حزناً.

جعلت من نفسها خادمة مطيعة، لا تعترض على أي فعلٍ أو أمر أو توجيه من شيخي أبداً وليس لها أي رأي البته. أكملت دراستها المتوسطة بمشقةٍ و جُهد، هي ابنة عم شيخي، تصغره بسبع سنين، تؤمن بالقضاء والقدر، ترانا بكل بساطة مُسيرين لا مخيرين.. كلنا بنظرها نؤدي أدوارنا ونفعلُ ما يطلبه معلمونا واشياخنا وآباؤنا وترى الناس صنفين اثنين، خادمٌ ومخدوم، وآمرٌ ومأمور..

سألتني يوماً عمّا ينتابُني من نوباتِ الصُراخِ والضجيج في غرفتي وعن تعرُقي الدائم، فأجبتها أن لا شيء وطلبتُ منها أن لا تقلق، ولكني ضعفتُ أمام توسلاتها ودموعها المتساقطة جداولاً على وجهها..

- أنت فرحتي من الدنيا يا أوّاب، و أنت ابني الذي لا أعز عندي منك.. أرجوك قل لي ما الأمر؟ أتخفي عن أمك ما تخافُ عليها منه؟

- لا شيء يا أماه. لا تقلقي، فما من داعٍ لقلقك.

- إن قلبي يتقطعُ لرؤيتك تتعذبُ يا فلذة كبدي وقطعة مِني.. هل هناك ما يخيفك؟ هل فعلت فعلة أغضبت بها ربك ويُعذبُك عليها ضميرُك؟

- كلا يا أمي، كلا..

ـ هل تقرأ القرآن هذه الأيام؟ (قالتها وهي تمسح عن وجنتيها دموعها بباطنِ كفها)..

ـ نعم. أحياناً

ـ إقرأه كل يوم يا ولدي، لا تتركه أبداً، فقراءتهُ منجاة، وتركُه مَهلَكة كما تَعلم، كن مع اللّه يكن معك، وانت خيرُ من يعلمُ أنه أقربُ إليك من حبل الوريد ياعزيزي.

ـ حاضر.

كانت عيني تدمعانِ أيضاً و قد جذبتني واحتضنتني، وفجأه سمعتُ أنفاساً مُخيفة.. كأنَ في جسد والدتي يصعدُ وينزلُ نَفَسُ الشيطان و تبعَ ذلك ضحكة شيطانية مُرعبة أحسست بعدها بصدر والدتي يشتعل حرارة!

(يا بُني افعل ماتؤمر)!! تتبعها قهقهة شريرة مجلجلة.

رفعتُ رأسي لأجد وجهها أسوداً مليئاً ببثورٍ حمراء، وتملأ رائحة الدم أنفاسَها، فارتعدتُ لذلك المنظر وابتعدت إلى الوراء فاحترقت يديّ بتطاير شرر من حلقة نارٍ أحاطت بنا. لن أستطيع مطلقاً وصف ملامحي عندما رفعت وجهي و رأيتُ ما رأيتُه..

تعوذت والدتي وهي تلطم وجهها مرة واثنتين وثلاثا وتصرخ:

ولك شبيك أوّاب؟ أووا أأأوو يبوووو يبوووو..

أما أنا فهربتُ فزعاً نحو الشارع، شربتُ من براد الماء قدحين وسكبتُ قدحين آخرين باردَين على رأسي.

لم يكُن لي في تلكَ الأيام من أحدٍ يفهمني غير سنان.. هو صديق وأخٌ بكل معنى الكلمة، و هو من قررتُ أن أقصّ عليه ما يحدُثُ معي، فربما توصلنا

إلى حلٍ لإنهاء تلك الكوابيس أو الرؤى التي تقاربُ الحقائق الملموسة وليست بحقائق حتى الآن، فكلها بينَ بينَ، و لمّا تزَل تتسببُ لي بألم و معاناة تقتلني كل يوم.

سولاف: حياةٌ جديدة

ثمة أشياءٌ قد حصلت بيني وبين حامد، أشياءٌ هي أجملُ وأرقُ وأفضلُ ما حدثَ لي في حياتي كُلها، وأنا فخورةٌ بما صنعتُه معه حتى الآن، مع حامد أمتص الحب كزهرة تمتص بتلاتُها ماء الحياة المُنساب في عُروقها فتزدادُ ألقاً وجمالاً.

لا أعلمُ ما الذي يدفعُني لزيادَة ثِقتي به يوماً بعدَ يوم، وكيفُ تمكنَ مني فصارَ آمراً ناهياً لي، يُناديني فألبي نداءه، ولا أعصي لهُ شيئاً.. إن لديهِ سحراً بين شفتيه، وسحراً في نظراتِ عينيه، ورَباطة جأشٍ وقوة شكيمة، وكلُ ذلك يجعلني ضعيفة الحيلة، أسيرة لِنزَواته وَخيالاتِه وأفكاره..

يبتسِمُ.. أدخُلي بقدمِك اليُمنى.. فأدخل..

- ياهلا ياهلا.. حياك اللّه يا حامد من مسراك لملكاك.. (قالت ذلك أمرأة تتسمُ بحيويةٍ مُفرطة امتدت يدُها لتمسحَ بشعري فظهري حتى مؤخرتي، فانتابتني رعشة لِلَمسة يدها كأنما يَتخطفني رعدٌ ذو شراراتٍ كهربائيةٍ لذيذة)!

- أتركيها وشأنها ياعزيزتي..

- أوه يا حامد، وهل صنعتُ ما يضر بك وبها؟

توسَطَنا ليُعرفنا ببعض، وأشار بيدِه اليُسرى إلي معرفاً بي: سولاف، ثم أشار بيسراه إليها: ياسمين.. صديقة رائعة أعرفُها منذ خمس سنوات.

قالت ياسمين:

- تفضلي يا حبيبتي، أهلا وسهلا. (ثم نادت إمرأةً أخرى): وردة.. وردة تعالي.. حامد وصديقته الجميلة التي كلمنا عنها هنا.

دخلت امرأة عجوز بثوبٍ أسود قصير وشفاف يبرز حلمتيها الكبيرتين، وقد أتعبت الأيامُ وجهَها وملأ رأسَها الشيبُ، تقدمت مباشرة لتقبل حامد وترحبَ بنا بفرحٍ غامِر، وحين جلسنا في الصالة كانت وردة تسردُ القصص وتملأ المكانَ مرحاً بطرفاتٍ روتها لنا عن تقلبات الدنيا وسيرورة الأيام وكيف يبدو تأثير ذلك على هذا وذاك وتلك من الناس.

وبعد قليل أحضرت لنا ياسمين صينية فطور ضخمة فيها صحن كبير فيه جبن عرب، وآخر ملئ بمربى المشمش وحافظة ذات غطاء احتوت على بربين وكرفس وريحان وفجل أحمرٍ مقطعٍ إلى شرائح دائرية، مع خبز حار تفوح منه رائحة زكية، جلسنا على الأرض نأكل، وشاركتنا فطورنا مُضيفتنا، بينما استقرت العجوزُ على أريكةٍ ترفعُ يديها للسماء وأميز من صوتها الخافت أنها تقرأ سورة الفاتحة، لربما تكون قد أعدت هذه الصينية ثواباً لموتاها! وأياً ما يكُن فقد كان حامدٌ جائعاً ليأكُل كل ما احتوتهُ الصينية ولو أن عِجلاً مشوياً وضِعَ أمامه لالتهمَه..

مذ ذاك اليوم أصبحتُ صديقة لياسمين، وخالتها وردة، وظللنا أنا وحامد نترددُ كثيراً على منزلهما عطاشى يروي أحدنا الآخر.

وبعد عدة لقاءاتٍ لي مع حامد في منزلِ ياسمين، التي كنتُ أنظر لها دوماً بعينينِ ملؤهُما الإعجاب بشخصيتِها القوية، التي تُطوِعُها كيفما شاءت في أي موقفٍ كان، وكلي ثِقة أنها كانت تَستلطفني وقد استشعَرَ حامد ذلك، وهو ما شجعه أن يطلب مني الجلوسَ معها والإفادة من تجاربها على حد تعبيره.

قال لي ذات مرة:

- عزيزتي، أريدكِ أن تُطوري شخصيتكِ بالاستفادةِ من ياسمين، فهي امرأة جريئة، قوية الشخصية، قوية الارادة.

ـ أتقصدُ القول بأن شخصيتي مهزوزة؟

ـ كلا، على العكس من ذلك، فأنا أذكر جيداً مُغامرتك معي في لقائنا الأول وهي تنمُّ عن جرأة وحبٍ للمُغامرة، وهُما ما أحببت أن أنمّيهِما فيك.

أجبتُه بنبرة ربما بدا منها علي الضجر:

ـ ما هو المطلوب؟

ـ لاشيء سوى الجلوس معَها وتعزيز علاقتِك بها، أنتِ بحاجةٍ لذلك، لأنكِ في داخلكِ تريدينه، وأنا أيضاً أرغبُ بذلك.

وهكذا امتثلتُ لما أراد، وتحادثتُ معها كثيرا وبدت لي مستعدة للقيام بتأهيلي وتطويري لأستحق حامد زيرَ النساء الذي أحببت، والذي أنا على يقينٍ بأني يجبُ أن أظهَر له كل يوم بشخصية جديدة لئلا يُصاب بالمَلل والضجر وهو الذي يستطيع اصطحاب المزيد من الإناث لمنزل ياسمين ولأماكن أخرى ليختلي بهن ويمارس معهن كل ما يريده.

لقد قررتُ أن أفعلَ كل ما يُمليه عليّ قلبي لأحافظ على علاقتي بحامد الذي ارتضيتُهُ لنفسي من بينِ كل الرجال، وأصبحتُ معه أنثى بكل معنى الكلمة.

بعد مضي أربعة أشهر بالتمام والكمال على علاقتي بحامد أصبحت ياسمينُ فيها صديقتي المُقربة ومستشارتي في أدق تفاصيل حياتي، أرى في نفسي اليوم أنثى عبثية نذرت قلبها وكلّ جوارحِها لحبيبٍ لن تستطيع أن تفك نفسها من حباله. وأحاول بكل ما أمتلك من قدرة الحفاظ عليه، فهو كل مُكتسباتي من هذه الدنيا.

سولاف: عن عبثية حامد

أخذ كلامُ كلٍ من حامدٍ وياسمين عن العلاقات المتعددة وحرية الشريك حيزاً كبيرا من تفكيري، وجعلني أسهر ليلتي غارقة في خيالاتي وشهواتي التي أضرم نيرانها حامد مذ كانت لمسته الاولى لجسدي الذي لم يمسسه أحدٌ سواه.

وحتى الأمس كنت كمن أدمنت عقاراً لا تستطيع تركه، حتى حصل معي ما هو ضربُ جنونٍ بالنسبةِ لي بكل معنى الكلمة، إذ لامس عمودي الفقري أرضية الغرفة ببلاطها القديم المنقط بالاسود والابيض حيث التحفتُ جسدَ حامد، وقطرات عرقه كانت تتساقط من مساماته المُشعرة فتسقي خلاياي.. فتحَ حامدٌ فمي بيده ونفض عن لحيته قطراتٍ عرقه المالحة فيه، كما كان يمتص شفتي بين الحين والآخر، كان يضغط بكل قوته فيسحقني سحقا بين كسراتِ حصى بلاط الارضية التي لابد وان تركت فيما بعد آثارها على كتفي وأسفل ظهري، أصرخ بأعلى صوتي وأطلق آهات الألم اللذيذ..

- أريدكَ لي وحدي، لن أرضى بشريكة لي فيك!

- كلا ياحبيبتي، ليس هذا ما اخترتك لأجله. هل سمعت يوما بالعلاقة المفتوحة؟ الارتباط في فلسفتي يقتلُ الحب، ويعذبُ العشاق والمحبين. الارتباط يخلقُ التعود، والتعود يفضي إلى الملل وهو بدوره يقلل اللّه فة إلى أدنى مستوياتها ويقود للفشل!

- وكيف ذلك؟ سأقتل كل من تسول لها نفسها لمسك!

- أقتلي من شئت، لكنك ستفقدين اعتزازي بك، وحبي اللامحدود لكل ما فيك، وستكونين قد خالفت رغبتي وفلسفتي في الحب والحياة.

- كيف سيلتقي جسدانا وأنا ارى إحداهن معك خيالا أو حقيقة؟

- وكيف لي أن لا امنحَ ما منحتُه لك لكل النساء، لكل الباحثات عن الحرية، لكل من أرادت شريكاً يسترها دون فضيحة ويُسعدها في جنح الظلام ويمطرها بوابل من القبلات يسقي اراضيها ويمنح أزهارها المتفتحة عطراً ورونقاً؟

- وأنا؟

- انت حرة، وانت حبيبتي في الوقت عينه!

- حامد.. (تدمعُ عينايَ فجأة)

- عيون حامد.

- لا أستطيع.

- فكري بكل كلماتي جيدا واتركي الحديث الآن، فلدينا عمل أهم نفعله.

بعدَ أسبوعٍ من النقاش في نظرية حامدٍ تلك، كنت أتخيل أشخاصاً آخرين في ذات الساعات التي جمعتني بحامد بدلاً عنه.. وواااووو أيُعقلُ أنني وصلتُ لهذه الدرجة من الجنون بهذا الرجل لأصبحَ أسيرته فأفعل كل ما يمليه على حتى وإن حولتني نزواته إلى بغي فاسقة؟

حينَ وجهتُ له ذلك السؤال قالَ أنني حُرة، هكذا بكُل بساطة، أيقولُ ذلك لأنه يعلم أنِ لا قدرة لي على فعل ما منحني حريةِ فعلهِ فيكون هو بالمقابل

قد حصل على حريته ضمن علاقتنا بمنحي حرية ستكونُ حبراً على ورق؟... أنا لا اعلم.. وأنا في حيرةٍ من أمري، لا أريد أن أضغط عليه أكثر وأن أجادله، فهناك ألف من النساء تتمناه، إن لم يتمنينه لرومانسيته وصلابة عصوده ورجولته وشبابه فلِأمواله وهو مستعدٌ لإنفاق الملايين في سبيل لذة عابرة إن هو اشتهى ذلك.

رؤى.. في حمام تركي

«في العشق، كل الأحوالِ أهوال»

يوسف زيدان فقه الحب

في حمامٍ تركي ذي سقف عال، وإضاءةٍ ليزريةٍ خافتة، ورسوماتٌ لأجسادٍ ملائكيةٍ تزين قبة سطحه وشبابيكهِ الكثيرة، وقد عملت تلك اللوحات على حجب أشعة الشمس عنه، ويتصاعد من أرضيته بخار ساخن. كنتُ قد لففتُ جسدي بقطعة قماش رقيقة، بين مجموعة نسوة شبه عاريات، مختلفات الأعراق والأصول، هذه فتاةٌ سمراءٌ عشرينيةٌ ناعمة، بعينين كبيرتين سوداوين، تستعمل مبرداً لتعديلِ أظافرِ قدميّ، وأخرى تمشط شعري بمشطٍ خشبي صغير، وأربع نساء يستلقين في أحواض جاكوزي ساخن احتوى على فقاقيع كثيرة إحداهن تقرأ مجلة ما والثانية تدندن أغنية غريبة لم أفهم كلماتها..

أغنية (سيرين عبد النور) في أذني:

(عليك عيوني روحي فيك

ودنيا حلوة بين ايديك

أول مرة شفتك رحت ليك

وقلبي ليك سلمتو أوام)

حامد يركبُ حصاناً أبيضاً ويحوم حول نوافذ للحمام.. يلوح لي بيده ويطرق الزجاج ويصيح باسمي.. رؤى.. رؤى حبيبتي.. تعالي معي إلى حياة جديدة.. تعالي يا حبيبة القلب، و روح الروح، وهوى السنين..

ركضتُ نحوَ البابِ الأمامي بسرعة، سقطت قطعة القماش مني، فلم ألق لعُريي بالاً، بل أسرعتُ بكل ما لدي من طاقة أركض نحوه لألقي كل كلي بين يديه، فأكون له لا لأحد سواه، نذهب إلى أراض جميلة بعيداً عن عيون الناس، يحملنا شوقنا في أبحر من العشق والهيام اللامتناهي.. لحِقت بي إحداهن، واستوقفتني لتلبسني ثوباً أحمر فضفاضا من قماش الساتان، أخبرتني بأنني يجب أن أتزينَ وأضعَ بعض مساحيق التجميل على وجهي لملاقاةِ حبيبي، فأجبتها أن حامد لن ينتظرني طويلا و لابد لي أن أمضي على عجل.. هو ينتظرُني في الخارج، حامد حبيبي و يريدني.. كنت أرجوها لتتركني كي لا أتأخر عليه، فطبعتْ قبلةً حانيةً على خدي ودعتني بها.

فتحت باب الحمام، فهبت نسمات باردة، أخذ طرف ثوبي بعيداً عني، وتجعل مقدمته ملتصقة بانحناءات جسدي.. صحت منادية حبيبي: حاااامد حاااااامد.. حبيبي.. أنا قادمة..

تعثرت بحجارة قاسية وسقطت أرضاً فأدميتُ كاحلي..

تالمتُ لكني نهضت مستجمعة قواي واضعة ثقل جسدي على قدمي الغير مصابة. تنادى إلى سمعي صوت صهيلِ حصانهِ مبتعداً شيئاً فشيئاً، أشواك مؤلمة غرزت رؤوسها المدببة في باطن قدمي.. حامد أين انت.. لا تتركني أرجوك.. حاااامد..

صدى صوتي يعود لي خائباً محملاً بهواء باردٍ جمدَ عُروقي في جسدي.. يا لي من أنثى محطمة بلا حبيب! من لي بحامد؟! هل يكفي أن أحتضن رمالاً داستها

قدماه؟ أم أقبل شبابيكاً طرقها بيديه؟ لعلي أجد فيها شيئا من رائحته فترد لي روحي وتمنحني صبراً جميلاً أستعينُ به على طول البُعد والبُعاد.

ياسمين: مع إبن الحفافة.. وغيره

«البغاءُ اتصالٌ جنسي، يتمُ على أساس مقابلٍ يؤديه العميل، وهو عملية يُصاحبُها عدمُ الاكتراث العاطفي، إذ أن المرأة البغي تُقدمُ جسدها دون تمييز بين الرجال»
أحمد زكي بدوي معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية

على سريري يتساقط كل الرجال ويخلعون أقنعتهم التي ارتدوها في مسارح الارض الرحبة، فمعي يكونون على سجيتهم بدون اقنعة، وبدون ماكياج، يسكرون ويدخنون ويتكلمون بكل حرية عن حياتهم وأعمالهم، عن زوجاتهم وأطفالهم وعلاقاتهم العابرة.. وأنا كلي آذان صاغية، أنا من لا انزعج من احد وأسمع للجميع دونما مقاطعة مني لأحد.. لطالما علمت ان الصمت أفصح من الكلام، وأن الاستماع خير من لغو الحديث، كنت استمتع وأنا أرى زبائني يخلعون عنهم اقنعتهم فيسلموني إياها، احفظها لهم حتى تنتهي الليلة ثم أعيدها لهم في الصباح الباكر بعد أن يخبرونني بما لا يعرفه عنهم احد، بعضهم يبكي في حجري، وآخرون يقبلون نحري، أو حتى قدمي.

في أحد الليالي كان عباس ابن خالدة الحفافة يطرق بابي بقوة سكرانا لايقوى على السير، هددني إن انا لم افتح له الباب فضح أمري وعلاقتي به. أجبرني بصوته المتصاعد على اقتياده إلى السرداب الملئ بالأتربة والأخشاب والحصران والأثاث القديم، لأخبره انه في غرفتي الخاصة، ولما اطمان لكونه قد حظي بي،

خلع عنه ملابسه، ظل يزمجر ويصرخ ويهدد في الأسفل، وأنا اتوسله أن يصمت وان يقيني الفضيحة لكنه استمر بما كان منه حتى غلبه القيء فما استطاع رده إلى جوفه فتقيأ على قدمي.. ضربته على وجهه، سقط أرضا، فما كان مني إلا أن سحبت خشبة كانت بقربي فضربته بها على وجهه وظهره وفي كل مكان، حتى غدا أمامي غارقا في قيئه والاتربة التي استحالت طينا غطاه، لأطرده شر طرده ماعاد بعدها إلى داري، وما رأيته إلا وهو هارب بعينيه مني..

في حبالي يعلق كثير من الفتيان، ليكبروا على يدي ويتعلموا كل الفنون، أراقصهم وأغني لهم وأمنحهم ما لا تتخيله لهم مخيلاتهم وما لا تمنحه ربيبات العفة والطهارة، يبتعدون عني حالما يتزوجون، ثم لا يلبثون فترة داخل سجون الزواج وأزقة الارتباط الضيقة، حتى يعودوا إلي نادمين على كل الفترة التي تركوني فيها.. هاهاها.. أخرج إلى السوق فيستقبلني أبطال مغامراتي بالترحيب والابتسامة ونظرات خاصة، فيما يلحق بي من يلحق تلاحق حواسه جسدي، ويأتي نحوي من يريد أن يصارحني باعجابه ورغبته بي بكل وضوح..

لست على قدر كبير من الجمال، كما انني محجبة وارتدي في منطقة سكني ملابس محتشمة على الدوام..

أصعد سلم دربونة أم عباس الحفافة فأمر بدكان عبد الملك الابن الأوسط لأم جابر أخت الحفافة، امضغ ثلاث قطع من علكة باطوق بطعم النعناع سوياً، وأنفخ بفمي لأصنع منها بالونات صغيرة تنفجر كلما امتلأت بالمزيد من ثاني اوكسيد الكربون.

- صباح الخير، كيف الحال؟

- صباح الخير، صباح الرقة، والجمال، والعذوبة.. (قالها عبد الملك مرحبا بي)

- أموجودة خالتك في المنزل؟

- نعم. (أجاب بذلك.. ثم أردف): متى أراك؟
- تعال هذه الليلة في ذات الموعد، ستكون نورة في المنزل.
- ولكنني أريدك أنت! (قالها مستعطفا إياي)
- نورة ستفي بالغرض، لا تبخل عليها، أحضر لها هدية جميلة، خاتما بسيطا من الذهب على سبيل المثال، وهو شيء بسيط بالنسبة إليك.
- ولكنني أريدك أنت! (أعاد جملته كأنه لم يسمع ما قلته بشأن نورة)!
- حبيبي.. نورة ستفي بالغرض، أنا محجوزة!
- اليوم؟
- هاهاها وكل يوم..من الآن وصاعدا!
- أوكي كما تريدين وأما نورة فأنت: (تأمريني أمر).. (قالها بلكنته التي يضخم فيها الهمزة التي تعلق قليلا في مؤخرة فمه قبل أن ينطقها.

يتنحى عني لأدخل إلى دارهم من باب الدكان، فقد كانت خالته تستقبل النساء في منزل اختها أم جابر لتقوم بحف شعر أوجههن، وأجسامهن في بعض الحالات، بينما تعرض ام جابر مصوغات ذهبية بسيطة وفرش وبطانيات تبيعها بالتقسيط، فكان الدار محلاً للربح لكلتيهما، وقد كانتا تجمعان الأموال في سبيل تهديم منزليهما وإعادة بنائهما من جديد، إذ كانا يغرقان بمياه أمطار الشتاء، وبمياه المجاري صيفاً، كلما أهملت أمانة بغداد إجراء عملياتِ الصيانةِ لشبكاتِ تصريفِ المياه وشبكات الصرف الصحي لتلك المناطق الموغلة في القدم في مركز مدينة بغداد.

رؤى: أحبك يا حامد

كل لقاء لي مع حامد في كافتريا الكلية أو في خارجها يجعلني محبة للحياة أكثر فأكثر، كل تلك الرومانسية وكل ذلك الحب يغمراني فأحب كل الناس والمخلوقاتِ والموجودات، كانت بداية تجربتي معه كتجربة احدِ القرّاء مع رواية (قواعد العشق الأربعون) للروائية التركية (إليف شافاق)، في كل سطر من أسطرها تحبب قارئها بكل البشر، بل كل المخلوقات التي أوجدها اللّه تعالى..

حب حامد غيرني ومنحني الثقة في نفسي، ليتني أكتب كل تفاصيل ذلك الحب الآسر الخلاق لكل ما هو جميل.. ليتني أستطيع أن أجعل من حبي قصة تقرؤها كل الفتيات، و من حبيبي بطلاً لرواية. لأجمل رواية عرفتها العصور.

لقد تغيرت جملة وتفصيلاً وقد لاحظ والداي ذلك التغيير، فما عدت تلك الفتاة الساذجة التي لم تدخل أي تجربة في الواقع المعاش، و جلُّ تجاربها في محيط افتراضي غير محسوس أو ملموس.

استأذنت حبيبي في الذهاب إلى شارع المتنبي لشراء بعض المراجع في فلسفة الفن، وبعض الفريمات والأصباغ من سوق السراي، فعرض علي مرافقتي وقد سرني ذلك أيما سرور، بل بعثَ فيّ رغبة في تحديدِ موعدٍ أسبوعي لنا للذهاب إلى ذلك الشارع العريق، نصطحب والدي مرة ونكونُ وحدنا مرةً أخرى.

كنا نتمشى سوياً، يمسكُ بيده الضخمةِ المشعرة كفي فيجعلها بباطنِ كفه ويقبضُ عليها، ثم يُرخيها، فتجتاحني نشوة الحب، تسري في شراييني، وتمنحني

حافزاً لمحاولة تقبيل يدهِ أمام كل الناس، فهو حبيبي الذي ليس لي غيره من حبيب، وهو من اخترته من بين كل رجال الدنيا، هو الشهم المغوار الآسر بكلماته المعسولة وابتسامته الساحرة ولمسته التي تجعل كل حواسي متعلقة به وتابعة له.

أوه ما دمنا بمناسبة الحديث عن يده سأكتب أمنياتي ها هنا و ربما سأحذفها بعد حين.. كنت ألف مرة و مرة أتخيل نفسي عارية أمامه لا أفعل شيئاً سوى الاستسلام ليديه، ومنحهما الإذن لتداعبانني وتفعلان بي أي شيء!

لفتت انتباهي شابة بلا حِجابٍ مع زميلٍ لها يسيران معاً ويوزعان صُحُفاً مجانيةً على المارة و زبائن المكتبات و كل من يطلب منهما صحيفة..

جلسنا قرب تمثال أبي الطيب المتنبي نتناول (السميط)، ثلاث قطع بخمسمائة دينار، يا بلاش.. ما ألذ طعمه، ثم أجرنا العبارة للذهاب نحو الضفة الأخرى والعودة منها..

- حامد.. أريد أن أقول شيئاً بصوت عالٍ وعلى مرآى من الناس و مَسمَع..
- قولي ما بدا لك ولا تخافي.. فلا أحد سيمنعك. تكلمي و لا تخافي.
- أحبك (بصوت خفيض- فيبتسم)، أحبك (بصوت أعلى- فتبرز عن ابتسامة أكبر أسنانه البيضاء الجميلة)، أحبك (بأعلى صوت امتلكه- فيضحك بقوة فاتحاً فاه ومقهقهاً بصوت عالٍ)..
- أحبك يا رؤى أحبك فليسمعني نهر دجلة الخالد و بغداده و كل أهلها (هو أيضاً يصيح فينتبه الناس على الضفتين لنا، فيصفق بعضهم ويحيينا البعض الآخر ويتجمهر جمع كثير).

لا أعلم ما اعتراني من غبطة حينها جعلتني أخلعُ فردتَي حِذائي وأرميهما

في نهر دجلة وأخلع عني مشبك شعري وقلادتي المكونة من خرز صغيرة ملونة مختلفة الأشكال ليس لها نسق محدد وسواري الذي يشبهها وأرميها كلها في النهر..

كنت أضحك بكل براءة وبكل فخر بذلك الحب المجنون الذي غير لي حياتي ونقلني من حال إلى حال..

- انت مجنونة! (يصيح بي ضاحكاً من جنوني)!

- إي نعم.. مخبلة و خبلة و رعنة و زعطوطة هاهاها قل ما تشاء فإنا أحبك، و ما الحب عند الأنثى إلا إحساس بالسعادة و نشوة من الانتصار و تحقيق للذات وجنون يعتريها ويخرج الطفلة المدللة التي تعيش داخلها.

- كيف ستعودين إلى منزلك؟

- ستحملني بين ذراعيك و تضمني إلى صدرك و تسير بي نحو مرآب السيارات!

طلب حامد من صاحب العبارة ايصالنا إلى الجهة الاخرى لنستأجر سيارة تاكسي حيث يوصلني حامد إلى المنزل ثم يعود مع ذات التاكسي إلى شارع المتنبي ليحضر ما اشتريناه بسيارته التي ركنها في مرآب قريب على ساحة الميدان.

في التاكسي كنا نجلس، و يمد يده اليمنى نحو الخلف فيمسك بيدي دون ان يلحظ السائق ذلك، أخرجت هاتفي النقال وكتبت رسالة أرسلتها له: (إلى الأبد يا حبيبي؟). ثم حولت الهاتف إلى الوضع الصامت كي لا ينتبه السائق.. فيجيب: (إلى الأبد يا حبيبتي).

ياسمين: لقاءٌ صاخبٌ في منزلي

سألني ولاء عن علاقتي بحامد، هل هي علاقة جسدية أم أنها لم تبرح كونها صداقة ومصالح لاغير، وقد أثار ذلك السؤال تساؤلات عديدة في داخلي بالمقابل، لم أواجهه بها ولم أستطع حتى أن أهاجمه بتلك الجرأة التي عودت نفسي عليها حين يتدخل أحد ما في شؤوني الشخصية، بل وجدتني ناعمة وهادئة في إجابته:

- وهل يهمك ذلك؟

- كلا، ولكن..

- اطمئن، لم يلمسهما حامد حتى الآن. هل تهتم للأمر؟ أقصد إن كان قد لمسهما أم لا؟

- كلا.

- ولم السؤال إذن؟

- مجرد سؤال خطر ببالي. (قال ذلك وعيناه تكادان تفلتان من تجويفيهما في وجهه).

- ولاء.. ألا تعرف مقدار معزتك عندي؟

- امسكت يديه برفق وجعلتهما تلمسان ما اشتهته نظراته

- بالطبع أعلم.

- ألا يعني لك شيئا إن قلت لك أنني سأكون لك وحدك دون غيرك؟

- ولكني لا أبحث عن ارتباط في الوقت الحالي، المهم عندي هو وقت جميل نمضيه معاً، جسدك مُلكك امنحيه من شئت بمقابل أو بدونه!

بذلك أهانني وأحسست بكلماته خرجت من فيه كطلقات حارقة أصابتني في مقتل، أبعدت يديه عني بقوة وشددت أزرار ثوبي العليا حتى آخرها عند أعلى رقبتي بيدين لا أعلم لم ارتجفتا وأجبته:

- لست بعاهرة، أنا امرأة حرة، وجدت نفسي هكذا، حاولت قدر الممكن إبعاد نفسي عن هذا الطريق، لكنك وأمثالك لم تتركوني وشأني، فبينما أقدم لكم ألذ وأشهى وأجمل ما أملك أجد الكثيرين لايقدمون لي سوى كلامهم النتن ويقابلونني بتصرفاتهم الرعناء البليدة.

لم أمنح أحدا شيئا لأجل مال أو جاه أو ترف، فعندي من المال ما يكفي عشيرة منكم، وأنا عند أهل منطقتي شريفة عفيفة يحلف على طُهري رجالٌ ونساءٌ كثُر.

- لم أقصد أن...

لم اسمح له بإكمال كلامه، أكملت كلامي بعصبية وصوت عالٍ قائلة:

- أنا أمنح الفرحة والسعادة لمن لايملكهما، أمنح الفرحة لمن لم يحصل على ابتسامة وتقدير من زوجته أو من أبيه، من أمه أو اخته وأخيه وأي من المقربين منه، فأنا الأخت في بعض الأحيان وأنا أم حنون عطوفة وأنا زوجة معطاء وحبيبة طرية شهية..

- أجننت كي تخاطبينني بهذه الطريقة؟

اندفع نحوي فأسقطني على السرير، وسقط فوقي و وضع يده اليمنى على

فمي طالباً مني الصمت فدفعته جانباً إذ انه لم يتخذ هذا الوضع إلا لإحساسه بالخسارة والخذلان وتأنيب الضمير ثم أكملت:

- انت لاتعلم مايجري في هذه الغرفة، على هذا السرير. ليست الحياة كلها ملذات وشبق وممارسات لذيذة، أنا من تشارك الرجال أفراحهم وأحزانهم وتمحو عن قلوبهم آلامها وتزرع بسمة على شفاههم.. أعرفت الآن من هي ياسمينَ ناجي أم أخبرك المزيد؟

- آسف، قلت لك آسف. ليس هذا ماقصدت، لكن تعابيري خانتني

- كلكم سفلة تخونكم التعابير.

صفعني بيده صفعة لم ولن أنساها ما حييت، فرفعت يدي بوجهه محاولة ردها له.

- إن مددتِ يدكِ كسرتُها لك. أفهمت؟

أشرتُ إليه بيدي صوبَ الباب مع نظرات حازمة جادة لو ظل معها واقفاً مكانه لانطلقت من عيني طلقة استقرت وسط قلبه.

تسمرت عيناه أرضا وخرج من الغرفة، فتبعته نحو الباب التي أغلقها وراءه حتى سمعته قد غادر المنزل فانفجرتُ بالبكاء.

كان حامد حينها لم يزل هو وأوّاب مع نورة وديمه كل على حدة.أسرعتُ لتدخين سيكارة ملأت بدخانها جوفي، وأحرقتُ بنيكوتينها المحترق فؤادي المعذب، ثم أتبعتُها بأخرى. لم أكد أنهيها حتى خرجتُ من غرفتي فرأيت ولاء أمامي يبتسم لي ويمد نحوي ذراعيه، تسمرت قدماي أرضا! ولاء بشحمه ولحمه قد أتى طالباً مني الصفح!

- ياسمين..

- نعم.

- سأعطيك عقاراً يهدئ لك أعصابك، فأنتِ متوترة.

- .....

- هاك خذيهِ من يدي.

- ولاء..

- خذيه ولا تخافي، ما كنت لأؤذيك فأنا أكن لك عاطفة كبيرة وحباً جماً!

أغمضت عيني لأتأكد أنني لست في حلم، فتحتهما ففوجئت وانتابني إحساس هو مزيج من الرعب والذهول!

- أوّاب!!

- ما بكِ يا حلوة؟

- ابتعد عني.

- لماذا؟

- لا أعلم. آسفة حسبتك ولاء.

- تعالي. سأكون لك ولاء، أو حامد، أو أياً من أردت! (كان وجهه قد خلا من الوَداعة وغلبت عليه مسحة شر ما رأيتها قبلا فيه!

- ابتعد عني.

- لكِ ذلك.

ابتسم تاركاً لي قرص عقار وردي اللون على المنضدة المجاورة، ثم ذهب ليطرق باب الغرفة التي جمعت حامد وديمه، وما إن رفع يده ليطرق الباب حتى فتحها حامد إذ كان جاهزاً للمغادرة قد أنهى لقاءه مع ديمة وغادر الأربعة.

مرت ثلاثة أيام على تلك الحادثة ليرسل لي ولاء خمس رسائل طويلة على

هاتفي النقال معتذراً مني، وقد أحسست في كلامه الندم لما كان منه فبادلته بعد قراءة رسائله بعض الرسائل. كانت أولها (ولاء.. الجرح عند ياسمين مثل الطفل يبرء بكلمتين جميلتين)!

وكانت محادثتنا عبر رسائل الموبايل تلك أبواباً لتحليل شخصيته إذ اكتشفت منها أنه شهم غيور لطيف، تخونه تعابيره في كثير من الأحيان لينطق بما هو مختلف عما يجول في خاطره وما يضمره قلبه.

ولاء: حامد يظلم رؤى

حامد يظلم رؤى التي أحبته بكل ما استطاعت، وها هو كعادته لايلقي لرسائلها بالا، يجيبها أجوبة باردة لا روح فيها كما لو أنه يتصدق بعطفه وكرمه وبضع كلمات لا روح فيها.

كنا نجلس سويا في مقهى رضا علوان في الكرادة ندخن ونحتسي القهوة، رن أحد هاتفيه معلنا عن رسالة طلب مني قراءتها له كعادته قائلا:

- ألا ترى أن هنالك رسالة قد وصلتني؟ إقرأها لي.

يبدو أنهُ غيرَ الباسوورد إذ لايفتح قفل نقاله.

- هل غيرت كلمة السر الخاصة بك مؤخراً؟

- سبع مرات حرف H

- إنها رسالة من رؤى، مسكينة هذه الفتاة، هل عبثت معها؟

- ما بالكَ يا ولاء.. أهكذا تظن؟ ما الذي كتبته؟

- (ضجر الصبرُ مني في انتظارك. وهزئت بصبري عقارب الساعة التي نظرت إليها عند كل دقيقة مرت خلالَ توقعي لرسالةٍ صغيرةٍ منك. أو حتى رنةٍ أعلمُ منها أنك قد خصصتَ لي بضع دقائق من وقتكَ الثمين).

- ما هذه الرومانسية المفرطة؟ هاهاها (يضحك مستهزئا)

- أتنوي الزواج منها؟

- كلا بالتأكيد.

- إذن صارحها بالحقيقة؟

- اخبرتها الف مرة. (آني مو مال زواج). هذا ما كان فقط. لنذهب إلى منزل أوّاب، نأخذه ونعرج على سنان لنصحبه هو الآخر معنا.

- سأسألك مرة اخرى وأعلم جيداً أنك لن تخفي عني شيئا.. هل ذهبت مع رؤى إلى بيت ياسمين؟

- كلا. واسأل ياسمين عن ذلك.

- بم اجيبها على رسالتها تلك؟

- أي شيء

- .....

- قل لها سلامي وتحياتي للسيدِ الوالد وأنا مشغولٌ في الوقت الحالي.

دفعَ حامد الحساب ثم غادرنا إلى منزل أوّاب الذي كان بانتظارنا، خرجنا سوياً، وابتاع لنا حامد شراباً بطعم الليمون...

كنا نشرب على جسر الجادرية أربعتنا ونرمي القناني الفارغة في نهر دجلة.

كان كل منا قد ابتلع القرص الوردي الخاص به قبل البدء بالشراب. وفيما كان الثلاثة مستمتعين، لم تفارقني رؤى بابتسامتها البريئة و رقبتها التي قد زينتها بشريط أسود من الدانتيل جعلت عقدته على شكل وردة في جانب رقبتها الأيسر.. (أحبك يا ولاء.. أحبك يا ولاء) كررتها مرة واثنين وثلاثاً.. كانت شفتانا تقترب شيئا فشيئا وقد لاحت رائحة أنفاسها العطرة قريبة مني فصرت أسيراً لها (انت حبيبي.. ولاء)، اختلطت أنفاسنا الحارة ببعضها و....

ظلام أسود.. أسود.. لا أرى شيئا! أفتح عيني فلا أرى غير السواد ولا أميز سوى رائحة ماء آسن ملئ بالطحالب وربما جثث ودم و قيء ونفايات!

- ولاء.. ولاء (ينادي أوّاب)

- هاااااااا

تسقط زجاجة الشراب فتتهشم واسمع صوت الزجاج المتناثر على الأرض

- لقد كان الذكي يقرأ ليلة الأمس (يقول سنان)

يجيبه حامد:

- كلا فذلك من تأثير السهر مع الحوته أم سلمان.

وفيما لا زال أوّاب يبتسم ابتسامة صفراء غريبة لا أعلم سبباً لها رددت عليهما قائلا:

- لا هذا ولا ذاك. ثم انني قد قطعت علاقتي مع أم سلمان.

بعد مضي ساعتين أو تزيد أفسدت متعتهما بما حدث معي وفي طريق العودة كنت أسأل حامد دون وعي مني:

- هل تميل إلى رؤى الآن؟

- ما الذي جرى لك؟ قلت لك كلا. (قالها بعصبية واضحة أظهرت بعض العدائية في نبرة صوته).

قال أوّاب مقاطعاً:

- ألم يقل لك أن لا علاقة له بها ولم يذهبا إلى منزل ياسمين؟

أجبته:

- وما دخلك انت؟ وكيف علمت أننا تحدثنا بشأن ياسمين؟

- وهل غير ياسمين نذهب إليها عند الحاجة؟

- .....

سحبَ أوّاب هاتفه النقال ليكتب رسالة ما على غفلة من حامد الذي لم يتبادر إلى ذهنه كون الرسالة قد أرسلها لي: (ولاء.. رؤى تحبك. وقد حلمت بهذا. فكن متأكدا من ذلك فأحلامي تجسيدٌ مسبقٌ لحقائق لا تخيب).

أوّاب: في مستشفى الأمراض النفسية

«المجدُ للشيطان معبود الرياحْ
من قال (لا) بوجه من قالوا (نعم)
من علم الإنسانَ تمزيق العدم
من قالَ (لا) لم يمُت
وظل روحاً أبديةً من الألم»
أمل دنقل كلمات سبارتاكوس الاخيرة

كانت الرابطة الروحية مع سيدي سوميا أقوى بكثير من رابطةِ الدم مع شيخي، فأنّى لي أن أعصي أوامر سيدي وهو الغضوبُ ذو القوة اللامحدودة وصاحبَ الجبروت اللامتناهي، يعبده الآلاف، عشرات الآلاف، بل الملايين في مختلف العوالم مما نعلمُ ومما لا نعلم، في لاهوته الذي اختطه لنفسه يوم طلبَ من اللّه طلباً غريباً حينَ قال:

(أتمنى أن نَرى ولانُرى وأن نغيبَ في الثرى، وأن يصيرَ كهلُنا شاباً) فاستجاب اللّه لطلبه، لكنه سرعان ما دعا أبناءَ الجان وأبناءَ آدم لعبادته بعد حين، فكانَ له بعضٌ مما أراد..

كنتُ في المُستشفى أتصفحُ كِتاباتي عن الشيطانية، وعن تقبُل بعض المجتمعات الغربية لهُما بينما أتناولُ غدائي الذي سبقتُه بحبتي السحرية التي ألهمني سيدي استعمالها. أعيدُ قراءة ما أنتجتُ من نصوص مرة واثنتين وثلاثاً..

كانت تُلاحقني صور دمويةٌ لِما كانَ من أمري مع شيخي منذ الأيامِ الأولى التي أودِعتُ فيها مستشفى الأمراض النفسية هذا، وكل تلك الصور والذكرياتُ لا تنفك تسلبني راحة بالي وتعكرُ لي مِزاجي، لكني تجاوزتُ تلك المرحلة بعد حين بفعل ما تلقيتُهُ من عناية ومساعدة الكادرِ الطبي، وقبل هؤلاء سيدي سوميا الذي مَنحني الوردي وكان لي سنداً وعوضني ما كان ينقصُني في كلِ حياتي، وأصبحتُ مذ رافقني كاملاً..

حرارةٌ تتصاعدُ من أخمصِ قدميّ حتى أعلى رأسي، نارٌ تستعر في جسدي، وحميم يغلي في عروقي..

تُناديني أصواتٌ من أعالي السماءِ ومن تحتِ الأرض، من الجُدران، من كل مكان: (إذهب فاقتله، إذهب فاقتله، إذهب فاقتله، أقتله، أقتله، أقتله. الويلُ لكَ إن لم تقتُله، سيحِلُ عليك الغضب وستلحق بك اللعنة. إذهب فاقتله)!

تبرزُ عُروقي و أوردتي فأراها واضحة أمام عيني، ظاهرةً أعلى الجلد، تفرزُ دَمَها نحوَ الخارج، فتتجمعُ قطراتُ دمٍ في فتحاتِ البشرة لتهوي نحوَ الأرض، تغدو جدرانُ الغرفةِ مرايا واسعة، أشاهدُ منها عيني حمراوين بلا بياض، أفقدُ السيطرة على كل حواسي و مفاصلي و أجزائي، وإذ تتساقط قطرات دمي ودماءٌ أخرى معها أرضاً فتتجمعُ في مستوى مُعين يَعلو على البلاط بعشرَة سنتمترات أو تزيد حتى تتجمعُ في ذلك المستوى و تتوقفُ عن الحَركة و يصيبُ السكونُ عقاربُ الساعة و يتلاشى الزمان في لُجَةِ المكان فلا أرى نفسي أنا أوّاب و لا أرى المكانَ نفس المكان ولا الزمانُ هو ذاته، تتصاعدُ قطرات الدم مسرعة نحو الأعلى بسرعة كَلمحِ البصر لترتطم بالسقف فيمتلئ دماً و غضباً و لعنات.

وبيما أنا هكذا أستذكرُ كلَّ ذلِك، إذ ناداني صوتُه أن (أمسِك قلماً وورقة وأكتب آيات عظمتي وجبروتي وقوتي أتلوها عليك).. فقلت:

- ما أنا بأهل لأكتبَ ما عندك، مُرْ غيري من أتباعك و مُخلصيك، فأنا العبد الفقير المحجوز قسراً بين أربعة جدران، لا حول لي ولا قوة!

- أكتُب ولا تبتئس. سيكونُ لكَ مما اخترتُك لأجله حظٌ عظيم. وستكون لك الأرض وملك النار والشرر.

- ماذا أكتب؟

- إني أنا سوميا أبو الجان وملكهم، قد فوضتُ أمر تنفيذِ إرادتي إلى تابعي وعبدي أوّاب.

سولاف: قصتي مع حسام

نهضتُ مبكراً واتممتُ استعدادي للخروج من المنزل، إذ ارتديتُ سروالاً أسوداً وقميصاً أبيضاً منقطاً بالأسود، وقد عقصتُ شعري إلى الخلف وطويتُ عباءتي التي ابتاعتها لي ياسمين في حقيبة يدي الضخمة وخرجت، أوقفتُ سيارة تاكسي..

- صباح الخير.. لساحة الوثبة لو سمحت (قلتُها وأنا أمضغ العلكة).

- إدللي، اصعدي.

- كم الاجرة؟

- بلاش للطيبين.. (قالها بابتسامة خبيثة)

- هكذا لن تقلّني بسيارتك وستذهب تجوبُ الشوارعَ باحثاً عن شخص آخر تقلّه، أطلب أجرتك فنتفق كي أركب.

- أي مبلغٍ ترينه مناسباً هو ذاك أجرتي.

- سادفع لك 1. آلاف اوكي؟

- اوكي، أمرك.

- ما يأمر عليك ظالم.

استرقَ السائقُ إليّ نظرات خاطفة من المرآة، كان شاباً يكبُرني ببضعةِ أعوام،

أسمر البشرة، حليق اللحيةِ والشارب، غليظ الحاجبين، كثيف الرمشين، تحت اذنه اليمنى وشمٌ لنجمة سوداء وعلى ساعده الايمن ثلاث نجمات استقرين بشكل طولي، يلبس بنطالا أبيض وقميصا ضيقا أسود، كما يبدو أنه يمارسُ رياضة بناء الأجسام في إحدى القاعاتِ الرياضية.. نظر إليّ بعينين لامعتين ربما أسكرتهُما الرغبة فقد راح يُبلل شفتيه بِلسانِه وسألني:

- هل تسكنين هناك؟

- وهل يهمُك ذلك؟

- ولم العصبية؟ إهدئي فالتعصبُ يملأ وجهك تجاعيداً مستقبلية، كما يشجعُ التهاب القولون!

- أثقيل الظل هكذا أنت في العادة؟ (قلتها وقد صنعتُ بالوناً كبيراً ورديّ اللون نفختُ فيه حتى انفجر)

- أووووف (بدا لي مستثاراً من طريقةِ المضغ ومن تعلُق عينيهِ بجسدي في المرآة)

- ما بك؟ (تصنعتُ الغنج وأنا أسأله)

- هههه عسسسسل!

- أين هو؟ أريدُ نصف كيلو من عسل البرسيم!

- هاهاهاهاهاهاااااا

- لم أقل نكتة!

- ألم أقل لك.. عسسسل.

لمّا قاربنا الوصول، أخرجتُ عباءتي من الحقيبة، وضعتُها بجانِبي، ووضعتُ

أحمر شفاه واستعملتُ لخدي بعض البودرة، كما قمت بوضع عدستين ذواتي لون عسلي فاتح لعيني، بينما لا زال حسام وذلك اسمه- يتلصصُ النظرات..

وقد انتبهتُ إلى رقمهِ المدون على كرت مثبتٍ بشريطٍ لاصق خلف كرسيه، السائق حسام.. نقل الزبائن وتسليم الطرود والهدايا وارسال البريد والامتعة داخل وخارج بغداد.. وحفظت الرقم عن ظهر قلب.

وفجأة داسَ الفرامِل بعد أن كادت السيارة تصطدمُ بأخرى..

- ألا تنتبه لطريقِك؟ لقد كدتَ أن تقتُلنا!

- وهل ينتبه من تركبين معه لطريقه؟ (قالها وهو يلعقُ شفتيه بلسانه وأضاف): ما اسمكِ؟

- سيمون

- اسمٌ جميل! سيمون.. اسمٌ موسيقي له لحنٌ بديع.

- شكراً.

هذا ما أصبحتُه.. و أنا راضية كل الرضا عما أنا فيه، أحببتُ تجاربَ كهذه وأردتُ أن أستزيدَ وأنهلَ أكثر، لا أريد لعُمري أن يتوقف ولا أريدُ لأيامي هذهِ نهاية...

- هل وصلنا؟

- لقد قاربنا الوصول، ولكن إن أردتِ أن أصطحِبَكِ في جولة فأنا على أهبة الاستعداد!

- هاهاها كلا شكراً لك. فلستُ من ذلك النوع.

- من أي نوعٍ أنتِ؟

- من النوعِ الذي لا يُغلَب ولا يُخدع.

- ولكنّي لم أقصِد خِداعك

- فما قصدُك؟

- كل الخير يا ست سيمون.

- تفضل.. أجرتك.

- أشكرك (قالها وهو يتلمس ما ظفر به من يدي التي مددتها إليه بعشرة آلاف دينار، فسحبتُها فوراً)

- آسف.. ولكن..

- ماذا؟

- بشرتك ناعمة.. وجميلة!

توقفْ هُنا، سأترجلُ الآن. (نصرٌ كبيرٌ ونجاحٌ ساحق هو ما أحسستُ به بعد تلك المُحادثة)

- في رعاية اللّه ست سيمون.. ألا تسجلين رقمي؟ أنا في خدمتك متى شئت.. واسمي حسام.

- باي.

هل قصدَ حامد ذلك؟ هل يريدُ لي اكتساب المزيد من التجارب؟ أم أنه يريدُني صورة عن ياسمين؟ فإن أرادني صورةً عنها فلِمَ لمْ يجعلها هي صاحبته، ما حاجته بي؟

أوه.. لأبعِد كل تلك الأفكار عن بالي.. حامد أرادَ لي ذلك. وأنا نفذتُ إرادته. أنا أفعلُ كل ذلك من أجله. أنا وحامد ولتتحطم الدنيا وما فيها!

رؤى.. فشل وكوابيس

غردت إحدى صديقاتي في تويتر:

(ليتَ كل أشيائي الموجعة أوراقاً أمزقها ألف جزءٍ وأرميها في أقرب سلة مهملاتٍ فتنتهي كل الآلام).

تلك العبارة هزتني وجعلت من دموعي شلالاتٍ تنهارُ نحو آلامي محاولة وأدها وإطفاء جذوة نيرانها وخاصة بعدما رأيت صورة مرفقة مع ذلك منشور صديقتي لأنثى رثة الثياب ارتمت على حذاء من كان حبيبها يوماً لتقبله وتستجدي رجوعه، وهو واقف كالطود لاتتحرك له شعرة، جاف المشاعر، صلب النظرات، ربما يكون قد سلبها عفتها بعد أن دمر كبرياءها وشموخها.. أنظر إلى المرآة فلا أرى رؤى، بل أرى أنثى شاحبة مجروحة مهزومة وبائسة.

أتحولُ بنظري إلى علبة الحبوب التي أعطانيها حامد حين كنا في منزل ياسمين ناجي، آخذ بيدٍ مرتجفةٍ إحداها بين أصابعي، فتتوالدُ الذكرياتُ أمامي كأني أراها على شاشة عرضٍ سينمائي واسعة..

رأيتُ حامداً وهو يَخلعُ حذاءهُ ويفتحُ أزرارَ سترته، ثم يُرخي ربطة عنقه ويجلسُ على الأريكة، أجلس بجانبه باكية، يسحب رأسي ليضعه في حجره، ويقول مشيراً إلى علبةِ حبوبٍ على المنضدة:

- حبيبتي، يا نور عيني.. ابتلعي قرصاً من هذه وستشعرين بتحسن كبير، لا عليك.. أنا معك، ولن أتخلى عنك، سنكون سوياً كلما احتجتِ إليّ..

ـ أحبك.. أحبك..

ـ وأنا أيضا أحبك.

أرتميتُ في فراشي أتنفسُ ريحه من تذكاراتهِ وهداياه التي وضعتها على مخدتي.. حزامُه الأسودُ المُخرّم، محفظته، فردة من جوربه، و رواياتٌ أهداني إياها قرأتها ألف مرة وحفظتها عن ظهر قلب.. أفكر فيه بعد أن كسر لي قلبي بقوله: (آني مو مال زواج)!

ـ حامد... أريدك.

ـ وأنا ايضا أريدك يامهجة قلبي وروح روحي (ممسكاً بيدي ليدفنها داخل قميصه بين ثدييه فأتحسس شعر صدره الخشن، وأنتف بعضاً من ذلك الشعر فيصرخ فيّ):

ـ مخبلة..

ـ هاهاها.. أريد كيساً صغيراً أضعها فيه.

ـ ... (لا جواب سوى الدهشة المغلفة بسؤالِ ماذا تفغلينَ به نطقت به عيناه)

ـ أريدُ أن أحتفظ بها لديّ.

ـ هل بدأ تأثير الوردي؟

ـ هاهاها.. كلا فلم تكد تمضِ ربع ساعةٍ منذ ابتلعتها. ولكني أريدُ تذكارات لاتُنسينيك أبداً!

ـ كفردة الجَوارب التي اخذتِها الأسبوع الماضي تذكاراً مثلاً؟

ـ أنا أحب كل ما يمُتّ إليك بصلة، كل ما فيه رائحتك، أنا مهووسة بفيرموناتك، وبعطر جسدك، وبطريقة كلامك، بسكناتِك وحركاتِك كلها، وبعد هذا كله ألست لي وأنا لك!

ـ فإن كان الأمر كذلك فخذي قبلة إذاً..

- قبلة و..

- نعم يا حبيبتي.

في إحدى لقاءاتنا كنتُ أشعُرُ بإحباطٍ كبير فقد طالَ عمرُ علاقتنا دون تقدُمه لخطبتي التي تيقنتُ بعد فواتِ الأوانِ أنها لم تكن إلا مجردَ وهمٍ ملأ رأسي، إذ لم يكُن ينوي إلا المضيّ فيما نحنُ عليه.. سألته:

- حتّام يا حامد؟ ماهكذا أريدك، أريد أن نرتبط بالحلال! تعبت مما نحن عليه، أرجوك أن تتفهمَ وضعي، مضت سنتان على علاقتنا دون أن تثبتَ لي أنك جاد فيما نحن فيه.. العطلة على الأبواب، كيف لي أن أراك؟ (قلت ذلك بينما كانت تتساقط دموعي ليمسحها بيديه فأقبلهما.. يمسح على شعري بيديه فأغمض عيني متخيلة نفسي على سريره)، حامد أنا أحبك، أنت أوكسجين حياتي.

- حبيبتي تدبري أي عذرٍ للقائنا، اختلقي عذراً لهذا اليوم وللغد ولكل يوم..

- أرجوك.. لاحياة لي بدونك.. حامد تزوجني!

فيجيبُني:

- (حبيبتي ألف مرة كَلتلج.. آني مو مال زواج!).

استعطفته بنظراتٍ متوسلة.. فأضاف:

- حامد للحُب، للحُب فقط. ألا يكفيكِ أنك وحدكِ في حياتي وأني تخليت عن كل فتياتي من أجلك؟ ألا يكفيك أني قطعت على نفسي عهداً و وعداً بعدم تركك أو نسيانك مهما كانت الظروف؟ ما الذي تروموه فتاة مثلك مُنِحَت كل شيء من عائلة محبة ومنزلٍ رائعٍ ومكانة مرموقة في المجتمع، وحبيبٍ مخلصٍ لك على الدوام!

ماله هاجمني هكذا؟ أيريدني أن أتوسله؟ هل يريد إذلالي بقوله ذلك، و رفضه لي زوجة؟... قلت له:

- أريد الأمان.

- أنت بين يدي ويدي أهلك في أمان.

- أريد الشرف والعفاف..

- هاهاها أنت شريفة أمام كل الناس وتملكين من العفة ما يعلم به القاصي والداني.

- أي شرف وعفة ما تتكلم عنهما؟ ما قيمة نظرة الناس لما أقوم به من تمثيل وتصنع أمامهُم تجاه نظرتي لذاتي ولشرفي وعفتي المُراقبِ على يديك.

- ما نفعلُه لا يخدشُ عفتك، ثم أنني لم أطلب منكِ شيئاً. أنت من أردتِ كل ذلك.

- أردتكَ حُباً شريفاً ينقلني نحو الأعالي فجعلتني مُنحرفة مُخادعة لذويها و للناس أجمعين.

- لستِ كذلك.. أنت تعلمين أنكِ لست كذلك.. و قد ابتدأتِ بإغضابي حقاً!

- أريد أن أعود إلى المنزل. (كنتُ أمسحَ دُموعي بيدي وأنا أقولها).

- حاضر. (قالها بحزم شديد وأشاحَ بوجههِ عني بعد أن رَمقني بنظرةٍ ملؤها الاحتقار، كأني اقترفتُ بحقهِ ذنباً لا يُغتَفَر)

في المنزل، كنتُ يائسةً أشد اليأس، نادمة كل الندم، كنت عمياء لا أرى إلا الحب والوله والغرام، ولكن الدنيا سوداء قاتمة، تخبئ وراء كل ضحكة عشرات

الآلام والدموع، ولم أكن إلا بليدة حالمة أغشى التعلق المرضيُّ بحامدٍ عينيّ عن حقيقته، وتسرعتُ في كل تلك العلاقة فدمرتُ نفسي ومضيتُ نحو الهاوية.

تناولتُ قرص الوردي ثم غفوت، وبعد نومٍ قلِقٍ صحوتُ باكية و صورُ لقاءاتنا تتسارعُ أمام عينيّ.. تظهرُ واحدة تلو الأخرى على حائط الغرفة الأبيض الخالي من أي لوحة أو ساعة.. وهو يبدو كشاشة سينما كبيرة.

كلا. هي ليست غرفتي.. أنا في سينما فعلاً.

المكان: قاعة سينما تسعُ لمائتي متفرج.

الوقت: لا أعلم.

الجالسون: لا أحد.

أنا أجلس على احد الكراسي المصفوفة على مدرجات لم أحص عددها.. و رجل واحد واقف بالقرب مني، إسمه هاني. من هو هاني؟ لا أعلم.

- أرجوك يا عم.. شغل لنا كاميرا العرض

- حاضر ياعزيزتي، ولكن لا احد هنا سواك! فمن قصدت بقولك (لنا)؟

- حامد.. ألم يصل حامد بعد؟

- كلا.

- سننتظره إذن.

سأريك إياه. سأريك فيلماً بطلُه حامد.

- أي فيلم. أنت تتكلم بغرابة كبيرة!

- شاهدي يا حلوة.

- ماذا؟

- على الشاشة!

على الشاشة الكبيرة ظهر حامد شبه عارٍ وسط منزل قديم الطراز ذي باحة مفتوحة نحو الأعلى تحيط بها غرف ذات شبابيك خشبية، واكتسب جسدهُ المتعرق بريقاً بعد نفاذ أشعة الشمس من قطعة نايلون نحو الأسفل.. تقدمت من حامد امرأة بملابس ضيقة شفافة وها هي تلثم شفتيه بقبلات متتابعة يفقد معهن كافة حواسه، فيتحول وحشاً مفترساً يصارعها حتى يأخذ منها كل ما استطاع.

صداعٌ حادٌ يطرق جُمجمتي كمسمارٍ يدقُّ نعش الواقع، و يحيلُني إلى لوحات طيفية متتالية في شريط السينما ذاك الذي أشاهده على مضض، حامد يفترش مكاناً ضيقاً في مرسمٍ لصديقته، ويترك لراحتي يديه حرية مداعبتها و قد أغمضت عينيها منتشية!

- أطفئ ذلك الشريط يا عم هاني. أرجوك. (قلتها بعينين دامعتين)

- حامد يفعل كل ذلك و زيادة.

- كلا. فهو شريـ. (كنت أود أن أقول أنه رجل شريف، لكني تراجعت، لربما سيضحك العم هاني على تفكيري الساذج بعد كل ما فعل بي، وأي شرف لدى من يصطحب أنثى إلى خلوة يتمتعان ببعضهما فيها فتعطيه كل ما لديها، ليعلن لها وبكل وقاحة: (آني مو مال زواج)!

- عزيزتي.. أنا أنتِ و أنتِ أنا.. أنا هاني العظيم، أنا من يجري منك مجرى دمك. اتركيه و تعالي معي. اتبعيني على أن لا يصيبك حرمان و لا جوع و لا أذى في هذه الدنيا. (كان يتلون بالسواد، وتختفي ملامحه بشكل مخيف و مرعب)!

ـ أرجوك، أنا خائفة، سيتوقف قلبي فارحم بي فلا قدرة لي على تحمل المزيد، أطفئ الشريط واظهر كما رأيتك أول مرة أو اذهب و انصرف بعيداً. (لا بد أنه مس شيطاني لا طاقة لي به)!

ـ هاهاها انظري إلى حبيبك..

يضرب حامدٌ رأسه بالحائط و يطلب المزيد من الأقراص.. يتوسل احد أصدقائه ليمنحه المزيد.

كنت أصرخ بشدة ممسكة رأسي و أنا أسب اليوم الأسود الذي رأيت فيه حامد.

وفجأة وجدت نفسي بين يديّ والديّ في غرفتي، كنت من أثر الصدمة صامتة هامدة لا يتحرك من جسدي إلا عينيّ تتقلبان بينهما، فتارة أنظر إليها تبكي وتضع يديها على جبهتي لتقرأ المعوذتين وبعض الأدعية وآيات للأمان والتغلب على الخوف والفزع، ووالدي مذهول ويحمل بيده كأساً من الماء قدمها لي فشربت جرعتين منها. وعدت إلى النوم بعد قليل.

كان حامد قد ظهر أمامي فجأة بصدر عارٍ و منشفة سوداء يشدها حول خصره.. مد يديه إلي فامتدت منهما أغصان نحوي، حملتني نحو الأعلى بعد أن شقت سطح المنزل..

رفعتني الأغصان اليابسات، ورفعته السحب الرطبة.. أزهر أحد الأغصان ورداً ضخمة فملأ شذاها السماء، اضطجعنا متقابلين متقاربين على ورود حمراء قانية، شفتانا تتهامسان كل كلمات الحب التي عرفتها الأكوان..

اقتربَ حامدٌ أكثرَ فاكثر، احتضنني بقوة، أنفاسي تتقطع وجسدي يرتعش.. وفجأة، تجهمَت ملامحه، واسودّ وجهه، وبانَ منه الغضب.. بصقَ بوجهي، ثم

ابتعدَ عني فاغراً فاهُ عن خفافيش سوداء خرجت منه، وغيوم سوداء تكونت إثر تشقق قطع من منشفته.. أزهاري تحولت رماداً، واتشحت السماءُ بالسواد.. كل الطيور تحولت غرباناً قبيحة، تراقصت مجنونة، وكل المخلوقات حولي تترقب موتي..

أسقط فيما يتضاحكون.. ويضحكون ويضحكون

كنت أصرخ عاليا فيما ضحكاتهم تتعالى بمستوياتٍ صوتيةٍ مختلفة..

صفعَ والدي خدي مرتين، فوجدتُ نفسي باكيةً بين أحضانه.. بكيتُ بحرقة.. بكيتُ حامد، وحظي العاثِر، وذاتي المهزومة، وأنوثتي الممزقة.

أوّاب: الخلاصُ من شيخي

مع صياحِ شيخي بكلماتِ أذانِ الفجر عبر مُكبر الصوت، أشعرُ أن صوته الصادح يؤذيني، يوتر أعصابي، يُغضبني ويحرمني نومي.. نهضت من سريري واقفاً بين يدي سيدي الذي أصبح بمرور الأيام كما النعاسُ يغشاني أو يكونُ طيفاً أحس به. لكني هذه المرة، وجدتُه واقفاً عندَ طرفِ السرير، متجلياً أمامي بكُل قوته، يأسرني ويُفقدني السيطرة على كل شيء، عيناي لا يرمشُ لهُما جفنٌ ولا تغادرانه، وكذا كلُّ حواسّي، فهي له تابعة مطيعة، وأنا أمام سطوته الصغيرُ الذليل الحقير.

- قُمْ فاقتُله. سَتكونُ لك قوة ما بعدها قوة، وسيكون لك ظمأ للدم عظيم، إنهض بقوتي، كُلما دَعوتني دَعوتَ نفسك.. روحُك الآثمة علِقت بروحي. أنت أنا وأنا أنت!

- خلصني من ألمٍ ألمَّ بي منذ ولدت يا أنت.

- فورة الدمِ ستُخلِصُك إن أنت اتبعتَ أمري ونفذتَ مشيئتي.

- أنا طوعُ أمرِك.

- أنتَ أنا وأنا أنت.

- أنتَ أنا وأنا أنت.

نهضتُ نحو المَسجد. كان يجلسُ بمفردهِ قد أتم الأذن للتو.

تسمرتُ عند البابِ الخشبي الكبير الذي يتكون من جزئين مخرمين داخلي وخارجي مطبِقان على لوحِ معدني سميك مطلي بلون ذهبي بينهما، لم أستطع الدخول فناديته:

ـ شيخي.. شيخي.

ـ أنت هنا؟ هلُمَّ يا ولدي لتُصلي..

ـ كلا يا شيخ.. فلتخرُج أنت لي.

فنهض من فوره وسمعتُ خطواته وهو متجهٌ إلي، قال:

ـ أنت تتعرقُ يا بنيّ، وملابسك تقطُر عرقاً. أيؤلمُك شيء؟ (قالها وقد أصبحَ بمواجتي وجهاً لوجه)

وضعَ باطن يُمناه على جبهتي.. حرارتُك عاليةٌ يا بُني.. أسأل اللّه العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك. فما كان مني إلا أن أحطتُ برقبتهِ بكِلتا يديَّ وضغطتُهما عليها بقوة فبدأ الهواءُ يشخُّ في رئتيه... قال كلمات متقطعة: إب إبني إبني أووا.. دفعتُ برأسهِ نحوَ الباب ولازلت ممسكاً برقبته، مثبِتاً إياها براحَتَي كفيّ.. إرتطم رأسُه بشدة، مرة واثنتين وثلاثا حتى تناثر دمه من رأسهِ مُلطخاً ثيابي وملطخاً الباب حتى لفظَ آخر أنفاسه، فأسقطته أرضا.

لم أتردد لحظة في خنقه، لم تضعُف عزيمتي أبداً، كنت قد مُنحتُ حينذاك قوةً لو أردتُ أن أفتِتَ بها جبلاً لفتتّهُ ذراتِ رملٍ صغيرة.

عُدتُ بعدَها إلى غرفتي لأجدَ قِططي بانتظاري، أجلستُ قطتي السوداء اللطيفة إلى جانبي على السرير مسدتُ لها شعرها الناعم وداعبتُ ما بين عينيها لتغفو بهدوء..

صراخ والدتي وأخواتي ملأ المكان، كما تهافت المصلون لمحاولة نجدة الشيخ دون جدوى لأني قد أتقنت فعلتي جيدا قبل أن أتركه.

وماهي إلا خمسة عشرة دقيقة حتى حضرت سيارة الاسعاف ودورية النجدة قبالة باب الجامع. فتحتُ باب غرفتي القذرة وسلمتُ نفسي إليهم وأنا أرتعشُ دون سبب، فلم يكن الخوف مسيطراً علي إذ كنتُ على يقين تام بأن سيدي إبليس لن يتركني وحيداً، ولكن ما جعل أدمُعي تتساقط هو نواح والدتي وأخواتي الذي سببَ إضافة لصوت سيارة الإسعاف تجمعَ الجيران وأهل المحلة.

صوته من كل الأرجاء يناديني:

(أوّاب كفكف دموعك. سيكون لك شأن عظيم

أوّاب كفكف دموعك. سيكون لك شأن عظيم)

المخطوط: (1)

في سبتٍ تجاوزت درجة حرارته الخمسين مئوية، ألهبت اسفلتَ أرضيةِ الشارع، ولم تقِ نِعالاتُ الحمّالين والباعةِ المتجولين أقدامَهُم السوداءَ التي طالما لفحتها أشعة شمس بغداد الحارقة.

شاهدتُ شاباً ضخم البُنية، حليقَ الشعر، أسمرَ البشرة، تعرقت خلايا جسده كثيراً مما جعل ملابسه تلتصق بجلده، يدفع عربته الخشبية، التي يجلس فيها رجلٌ آخرٌ في منتصفِ العقدِ الثالث بشعر أسود مجعد، أسمر البشرة هو الآخر، غليظ الحاجبين، وله لِحية تتدلى إلى الأسفل بما يزيدُ عن قبضتين، وقد امتدّ على طول ذراعه الأيمن وشم لمجاميع من الورود حمراء وصفراء اللون، وعلى ذراعه الأيسر وشم لجملة كتبت بالحروف الصينية، وقد خيل لي أنها تعودُ لبضعةِ سنين مضت وأنه قد حصلَ عليها خارج العراق، يبدو كصعلوك مخبول شكلاً، كان يرتدي بنطالاً قرمزياً وتلُفُ أعلى جسدِه قطعة قماشٍ سوداء اللون تبدو كعباءة نسائية لماعة.

كان ينظر إلى الأمام رافعاً رأسهُ بزهو دون أن يرمش له جفن، في جلسة لها هيبة ووقار تبدو كجلسة أحد الملوك.

دعوتُ خالي جواد وهو الذي يجعلني أمشي على يمينه دوماً ليُقدمني في السير عليه؛ وفي ارتقاء السلالم وولوج الأبواب واجتياز الأزقة والدرابين الضيقة وفي كل شيء حباً ومودةً واعتزازاً بي- للنظر إلى ما وقعت عليه عيناي، شارحاً

له انطباعي عن الصعلوك الملك وصاحبه... وقد كان خالي قد استوقفني لشراء علبتي عصير حين تمكن الحر منه فأنهكه فلم يعد له بدٌ من شراء ما يُبرد به جوفه..

كنا متوجهين نحو شارع المتنبي بعد جدالٍ طويل كنتُ فيه الخاسر لرفضي الخروج في تلك الساعة من النهار، لم يكن خالي إلا دكتاتوراً في كل قرار اتخذه مما اتصلَ بوصول وجبة كتب جديدة لأحد كتبيي ذلك الشارع العريق، فقد سيطر عليه منذ نعومة أظفاره جنونٌ لشراء كل جديدِ الكتب، بكل ما لديه من مال، وكم من مرة عُدنا ماشين لمسافات طويلة محملين بكتب أرى بعضها لاجدوى آنية لها ولايستوجبُ شراؤها إنفاق آخر فلس لنعود أدراجنا سيراً على الأقدام، و ربما لو ادخرنا تلك النقود لاشترينا كتبا أخرى أكثر فائدة في وقت آخر..

اقتربت العربة منا.. فاستوقف الملك صاحبه لشراء ماء ارتشفهُ بذوقٍ مبالغٍ فيه.. حتى توجه بالكلام إلى خالي:

- لو سمحتم أستاذ..

- تفضل..

- نحن ذاهبان إلى شارع المتنبي ولدينا من المشاغل الكثير، ربما تساعدنا في إيصال مخطوط إلى أحد المكتبات المعروفة لتقييمه وعرضه لمدة لاتتجاز يومين على أكثر تقدير.

أدهشنا بأسلوبه ولطفه وكلامه الدال على ثقافة ودراية بأمور الكتب والمخطوطات مع معرفته لنا..

- ونحن إذ نرى فيكما المروءة والشهامة والصدق نطلب منكما إبداء كل المساعدة الممكنة.. ألم تعرفني حتى الآن؟؟

- آسف عزيزي، لا أعرفك!

- أستاذ جواد.. أنا عبد الجبار ابن عبد المنان أبو الطرشي صديق المرحوم والدك.. ألا تذكرني؟ صحيح أني أصغرك بقرابة اثني عشر عاماً، لكنني لازلتُ أذكرك، ولم أنس يوماً لهفتك للكتب وعشقك لها وقد احتفظتُ بهذا المخطوط طوال فترة إقامتي في مستشفى الرشاد وحتى هروبي منها قبل اسبوع!

- هروبك؟.. عبد الجبار! لقد تذكرتك.. أي مخطوط لديك؟ وما الذي أودعك هناك؟ (يقول ذلك وقد زاد استغرابه مما يرى ويسمع(..

- الموضوعُ يطولُ شرحُه، وحسبُنا المخطوط ومحتواه.

- أعطني إياه كي أراه..

أخرج من تحت عباءته كيس نايلون شفافٍ كبير الحجم يحتوي على أوراق كثيرة.

أخذ خالي الكيس وسحب ورقتين منه.. قرأهُما بطريقتِه السريعة المعهودة دون أن يحرك شفتيه ثم استدار نحوي ليقدمهما إلي.. قرأتهما فأصبتُ بذهولٍ شديد.

- من اين حصلتَ على هذه الأوراق؟

- من أحد الزملاء في المستشفى؟

- هل كان يكتبه بنفسه؟

- كلا فقد حصل على بعضها من بعض زواره وحررها بنفسه. وكان ينوي تحويلها إلى روايةٍ متفردةٍ بمحتواها ذاك.

- بكم تريد هذا المخطوط؟

- أتشتريه انت؟

- نعم.

- ربع مليون دينار.

- عبد الجبار.. المبلغ كبير جداً، سأمنحكَ خمسين ألفاً ولا أزيد. نأخذه منك، فنكون بذلك قد أنصفناك بسعره، وهو ورقٌ متهالكٌ ربما يكون تافهاً غير ذي أهمية ولانعلم مُحتواه، ثم أنه مذكراتٌ لا قيمة لها، وأنت تعلمُ ذلك وقد قرأتَه على ما أظن.

- ولكنها تصلحُ لأن تكون روايةً لا مثيل لها، وربما كتاباً فيه من الأسرار ما فيه، أليسَ كذلك؟

- ربما.

- على أية حال.. أنا موافق، لكن بشرط أن تمنحاني خمساً وسبعين ألفً وأن تذكراني بخير إن أنتما استفدتُما منها فنشرتما بعضها أو كلها!

- حاضر. سنذكُر اسمك فيها..

وهكذا أعطاهُ المبلغ المتفق عليه ليحصل بالمقابل على الكيس محل الاتفاق ثم يسأله:

- أين تسكن الآن؟

- أرض اللّه واسعة يا أستاذ.

- فأين نجدك إن احتجنا إليك؟

- لا أعلم. اليوم هنا وغداً هناك وبعد غدٍ هنالك! أستأذنكما بالمغادرة.

شكراً لك.

ينبري خالي بالتحدث مسلماً إلي المخطوط:

- ستزيد قراءة هذه الأوراق من الصور الذهنية لديك، كما ستمنحك أفكاراً جديدة لتبدأ بروايتك.

- روايتي؟

- نعم. ولم لا؟ ألم تكُن تبحث عن فكرةٍ مبتكرةٍ لروايتك؟

- بلى ولكن..

- فاستفِد منها يا عزيزي

- وحقوق الملكية؟

- توكل على اللّه تعالى، فعبدُ الجبار ليس بسارق، وهو فيما يبدو رجلٌ صالحٌ فقد بعض عقله.

- وما أدراك أنه لم يسرقها؟

- ورُبما تكونُ له. هل تثبتُ أنت شيئاً بالمقابل؟

- كلا.

- فلنذهب إلى مكتبة ابنتنا براء البياتي، فقد وصلتها كتبٌ جديدة بحسب ما أعلنت في صفحتها الفيسبوك مساء أمس، فإن شئت استشرناها بالموضوعِ وإن شئت لا.

بعد يومين من قراءة بعض تلك الاوراق.. أحببتُها بكل مافيها وصرتُ على يقينٍ تام بفضل اللّه تعالى إذ بعث لي بعبده حاملاً معه مخطوط حيواتٍ لأناس عاشوا كل الأيام التي استطاعوها بكل جوارحهم، بكل ما تحتويه من متناقضات.

سولاف: أنا مريضة ومجنونة

جمعتُ عبائتي بيدي لأخفي ما بدا من جسمي في تلك المنطقة الشعبية التي جذبتني، بكل مافيها، برجالها الفُحول سُمُر البشرة في غالبيتهم، مثقفيها، لكنة أهلها، المطيرجية وبائعي الداطلي والقصابين وبائعي السمك، طلاب محافظات الجنوب الدارسين في جامعات بغداد والذين يسكنون أطرافها.. كثيرٌ من ساكنيها القدماء يتداولون ألفاظاً نابية في حياتهم اليومية، تجذرت في ثقافتها الشعبية عبر عشراتِ السنين.

دخلتُ سوقها الشعبي، فلحِقني رجلٌ ذو شاربٍ كثيف أسود يُغطي شفته العُليا، اقترب مني كطاووس يتباهى برجولته المفرطة، وفحولته النابضةِ بالرغبة، والمُشبعَة بروائح ثورة خلاياه المنتصبة وبقايا مشروب منذ ليلة الأمس.. سعى خلفي يُدمدم بضع كلمات:

(يمه شحلاته.. حلوة المعاني البيه.. حلوة صفاته).

لم أعِره اهتماما على الرغم من كوني من محبي أغاني التسعينيات من القرن المنصرم..

أخالُ أصحابَ المحلاتِ يُحدّقون بي.. النسوة بالعباءاتِ السوداء يرمينَ سهامهُنّ عليّ بالحسد والغيرة مما أنا فيه من رشاقةٍ وجمالٍ قدّ.

استعملتُ خبرتي المكتسبة من مُصاحبةِ ياسمين ناجي، صديقتي المقربة والتي كان يومٌ منها يعادلُ سنة بأسرِها، في اختيار بعض الرجال، اصطدمتُ بهذا

ودفعتُ ذاك، وابتسمتُ لثالثٍ حاولَ معاكستي، حتى استدرجني أحدُهم بإرادتي ورغبتي، سألني وقد فهمَ أنه حظِيَ بي إلا قليلاً:

- ألديكِ مكان؟

- أوه نعم لدي.. وهو قريبٌ من هنا. (قلتُ له ذلك وقد كنا بالفعل قريبَين من منزل ياسمين)، ثم أردفتُ: دعني أُجري اتصالاً على انفراد كي أتبينَ عدمَ وجود أحد، فأنا أحب الستر والهدوء والانفراد بك دون إزعاج أحد.

- كم أجرتُك؟

- ورقتان.

- ورقتا ماذا؟

- ورقتان من فئة 1.. دولار، فأنا مميزة وأجري عالي.

- هاهاهاها

- لم تضحك؟

- عزيزتي.. مئتا دولار أستطيعُ أن أقيم بها حفلة معك لأربعة من أصدقائي!

- واااووو يعني أنت قواد؟

- صه وإلا صفعتُك صفعة كسرت لكِ أسنانك في فمك!

- يُممّه خوفِتني.. تعرف أنك تخوف فعلاً!

- لعد شعبالج؟

- يقول أخوتنا المصريون: بين البايع والشاري يفتح اللّه.

- انتي بتاعة مصريين ولا أيه؟

ـ يا خفيف الظل إنته! سأنصرفُ على أن نلتقي مرة أخرى وسأمنحُك رقمي لنتحادث عبر الفايبر أو أية وسيلةٍ تواصل أخرى فربما اتفقنا..

ـ اتفقنا.

منحته رقماً خصصتُه لمحادثاتٍ ليلية لا يعلمُه حامد أو حتى ياسمين، والصراحة أني لم أكن أنوي أن أفعل شيئاً معه، بل كنت أريد أن أؤدي دوراً أتقمص فيه شخصية ياسمين أو أية شخصية لغانية في أحد الأفلام المصرية..

والصراحةُ أنني لا أعلم لمَ؟ ولكنني أرى نفسي قد أصبتُ بالجنون، جنونٌ مطبق أصابني في مقتل، فإني عندما أخلد إلى فراشي ليلاً وأستذكرُ ما فعلتُه في يومي أبدأ بالبُكاء على نفسي وعلى ما أصبحتُه، ولكني كنت في بعض المرات أسرحُ شاردة الذهن متفكرة قليلاً لتكون نتيجة تفكيري الفخر بما فعلت..أنا أقرُ بالتناقُض في سلوكي ولكني لا أعلم سبباً له.

هل أنا بحاجةٍ إلى طبيب نفسي؟ الحقيقة أني استشرتُ بعض العيادات النفسية على شبكة الانترنت فيما يعتريني من أفكار مجنونة، وكانت النتيجة أن من أستشيرهم يحاولون مكالمتي عبر الكاميرا فتنتهي تلك المحادثاتُ بأن أحظرهم، كذلك الطبيبُ الذي طلبَ مني أن أتجردَ من ملابسي امامَ الكاميرا ليرى إلى أي مدى قد وصلت حالتي من الجنون هاهاها.. يبدو أنك لستَ بطبيب، أنت مجنونٌ آخر كمثلي لا فرق بيننا، وجنوننا يصب في البوتقة ذاتِها ولن أمنحك أيا مما تشتهي.. سأحظرك وانتهى الأمر!

ثم حاولتُ مراجعة طبيب نفسي أكثرَ من مرة ولكني لم أفعل ذلك..

كنتُ أعزّي أسبابَ ما أُصابُ به إلى حبوبِ الوردي وتعلقي بحامد، فقد أصبحتُ ألتقي به ثلاث مراتٍ في الأسبوع، عند ياسمين وعند غيرها..

أنا مدمنة على حامد. وأنا مدمنة على الوردي. ولا أعرفُ حتى الآن هل أن حامد يُعاني الأعراض ذاتها ويُكابرُ مُمثلاً الشجاعة والقوة والصلابة أمامي وأمامَ كل الناس؟

هل يجِدُني حبَّ حياتِه وكل ما كان يتمناه؟ أم يراني أنثى يستمتعُ بها كبقية من عرفهُن؟ هل سأموتُ دون أن أسمعَ منه كلمة حبٍ يؤكدُ لي قلبي أنها حقيقية نابعَة من قلبه أم سأموت مخبولة محتقرةً منهُ ومن الناس أجمعين؟

أنا مسكينة.. وأنا مريضة.. وأنا مجنونة.. وحامد دائي ودوائي.

بعدما أعطيتُ الرجل الرقم اسرعتُ لأخرُج من السوق.. ولمّا تيقنْتُ أن لا أحدَ يُلاحقُني انزويتُ على جانب الشارع عند باب محلٍ مغلق أخرجتُ هاتفي النقال من حقيبتي واجريتُ اتصالاً:

ألو ولاء.. كيف الحال.. أنا سولاف

أخبرته بأن يأتي لزيارة سنان في تمام السابعة وأن يبيت في منزلنا الليلة. فوافق بكل سرور.

ثم أجريتُ اتصالاً آخر:

ألو حسام.. أنا سيمون.. لديَّ بعض الأعمال في منطقة الأعظمية، في شارع سهام متولي، أريدُ شراءَ بعض الملابِس... أحسستُك خدوماً جريئاً جديراً بثقتي وقد حفظتُ رقمك عن ظهر قلبٍ قبل أن أترجلَ من سيارتك، تعالَ لتُقلني من المكانِ ذاته بعد ساعة من الآن فوافقَ مسروراً.

ذهبتُ بعدَها إلى ياسمين لألقي عليها التحية، وأشرب عندها الشاي مع كثيرٍ من السكر وأمضي مُغادِرة منزلها.

ولاء: زيديني عشقاً يا رؤى..

«فأشـهدُ عند اللهِ أني أحبُهـــا
فهذا لها عِندي، فما عِندها ليا؟
قضى اللهُ بالمعروفِ منها لغيرِنا
وبالشوقِ مني والغرامِ قضى ليا»
قيس بن المُلوّح شهادةٌ عند الله

ما الذي جعلَ أوّاباً يقول بأن رؤى تُحبني؟

هوَ لم يرَها ولم يلتقِ بها، وكيف لها أن تحبَني وهي لم تتودد لي أو تعيَرني أدنى انتباه؟

كلها أسئلة تبادرت إلى ذهني حين أخبرني أوّاب بذلك.

تردد ما قاله أوّاب في ذهني كثيراً حتى أنه منعني نومي وأصابني بأرق شديد لم تفلح حبة وردي إضافية مع حبة فاليوم من إزالته وإجباري على النوم، وما يزيدُ من توتُري هو صدورُ ذلك الكلام من أوّاب بالذات وليس أحداً غيره.

فأوّاب شابٌ غريبُ الأطوار فرضهُ علينا سنانُ ذاتَ يوم ثم أصبح حضورهُ إلزامياً واجباً في كل اجتماعٍ فيما بعد. ومع حاجتِنا إلى المزيد من العقاقير التي كان يزودنا بها بانتظام لقاء مبالغ مالية بسيطة مقارنة بالأسعار السائدة لها، أصبح مستودع الأسرار الخاص بكل منا على حدة، وناصحَنا الذي يخطط لنا بعض من

مسارات حياتنا اليومية ويسدي لنا بعض النصائح، عن الموت والحياة والآلهة والبشر، والشياطين والملائكة وعوالم النور والظلمة. فنحترمه ونجله تارة، ونخافه تارة أخرى لإجماعنا على أن له تاريخا غاطساً لا نعلمه، تدل عليه تصرفاته الغريبة التي لا نجد لها تفسيراً في الكثير من الأحوال إن لم يكن معظمها.

رؤى فتاة شاعرية حالمة، لاتستحق شخصا فاجرا كحامد!.. فاجر؟ كلمة قوية لأصف بها صديق العمر، ورفيق الدرب، لعلني أظلمه؟.. كلا انا لا اظلمه باتهامي اياه بإهمال الفتاة التي طالما كان اسمه يحرك عواطفها واحلامها وكان حضوره يسلبها اتزانها، فتغدو معه كينونة تابعة، لارأي لها ولاقول أمامه..

كيف تحبني بعد كل هذا؟ وما فرقي أنا عنه؟ أنا أيضا فاجر أبحث عن إناث لإشباع شبقي ونزواتي، كما انني عابث أشرب وألهو وليس لحياتي هدف بعينه..

أنا لا اكتفي من النساء بما يكون عند ياسمين، بل أبحث عن المزيد، ابحث عن التفرد والاختلاف والتجديد، وأم سلمان خير مثال، ما وجه الاختلاف بيننا وانا الذي أرسلت علياً إلى أم سلمان وغيرها وهيأت له كل سبل نجاحه في ذلك كحامد الذي لاينفك يدعونا بين الحين والآخر لمنزل ياسمين أو للحفلات الصاخبة في نوادي شارع السعدون وغيره؟

لكنني رغم ذلك كله أعلم كيف يكون الحب والتعلق، كيف أحن وأرفق بشخص أراه بضعة مني، بل هو نفسي، قلبي يسع علياً الغالي.. كما يسع والدتي المظلومة البريئة المجاهدة، حتى أن قلبي يمتلئ شفقة ورأفة تجاه والدي السكير، الذي لا يهتم سوى لكأسه وخمرته، هو مسكين ما كان كذلك إلا لظروفٍ قاهرةٍ مر بها ليدمرَ نفسهُ بنفسِه ويغدو ذليلاً لكأسه، عبداً لنشوته.. إن دموعي تنهمر حينما يمر طيفا رقية ومنار أمامي، لعلهما تنالان في حياتيهما خيرا ويكون لهما أطفال صالحون، يعوضونهما عما كانتا تعانيانه من ظلم أبي وفقرنا وجوعنا وقلة حيلتنا وبأسنا..

أليس في قلبي مكان لرؤى بعد كل ذاك؟

إنه يخفق بشدة حينما أقترب منها، وما دقاته المتسارعة بقربها إلا الحب، والرغبة، والتعلق..

تبدو رؤى قد استعملت اليوم الكثير من خافي العيوب لتخفي الهالات السوداء حول عينيها، وقد وضعت أحمر شفاه ارجوانياً ولفت حول رقبتها قطعة من الدانتيل بيضاء اللون ذات وردة كبيرة بارزة من الجانب، وارتدت تنورة سوداء قصيرة وقميصاً أبيضاً أنيقاً.

رائحة خصلات شعرها رائعة، صدرها الناهد يثير في غرائزي ومشيتها الواثقة تجعلني على أشد درجات الاعجاب بها. وبينما اخفي عنها مشاعر حب تتنامى بتسارع شديد وأحاسيس غيرة من حامد الذي يتحول إلى عدم المبالاة بها وخاصة بعد أن اطلعني على علاقته المجنونة مع سولاف بمقابل تعلق رؤى به، وتغيبها في فترات سابقة عن محاضراتها للخروج معه.

اصبحت اتحينُ الفُرص ليقعَ بصري على رؤى الغالية. كل كلمةٍ تنطقُها رؤى تخرجُ عسلاً من بين شفتيها اللتين حلمتُ دوما بلثمهما، كل خصلة شعر لها تموجت مع الريح خلتها تتموج على خدى وتلامس صدري وتملأ برائحتها العطرة أنفاسي..

أواه لتلك الدقات التي تنبضها كل شراييني ولذلك الارتباك والتخبط الذي يجتاحني حين أكلمها.. إنه الحب، ولاشيء غيره.

حب صالح نقي هو فقط ما ينقلنا من حال إلى حال، ويغير فينا المقام والمقال ويجعل أرواحنا مستقرة هادئة في لجج الأوقات ودوامات الحياة. لقد جعلني الوله برؤى الغالية محبا لكل لحظات أيامي، مستغلا اياها بكل ماهو جيد، تركت مُدامي وسكائري، وأصبحت شاردا في المنزل أجلس في سريري أحدث علياً عما يجري لي.

يصب علي عرق العصرية بكميتين متساويتين في قدحين زجاجيين ويضيف

اليهما مكعبات ثلج من ثلاجتنا الصغيرة في الغرفة، يحضرهما في صينية صغيرة مع صحن (تكة) وأنصاف خيار مملحة مشطورة طوليا وقد رش عليها مطحون أوراق النعناع.

لا أشتهي أي طعام أو شراب، هي وحدها من أشتهيها، أريد رؤيتها، ست ساعات، ثلاثمائة وستون دقيقة.. هن مابقين من الوقت حتى الصباح..

يفرح علي لزيادة حصته من العرق، ويهزأ بي وأنا الاسد الذي حولني الحب هرا وديعا أليفا أقبع في سريري لا افكر الا في انثاي التي تسرح بعيدا عني مع ثعلب ماكر مخادع ربما نالت منه ما لا تحبه.

آه لما جعلتني عليه يا زؤى

(زيديني عشقاً زيديني يا أحلى نوبات جنوني.. زيديني

زيديني غرقا ياسيدتي، إن البحر ينادني..

زيديني موتا عل الموت إذا يقتلني يحييني)

أصبحت أقرأ أشعار نزار قباني، حمَّلتُ بصيغة pdf مجموعة (بيروت هي الأنثى) ثم قمتُ بتحميل كل مجموعة أعماله، وصرتُ أسمعُ لكاظم الساهر وأدندنُ (في مدرسة الحب) و(حافية القدمين)، وأقضي بضع ساعات مع أم كلثوم وأسمهان وفريد الأطرش ونجاة الصغيرة...

ما إن انام حتى تأتين لي بكل شوق وجرأة فتشاركيني وسادتي وسريري، نصنع لوحة من آلاف القبلات على جسدينا. أنا لك يا حبيبتي ولن أكون لأحد سواك.

ياسمين: المزيد من الألم

«زجاجة العطر تبكي في الليل:
لماذا جعلوا مني وعاءً لدماءِ أزهار؟»
بثينة العيسى قيس وليلى والذئب

كنت أنام منتصف الليل بعد أن أغتسل من كل ذنوبي التي علقت بي ومن كل قذارات يومي، أفرك جسدي بليفة خشنة وماء ساخن وكثير من سائل الاستحمام، وصابون الرقي الحلبي، وصابونة دورو بزيت الزيتون، ثم أقرأ المعوذتين وفاتحة الكتاب وسورة الاخلاص وأغمض جفني، لعلي اصحو من النوم فأجدني قد ولدت من جديد في حياة غير هذه الحياة، وفي عالم غير هذا العالم.

التعود على روائح الرجال سيء، هو أقرب للإدمان، أدمنت روائح عرق الذكور، ودخان سكائرهم، وقصصهم التافهة عن بطولاتهم الليلية، حتى صرت أعرف عنهم كل شيء، أعلم متى يتكلمون، ومتى يصمتون، أفسر نظراتهم وأعلم حاجاتهم.

وقد تغير حالي بعدما عرفت ولاء الذي منحني كل ما كنت بحاجة إليه، لقد وجدت فيه رجل أحلامي، ومعه عرفت أن الحب هو ما منع العيون النوم، وسرع دقات القلب للقاء المحبوب، وهو ما ارتعش له الجسد كله بعد لمسة ممن نحب.

جلست أرضا مع ولاء الذي أصبح لايأكل من طعام ما لم اشاركه إياه، يطعمني

بيديه، فأقبلهما ألف قبلة، وأدعو اللّه أن يرعاه ويحميه من كل الشرور، أذكره بمسلسل (مناوي باشا)، أشبهه بـ(فايز) الرجل الشهم الذي انتشل (زكية الداكوكة) من براثن الرذيلة ليتخذها زوجة له، وأعود بالزمن نحو الوراء اكثر لاستذكر معه (ليالي الحلمية) و(سيد زينهم السماحي) الذي حول (سماسم العالمة) إلى زوجة شريفة عفيفة طاهرة..

كان ذكياً يفهم ما أعنيه، لكنه ينتظر مني إكمال طرح كل ما في دماغي من أفكار وأحلام للمستقبل القريب، قلت له بصريح العبارة وهو يتناول السمك الجري المُخلل مع عمبة حارة ورُزٍ أحمرٍ أعددتهُ خصيصاً له:

- سأكون خادمة مطيعة لمن ينتشلني من الضياع الذي أنا فيه، سأسجل داري هذا باسمه، وسأتوب عن كل ماكان من أمري، له الخيار في بيع المنزل والانتقال إلى منطقة أخرى يراها مناسبة، سأتخلى عن كل الناس الطيبين الذين تعلقت بهم منذ طفولتي هنا كما أتخلى عن رجال الليل ومدمني السهرات الليلية الذين عرفت، سأتوب إلى اللّه تعالى توبة نصوحا لاعودة بعدها إلى الرجس ولن يرى انس ولا جان من جسدي سنتمترا واحد بعدها..

بدا ولاء متأثرا بشكل كبير، إقتربت منه أكثر فأكثر، توقف عن الأكل وشرع هو الآخر بالبكاء، أمسكت بقدمه وأخذت أتوسله:

- أرجوك لم أعلم أنني إنسانة إلا معك، ولم أصحُ من غفلتي عن دنياي وأيامي وأناسي إلا على يديك، إنسانيتك وأخلاقك وشهامتك جعلتْ مني إنسانة. إنتشلني مما أنا فيه واجعل مني زوجة لك تنل مني كل ما يسرك حتى مماتي بين يديك.

سحب قدمه واستغفر ربه مبتعداً عن الصينية متكِئاً على الحائِط فيما زحفتُ نحوه لأجعل رأسي بين ثدييه وأحيطه بذراعي..

استجمع رباطة جأشه وهدوءه وقال:

- عزيزتي ياسمين، الأمر ليس كما ظننت وليست كل الأفلام والمسلسلات حقائق، أرجوك عيشي الواقع ولا تستسلمي لأحزانك.. أنا أفخر كل الفخر بك، أقف أمام كل العالم لأخبرهم أنك امرأة عفيفة طاهرة الروح شفافة القلب وأنك صديقتي.. الشرف يا ياسمين صدقٌ متينٌ مع مجتمعِك وأناسِك وذويك، والشرف أخلاقٌ وكرمٌ وعطاء.. والطهرُ ياعزيزتي كما اخبرتك طهر قلب وصفاء روح ونظافة لسان. ياسمين انت طاهرة شريفة. أنا أكن لك كلَّ الاحترام.

ثم أمسك بيدي وقبلها باطنها وظاهِرَها قائلا:

- ياسمين لقد كان لقاؤنا السابق هو آخر لقاء حميم لنا، ألم أعودك على الصراحة وكنت أكلمك عن كثير من تفاصيل حياتي.. واخبرتك ذات يوم انني منجذب نحو رؤى؟ لقد فكرت طويلاً بذلك وقررت أن أطلب يدها للزواج بي..

- رؤى! تطلب يد رؤى؟

- نعم. رؤى. ألا تستحقني؟

- وماذا تعرف عنها؟

- أعرف عنها الكثير وقد أخبرتُك إياهُ يا عزيزتي.

- حتى لو كانت..

- ماذا؟

- لا شئ.

مسكين، لا يعلم أنها لاتستحقه وتلتقي صديقه حامد في منزلي!

اجهش بالبكاء على نفسي وعليه وعلى حظنا العاثر، وأتوسل إليه بشكل هستيري غير مسيطر عليه وأقبله من كل مكان.

هل أقول له الحقيقة؟ كلا فليس ذلك من شيمتي.. سيكتشف ذلك بنفسه حتماً وهو الرجل الذكي الفطن. لقد حطمني حبه تماماً وجعلني كئيبة كارهة لذاتي بعدما كنت أفخر كل الفخر بنفسي معه، وأشعر بنرجسية مفرطة مسحها عني بفردة حذائه.

في المستشفى: قصتا آدم وبنيامين وكلامُ المخلوقات

في مستشفى الأمراض النفسية وبقرارٍ من لجنة طبية متخصصة قررتْ أن أقضي عقوبتي، كانت تلك الفترة أهمُ الفترات التي تنامت فيها علاقتي مع سيدي.. منحني كراماتٍ كثيرة لم يكن ليحصلَ عليها بشرٌ أبداً!

فبعد أسبوعٍ واحدٍ من إيداعي فيها، تعالى في أذني مزيج من أصوات كثيرة اختلطت ببعضها ويصعبُ عليّ تصنيفُها.. تشوشَ دماغي كثيرا حتى أنني توسلت الممرض الخافر أن يحقنني حقنة منوم لتساعدني على النوم أو يُعطيني أي عقارٍ منوم لئلا ينفجرَ رأسي فالألم قد بلغ عندي أقصى حالاته، إلا أن الحقنة التي أعطانيها لم تكن ذات نتيجة، فلم تغفُ عيناي في تلك الليلة قط، وكنتُ أضرِبُ الجدار برأسي عدة مرات لعل الألم يتوقف، وهو ما اكتشفته كاميرات المُراقبة، فلما هرع المختصون لغرفتي قاموا بتقييدي إلى السرير و زيادة الجرعة، لكن إجراءهم ذلك لم يجد نفعاً أبداً وظللتُ أصرخ حتى انبلاج الفجر وبزوغ ضياء الشمس من بين ستائر الغرفة الوردية.

ظللتُ ليومينِ على هذه الحال، حتى استطعتُ في النهاية من اجتيازِ الامتحان، وتعلمتُ الأصوات كلها، وتمكنتُ من حل شيفرتها.. إنها المخلوقاتُ تكلمني، القطط والكلاب ووحوشُ الليل والنهار تتحدث إلي، تطلب مني فعل أشياء معينة لها، تطلب القطة دندش مني المواء فأموءُ بكل سعادة وأصفق بكلتا يدي معلنا عن فرحي بزواجها من الهر الاسود مسنود قائد قطيع الهررة المجنون

الذي يجوب الشوارع فجراً باحثاً عن عرائس له ومحاولا إضافة أي عنصر جديد إلى القطيع..

تستوي في مخاطبتي الكلابُ وغيرها، فالكلاب تناديني.. تعرف اسمي، وتترقب استيقاظي فجرا لتتمنى لي صباحا جميلا، أشكرها بنباح كنباحها..

يخبرني سيدي سوميا الذي يظهر وجهه لي من خلال الجدران في كل مكان، بأن أحب المخلوقات وأتماهى في الإنتماء للمجموعات الحانية العطوفة على أبنائها..

كنت أخافه حين يظهر لي متمثلا بوجه أمي.. توسلته كثيرا أن لا يفعل ذلك، واستجاب أخيرا ليظهر لي على حقيقته بكامل جسمه وبكل جبروته وقوته وسلطته..

يُكسبني وجوده قوة واندفاعا وجرأة، كما تمنحني رفقته لي سعادة رفيق أحد الآلهة، أو الشياطين، أو الجان، أيما كان، يكون ظلي وأنا ظله..

هو ضخم قوي البنية، مفتول العضلات، أسود البشرة، كثيف الشعر أسوده، أحمر العينين، تملأ الدمامل وجهَه، الا أنه برغم منظره المرعب المخيف عطوفٌ على المخلوقات الضعيفة، وعلى العكس من ذلك فهو غضوبٌ يَبطش بالمخادعين والمنافقين وكل الطغاة..

أنحني لأقبل كلتا يديه، وأتمتم بكلمات علّمني إياها من لغات الأمم البائدة.

بعد عدة أشهُر.. لم تكن حالتي من الحالات المُستعصيةِ التي تستوجبُ الاهتمام والرعايَة القُصوى، لم أكن ذا انفعالاتٍ عشوائيةٍ، وكانت تصرفاتي موزونةً إلى حد بعيد..

كل ما تبقى لي من تلك العقاقير المهدئة وما يعالج بها الأطباء ما زعموا

أنه أعراض ذهانية بعد تحسن حالتي هو حبوب مدورةٌ ملساءُ الجانبين ذات لون وردي لامِع، أخبرني الأخ بنيامين بأنها عقاراتٌ تنقلني من حالات اللاوعي والذهان التي تنتابني بين الحين والآخر إلى الوعي الكامل بما حولي، مع إبرة أسبوعية تحافظ على اتزاني العام، وبعض الفيتامينات، وكما أكد لي ذلك صديقي آدم، وكانا نزيلين في المستشفى أيضاً.

وآدمُ هو طبيبٌ لم يُتم دراسته، أرسله والداهُ للدراسةِ خارج العراق على نفقتهما الخاصة، وتمَّت إدانتُه بقتلِها فيما بعد في جريمةٍ هزت المُجتمع البغدادي في حينها وتناولتها الصحفُ والرأي العامُ بالتحليلِ والدراسة، لانه اكتشف أن كل الأموال التي دفعاها للكلية خلال سنوات دراستهِ كان مصدرها إدارتهما لمنزلهما لأغراض الدعارة، كانا قوّادين ببساطة، يؤجران غرف المنزل بالساعة، وقد ذاع صيتُهما في المنطقة وباتَ القاصي والداني يعلم بكل ذلك، حتى جاء اليوم الذي عاد فيه من أوكرانيا بعد إنهاء السنة الدراسية ما قبل الأخيرة ليجدَ ما كانا عليه..

كانَ يُصاب بانهيارٍ عصبي شديدٍ من تسارُعُ الصورِ في ذاكرته مما فعله بعائلته في كل مرةٍ يُذكِّره فيها بعض النزلاء بما حدثَ معه، وما سبب قدومهُ إلى هذا المكان..

وعدا ذلك، فهو محبٌ لمعاونة النزلاء، يحاورُ الأطباء المشرفين على المجموعة والقائمين على علاجِ حالته في مواضيع طبيةٍ بحته، يسألُهم فيسمَعُ لإجاباتِهم ويتعلم، وهو جزءٌ من مَجموعتي التي تميزت بالهدوء وإطاعةِ الأوامر.

وأما بنيامين فهو شابٌ محترمٌ، مثقفٌ، مهذب، درسَ اللاهوت وأُرسِلَ ضمن عددٍ كبير من البعثاتِ الإغاثيةِ و التبشيريةِ داخل العراقِ وخارجه.. يقولُ بعض النُزلاء ممن لهم علاقاتٌ صداقة مع الممرضين والأطباء المقيمين في المستشفى تكونت بمرور الوقت، أنهُ مسلمٌ تحولَ للمسيحيَّة، بينما وصفهُ لي آدمُ بأنه

عدميٌ درسَ العُلوم اللاهوتية للأديان السماوية والوضعية ورأى في الحملات الإغاثية للكنائس رحمة وإنسانية تجسدت في أشخاص القائمين عليها فانتمى لتلك الفِرق، وهناكَ آراءٌ أخرى بشأنه، إلا أن كل ذلك لم يهمني بقدرِ ماكان يقولهُ من غريب الكلام في خلوة تجمعني وآدم به إذ يقول:

(أشعرُ في كثير من الأحيان، أني لستُ رجُلاً واحداً، أنا مكونٌ من عدة رجال نعمل سويةً على إدارة هذا الجسد الفاني، وأحد هؤلاء نبيٌ مُرسل من قوةٍ ميتافيزيقية لم أحدِد مصدرها وماهيتَها بعد)

كان يتناولُ الحبوب الوردية ذاتها التي أتناولها، وبذات المقدار، قرصاً واحداً بين يومٍ وآخر، بتركيز mg.1، وقد أسميناها (وردي) وعلى ذلك اتفقنا، حتى كان أن أوقِف ذلك العلاجُ عنا لزعم الأطباء المعالجين أن حالتنا تتحسنُ بشكلٍ ممتاز وما عادت لنا حاجة إليه، لكن بنيامين كان يحصلُ عليه بشكلٍ أو بآخر وقد ابتدأ آدم هو الآخر بتناوله بذات الكمية حتى صار شيئاً أساسياً من أيامنا ثلاثتنا.

مرت على بنيامين ثلاث فتراتٍ أصيبَ فيها بفقدانٍ تامٍ للوعي استمر لعدةِ أيام صحا بعدها مشوش الذهن، واخبرنا عن أشياء أوحيت له خلالَ تلك الفترة، وما جعلنا مصدقين له هو إخبارهُ بأشياءَ ستقعُ بعد فترةٍ لا يحددُها، فتكون كما قال تماماً.

وفوق كل ذلك كان سيدي يُبلغني بأن بنيامين على صوابٍ في كلِ قوله، كنا نتحادثُ في خلوة بحظور آدم عن كل ما يقعُ معنا.. عن الوحي الذي يتنزل عليهِ وعن سيدي سوميا، وأشياءَ أخرى.

كما كونتُ صداقاتٍ أخرى مع بعض النُزلاء الهادئين أمثالي، كنت أجعلهم يجلسون حولي في حَلقة دراسيةٍ بغرفة المصلى أعلمهم أمورَ دينهم، يتلقون مني العلوم الدينية فرحين ويستمعون إلى حديثي بشغف.

حتى أن الأطباء ممن كانت تُرسَلُ لهم تسجيلاتُ كامراتِ المراقبة كانوا يسجلون في اضابيرنا ذلك التحسن الكبير في سلوكنا يومياً حسب علمي.

سولاف: حفلةُ تتويجِ الشيطان

«يا آخرَ الدقات
قولي لنا.. من مات؟
كي نحتسي دمَه
ونختمَ السَهرات
بلحمِهِ نقتات»
أمل دنقل بُكائيةُ الليلِ وَالظهيرة

مر حامد بي ليقلني بسيارته مساء يومٍ ما من الكوافير، ارتديتُ بنطلوناً من الجينز الأسود، ووضعتُ أحمرَ شفاه جعل شفتي مُمتلئتينِ جذابتين، أمسك بيدي كأمير يستقبل أميرته وقادني نحو باب السيارة ففتحهُ لأركب.

قادَ حامدٌ السيارة بأقصى سرعتها فوصلنا إلى المكان المقصود بسرعة، تمسكتُ بيُسراهُ بكلتا يدي فاحتضنتها في خطواتنا نحو الداخل.. كنا نجلسُ كأمير ومحبوبتِه إلى إحدى الطاولات، قال حامد أنه لن يطلب لنا مشروباً روحياً هذه الليلة، فوافقته.. وضع حبتي وردي في علبتي مشروب الكاديه الذي طلبه لنا، تبدأ كل منهما بالفوران داخل العلبة، شرب علبته دفعة واحدة وطلب مني فعل ذات الشيء، ففعلتُ بسرور..

لا أذكُر أننا تناولنا طعاماً هناك، كما لم أعلم لذلكَ المكانِ طريقاً أتخذه إن أنا رغبتُ بالذهاب إليه مرة أخرى.

في طريق العودةِ دخلنا في نفق لنخرج وندخل نفقاً آخر، صعدنا جسراً ثم

ما إن نزلنا منه حتى دخلنا تلوه نفقاً، خرجنا من النفق لنرتقي جسراً نحو الاعلى، نعلو ونعلو حتى أعالي السماء!

افلت حامدٌ مقود السيارة من يديه، لتقودنا الغيوم، واتجه نحوي لنتبادلَ القبل.

غيمة سوداءٌ تأتي لتعترضَ طريقنا، أحاطتْ بالسيارة فهزتها هزاً، يا اللّه ألطف بنا.. لقد توقف محركُ السيارة فهوينا أرضاً.. حامد أنا خائفة جداً.. سيتوقفُ قلبي رُعباً ورَهَباً.. لا تخافي يا حبيبتي.. أنا معكِ لن يصيبكِ أذى يا حُلوتي!

وما هي إلا بِضعُ دقائق حتى وجدنا نفسينا داخلَ مسرحٍ ضخمٍ أقيمتْ عليهِ حفلة صاخبة.. عشراتٌ من الرجالِ والنساءِ يَرتدون السواد ويتراقصون مُعلَقين بحبالٍ متدليةٍ من الأعلى وعشرات آخرون يتقافزونَ نحوهُم من الأسفل في رقصاتٍ لم يسبق لي أن رأيتُ لها مثيلا.. طبولٌ تقرع ومزاميرٌ تعزف وأبواقٌ لها صوتٌ عميقٌ يملأ أرجاء المكان..

كلُ الأضواء تنطفئ لتعم العَتمة ويصمتُ الجميع، وفجأة ضوءٌ خافت يعلو المغنية التي تخدشُ باطن كفها بسكينٍ ذي نصلٍ حاد لتتساقط دماؤها في أطباق يحملها شبابٌ يجمعونَ فيها تلك القطراتِ المتدفقةِ ليقدموها لبعضهم ولحامد ولي، ارتشفتُ منها بنهم وطلبتُ المزيد، واااووو قالها حامدٌ متعجباً حين رآني قد صعدتُ الطاولةَ لأرقص وأنثرَ شعري وأغني على وقع الموسيقى وبقية الأصوات وأخلع عني كل حيائي، وأرمي بعِفتي تحت الطاولة، في حفلةِ تتويجِ الشيطانِ تلك!

وبعد انتهاء الحفلة.. كنا نتمشى على شاطيء شارع أبي نؤاس أنا وحامد، ونجلس على جرف النهر، نأكل رقائق الشيبس بطعم الأعشاب البحرية نغمسها باللبن ويطعم أحدُنا الآخر..

المخطوط: (2)

كنت أقرأ ذلك المخطوط كلما سنحتْ لي الفرصة، في كل مكان أذهبُ إليه، فقد قمتُ بترتيب أوراقه التي لم تكن لراوٍ واحد، بل لعدةِ رواة، حتى أن أسلوب كِتابتها يبعث على الكثير من التساؤلات، كما قمتُ بكبس بعض أوراق المخطوط المُمزقة والتالفة بنايلون حراري لمنع زيادة تلفها، وهناك بعضها مما كان تلفها ناتجاً عن تلف حبر الكتابة بسبب الرطوبة لتصبح الكلمات غير مفهومة وهو ما اضطرني إلى فك شيفرتها أو وضع ما ناسب النص من جمل بأسلوبي الخاص ليكتمل المعنى المراد بذلك.

بحثتُ عن تراكيب بعض العقاقير الطبية التي تسبب بعضها عوارض جانبية كالهلاوسِ السمعيةِ البصرية، كما بحثت عن أخرى تكون محفزة للدماغ البشري لإنتاج صور جديدةٍ في الذاكرة المفقودة في بعض الأمكنة القابلة لإعادة انتاجها بهدف تعزيز القدرات الحسية لفاقدي الذاكرة ومرضى الزهايمر وغيرها.

ولم يغب عني إجراءُ اتصالاتٍ ببعض أصدقائي وأصدقائهم من الأطباء المختصين بالطب النفسي، كما وضعتُ ضمن مخططاتي زيارة كل من مستشفى ابن رشد، ومستشفى ومصح الرشاد للأمراضِ النفسية..

ولم يغِب عني أيضا البحث في مواقع الانترنت عن تاريخ الأعشاب المُسببة لتلك الهلاوس التي جاءت على لسان شخصياتِ الرواية.. وخلصتُ إلى عدة نتائج سأدونها كُلما سنحت لي الفرصة كما سأكتب خلاصات ابحاثي بهذا الصدد.. فعلى سبيل المثال وجدت بعض المعلومات عن العقارين الآتيين:

المسكالين:(Mescaline)

هو مستحضرٌ يستخرج من بعض أنواع الفطريات يعتبر مادة مهلوسة تنتج صورا ذهنية حيوية اكثر من انتاجها للأخيلة التي تكونها أدمغة الافراد، يعتقد الاشخاص وهم تحت تأثيرها أنهم رموزٌ للسماء وقد يُدلي بعضهم بتصريحاتٍ نارية حول الواقعية والحقيقة وطبيعة الزمن.

ويضاف اليها بعد انتاجها مختبريا مواد أخرى.

السيلوسيبن: (Psilocybin)

وهي الاخرى تعتبر ذات مفعول قوي جدا في زيادة حيوية الصورة الذهنية التي سيتم انتاجها وتجعل عمليات الدماغ اكثر غرابة، ومن الممكن استمرار تكون الصور الذهنية والهلاوس (السمعية- بصرية) لعدة ساعات إذا مارافق المريض قلة النوم والامتناع عن الرؤيا لمدة ساعات والعيش في الظلمة، وهي تكون أشد تأثيرا لدى الاشخاص المعنفين والمكبوتين والذين يحسون بالظلم تجاههم منها على الاشخاص الطبيعيين.

وهذان العقاران وفق تلك المعطيات ربما يكونان الأقرب إلى طبيعة العقار المنتج على شكل أقراص وردية اللون لم أعلم حتى الآن شكلها أو الشركة المنتجة لها والمذخر أو المذاخر التي قامت بتوزيعها. وقد قام أوّاب بتوفيرها لأصحابه عبر تهريبها من المستشفى أو القيام بدور الوسيط في عمليات شرائها من أحد معارفه وبيعها إلى أصدقائه أبطال الرواية التي أكاد أجزم بأنه هو كاتبها وفق ماتوفر لي من دلائل استقيتها عبر ما أجريته من أبحاث.

سولاف: كما الريشة

قال لي حامد أن أولى رساماتِ الأرض هنَّ من النساء حيثُ أشارت العديدُ من الدراساتِ الحديثةِ إلى أن اغلبَ رُسوم كهوفِ ما قبل التاريخ هي من صنع أيادي الإناث من الكاهنات صاحباتِ القوى الخارقة، وبعضهن زوجاتُ للآلهة أو مُرسلاتٌ منهم أو بناتهم.. وأن للفن طاقاتٌ سحرية سيُعلمُني إياها كلها..

لقد كان مِثلي مجنوناً هو الآخر إذ فتحَ حقيبةً من قماش الكاوبوي كان يحملها حينما دخلنا في شقة جمال محل الداود المحامي أحد أصدقائه، واخرج منها علبة عصارات ألوانٍ زيتية وطلبَ مني أن أرسُم لوحةً بالفرشاة على جسده العاري المتمدد على مرمر أرضية تلك الشقة.. ماذا أرسُم؟ أرسمي أي شيء. زيني جسدي، أرسمي الحب، أرسمي التعلُق، وأرسمي الرغبة والجنون، لوحة عبثية مجنونة! وقد استجبتُ له إذ أغرقتُ جسده بالألوان بعد أن اعترتني سَكرة في حضرتهِ.

وحينَ أنهيتُ اللوحة تعانق جسدانا لتشكيل لوحة حية جديدة، وقد طرق سمعي صوتُ أبي بكر سالم وهو يصدحُ عبر التلفاز بأغنية كما الريشة:

(يا طير يا ضاوي إلى عشك

قولي متى بتضوي أنا عيشي

مليت شفنا هذه العيشه

قلبي من الفرقه كما الريشة)

تمايلتُ على صوته وهو يُغني هذه القصيدة الحضرمية.. وكان حامد يصفقُ لي بيديهِ ويترنحُ من السكر..

لقد أعاد حامد تشكيل رغباتي وميولي وأطلق لي أنفاسي المخنوقة، وصنع مني امرأة متكاملة لا نقص فيها ولا خلل، جعلني أحبه كما هو بعيوبه، وأي عيوب فيه؟ فهو الرجل الرومانسي، رفيع المقام، حلو المقال، لطيف المعشر، لا عيب فيه بالنسبة لي سوى حبه للنساء والخمر والوردي ولم يكن ليكتفي من ذلك أبداً.

وليس ذنبه أن ريام ونور وصابرين وهناء وسلمى ووداد ونيران ولارا وغيرهن قد جعلنَه ملِكا على ممالكِهن، ألم أسلمه أنا كل مملكتي وأراضيي وغاباتي وسمائي يرتع فيها كيف يشاء، يسقيها حيناً ويمنع عنهاً حينا؟

بعد كل الذي كان.. أجدُني زوجة حامد الأثيرة ومحبوبتهُ الوحيدة حيث نلتحف جسد بعض ويتنفس كل منا زفيرَ الآخر.

ومع كلِ ما تقدم يشوبُ علاقتي به بعضُ الفتور.. تكونُ على أجمل ما فيها أياماً وتضعف حتى يمر علي يومان أو ثلاثة لا اتصالَ ولا تواصل بيننا فيها إلا رسائل باردة مثل: صباحِ الخير كيف الحال؟.. بخير وأنت؟.. ماشي الحال.. أوكي.. باي!

وعلى أية حال، فكل علاقةٍ تمر بذلك، فلا شغف دائم ولا فتور دائم، فالشغف الدائم يولدُ الضجر والملل، والفتور يولد نسيان الحبيب للحبيب والشريك للشريك بحسبِ ما توصلتُ إليه.

في أيام الفتور تلك، لم أكن لأتردد كثيراً بالاتصال بسائق التكسي المفتول العضلات، حليق الجسم والوجه، ذي الوشوم المثيرة، فأنا التي جعلتُ من الجرأة

صفة لي مذ تعلقت بحامد، واستمعتُ لنصائح ياسمين، كما طلب مني.. لم يكن صعباً علي لمسُ أرقام هاتفي للتحدث مع حسام في منتصف الليل، ليرد وقد بدا عليه أنه كان غارقا في النوم:

- الوو..

- مساء الخير.

- صباح الخير، أي مساء وقد تجاوزت الساعة الثانية.. آه الثالثة بعد منتصف الليل. من أنت؟

- إحدى المعجباتِ بعضلاتِك.

- إتصلي غداً صباحاً حين أصحو في تمامِ الثامنة.

يبدو أنني أزعجته، حسناً ذلك هو المطلوب، ولكن لأفعل ما يُعرفهُ بي ويُذكرهُ بما حدث معي قبل عدة أشهر.. نفختُ بالوناً كبيراً بعلكتي، ملأتُه بثاني أوكسيد الكربون بينما لا زلتُ أسمع صوت أنفاس حسام على الطرف الثاني من الهاتف.. طققققق انفجر البالون!

- ما هذا؟

- بالون كبيرٌ من العلكة انفجرَ على شفتي!

- وهل آذاكِ؟

- ماذا؟

- الإنفجار أقصُد!

- نعم آذاني كثيراً فالعلكة تعلقت بشفتي وهي لا تقبلُ الإزالة..

- هاهاهاها حسناً هل أساعدُك بإزالتها؟

- الآن؟ أووه نعم لو سمحت..

- عرفتك يا قمري عزيزتي سيمون... آسف لقد غيرتُ هاتفي وفقدت رقمك، أنا سعيد جداً لأنك اتصلتِ.

- أودُ أن أخبرك شيئاً ياحسام..

- ماهو؟

- إسمي سولاف، وليس سيمون. أنا آسفة لأنني أخفيت عليك ذلك.

- لا داعي للأسف يا حلوة.

- سأدعُك تنام الآن يا عزيزي.. آسفة لإزعاجك.

- كلا كلا لا بأس، فلقد أويتُ إلى فراشي في تمام التاسعة وقد نلت من النومِ كفايتي.

- ولكني أنا نعِسة كثيراً (أتظاهر بالنُعاس) أريد أن أخلد إلى النوم.. ما رأيُك بأن تغني لي؟

- أغني لكِ؟

- نعم.. غنيلي (على بابي واقف قمرين) لملحم بركات فقد كنت تدندن بها حين أوصلتني إلى الأعظمية، وتبدو من أغانيك المفضلة.

- طلبٌ غريب. ولكن لن أبخَلَ عليك بها يا قمري.. سأغنيها حتى تنامي.

- شكرا لك..

على بابي واقف قمرين واحد بالسما.. والثاني أغلى.....

مكالمة موفقة، سجلتُ لنفسي فيها (تسعة من عشرة)، لقد غنى لي حتى غلبه نومٌ عميق وسمعتُ شخيره فأغلقتُ عندئذٍ الخط، وسأروي لياسمين غداً ما جرى بالتفصيل المُمل، إنها لتجربة رائعة، الحديثُ مع ذكر بعد منتصف الليل.

يا لي من طالبة مجتهدة في مدرسة حامد وياسمين..

لم أبذل جهداً لِجعله يشتري لي تنورة وقميصاً، وملابس نوم مخرمة سوداء ارتديتها لحامد في إحدى لقاءاتنا، كنت أحاول في كل تلك التجارب أن أخرج على كل ما أُلِفته وتعودتُ عليه، محاولة جعل روحي متعددة الثيمات، متفاعلة مع طرق تفكير وسلوكياتٍ ذكوريةٍ جديدة أبهرتني..

استخدمت حسام في بداية علاقتِنا سائقاً لي يوصلني إلى الجامعة صباحاً أو يعيدُني إلى المنزِل بعد انتصاف النهار، وإلى منزل ياسمين، حتى أنني عرَّفتُه على حامد وتجاذبا أطراف الحديث، لكن كلا منهما لم يستسغ الآخر وطلبا مني كل على حدة أن لا أجمعهما مرة أخرى..

هل يشعُر حامد بشئ من الغيرةِ من علاقتي بحسام؟ هذا سؤالٌ حيرتني إجابتُه، ولم أفتح ذلك الموضوع مع حامد مطلقاً لخوفي من غضبه واحتمالِ خسارته، فحامد عندي دنيا كبيرة أعيشُ فيها، وتعلقٌ هو أشبه عندي بحبٍ عظيم لا نهاية له إلا الموت. وربما في حياة أخرى بعد الموتِ أصبح لي.. لي وحدي دون منازع.

على أنني لم أمنح حسامَ نفسي، وصددتُه عدة مرات وأخبرتُه أنني حينما اتصلتُ بهِ محاولة استمالته ليلاً، كنتُ أمرُّ بمرحلة جنونٍ وضياعٍ عدتُ بعدَها إلى رُشدي وأني آسفة إن كنت قد منحته أي أمل بأن يُصبح عشيقي أو يجعلني خليلته، وحاولتُ إعادة ما اشتراهُ لي، فأبى، حتى لم يُفاتِحني بالأمر بعدها واعتبرَ نفسَه صديقاً مُقرباً فقط، كان وجوده بقربي يُشعِرُه بالسعادة، وقد تبينَ لي أنه رجلٌ نبيل محترم لم يكُن ليؤذيني قط.

ولاء: تفكير عقلاني

وضعت الـ(هيدفون) في أذني أستمع لبعض المواويل:

(البارحة بالحلم حبيبي بأحضاني

بوَّسني من وَجِنتي وطفَّالي نيراني

البارحة)..

ثم غرقت في خيالاتي وأحلامي التي قطعها علي دخول علي يخبرني بأنه على موعد مع أم سلمان في الواحدة بعد منتصف الليل!

- ألا ترى أنك قد زودتها مع أم سلمان؟ أنت تنجرف مع هذه الحوته كثيرا، وتتجاوز كل خطوطك الحمر! لقد أهملت دراستك، كما بتت تسرف في المشروب كثيرا..

- وما الذي أفعله؟ أنا ذكر بلغت عامي السابع عشر ولي احتياجاتي الجسدية التي لم أجد من تلبيها إلا هذه الحوته كما تسميها..

- حبيبي علي، ارى من واجبي كناصح أمين لك ان تقطع كل علاقتك بها، وأن تلتفت لدروسك ومستقبلك.

- هاهاها ناصح!! وأمين!! لمن تعود كل علب السكائر وزجاجات وعلب المشروب المخبأة في درج خزانة الملابس السري المقفل؟ أهي لي؟ كلا.. فهي كلها لك.

لقد جعلني أفور من شدة الغضب إذ عيّرني بما أنا عليه، وهو محق، لكن كبريائي يمنعني من التزام الصمت تجاه ما يقول ولا بد لي من ردعه. فقلت له موبخاً:

- اصمت ولا تتطاول.

- انت من ولجت تلك الدروب وانت من علمني كل ذلك. أتذكر حينما قدمت لي كأس العرق الأول الذي خبأته جيدا عن والدك السكير؟ أتذكر سيكارتي الأولى التي دخنتها تنفيذاً لطلبِك لأصبح رجلاً ولينبت الشعر في صدري؟

قال تلك العبارة وقد ارتسمت على وجهه أمارات الاستهزاء.. ربما يشعر انني كنت قد خدعته في تلك الجزئية وفي غيرها، لكنه إجمالا قد حاول جعلي مذنباً في كل ما هو فيه، فإن وجدتُ فيما هو فيه ضلالاً وضياعاً فهو بسببي. قاطعته بالقول:

- لقد بلغ منك السكر مبلغه، انت تهرف بما لاتعرف، كف عن حماقاتك وانتبه لدروسك، لا أنكر انني قمت بذلك، وكله إنما كان لمصلحتك، اردتك أن تنضج قبل أوانك، وأن تجرب الملذات، أن تجربها من يدي خير لك من الوقوع بيد من لايرحم. حبيبي علي الدنيا قذرة قاسية لاترحم أحدا، وأنا قدمت لك بيدي مايُسهل انحراف سلوكك فيما لو أعطاك إياه غيري!.. أنا احبك ولا أريد لك الضياع. أنت أخي وسندي وعضيدي. من لوالدتنا وأختينا غيرنا؟

- سندك وعضيدك؟ لست إلا ظلاً لك. لست إلا صبياً يعمل في خدمتك. لســ.

- لست إلا أخي الحبيب. توقف عن قول الترهات.

يبتسم ابتسامة غريبة ويجيبني فيما عيناه تدمعان:

- لكل شيء على طرف لسانك تبرير وشرح وتفصيل، انت تجيد الخروج من الازمات، والمناقشات، وتجادل لتبقى الأفضل والأعلم.. انت العاقل الرزن الرصين وغيرك لايفقه شيئا، لقد سئمت كوني تابعك وفأر تجاربك وطفلك الذي تشد له الحبل تارة وترخيه تارة اخرى!

بدأت عيناهُ الحمراوان بإنتاج قطرات دموع ترقرقت في شعرات جفنه السفلي متجهة نحو وجنته المحمرة

- أنت على خطأ كبير ياحبيبي. لست في معرض الدفاع عن نفسي، أنا أعني كل ماقلته للحفاظ عليك ورعايتك من شرور نفسك تعال احتضنك، أنت أخي وأنت ابني، وشريكي في سنين عمري، لم أكن لك إلا محباً و..

يقاطعني ضاحكاً باكياً ولايمنحني فرصة لأكمل كلامي.. يبدو أنه قد حسم أمره واتخذ قراره

- لم يبق لي متسع من الوقت، أعطني (واحد وردي) وسنتكلم في كل ذلك حينما أعود!

- أريد أن تقطع على نفسك وعدا بأن نناقش كل ماكان ونتخذ لأنفسنا طريقاً سهلا واضحا.

- أوكي.

يأخذ القرص الوردي ويذهب.

المزيدُ من عملياتِ البحث

(إذا شاهدتَ رجلاً يركض عارياً في أحد شوارع فلوريدا أو ميامي الامريكيتين ويزعم أنه أحدُ الآلهة أو غير ذلك فاعلم انه قد تناول ثلاث حبات من عقار (فلاكا) وهو عقار ضمن مجموعة المهلوسات الجديدة التي لاتتوفر لدى المعهد القومي لدراسة الادمان والمهلوسات معلوماتٌ كافية عنه سوى كونه يتم تصنيعه في الصين ويباعُ عن طريق الانترنت ويدخل التراب الامريكي بطرق اخرى غير مشروعة بالرغم من التحذيرات الشديدة منه وحملات التويتر التوعوية المناهضة لاستخدامه).

بهذه الكلمات افتتحَ راديو سوا أحد مقالاته التي سحبتُها ورقياً وضممتُها إلى مجموعة الأوراق التي بحوزتي عن المواد المهلوسة. كما علمت أن الهلوسة بمفهومها العام هي الإحساس بمحسوس غير موجود، وبمعنى أدق، يمكنُ لنا تعريفها بأنها الإحساس في حالة اليقظةِ والوعي بمحسوس غير موجود يتميز بخواص المحسوسات الموجودة كالحياة والمادية والتحقق في الخارج (وجود مصداق خارجي للمحسوس)..

ولم أكتف بما حصلت عليه من معلومات وحاولت الحصول على المزيد فاتصلتُ عدة مرات بصديقي حسن سامي الذي يعمل في أحد مذاخر الأدوية في شارع السعدون طالباً منه شرح بعض استخذامات المسكالين وبعض المواد المهلوسة الأخرى ومضارها الجانبية، وهو الذي لم يقصر في تقديم كل معلوماته لي عن كل ذلك.

تعرفت على حسن سامي من خلال تطبيق فيسبوك، كان تعرفنا صاخباً نتجَ عن مشادة كلامية بيننا، إثر محاولته التودُد إلى إحدى صديقاتي في ذلك التطبيق، فردعتهُ بعد ان شكت لي منه، وهكذا تحول بعد أن قدم أشدّ عباراتِ الاعتذار وقعاً صديقاً لي ولها هي أيضا..

كان شاباً في بداية العقد الثالث من العمر، حنطي البشرة فارع الطول يتمرن لبناء عضلاته في إحدى القاعات الرياضية في شارع السعدون، توحي عضلاته الضخمة لمن يشاهدُ صورهُ المنشورة في صفحته الشخصية أنه يقضي جل وقته في التدريب، بينما يلمح من يلتقيه وجهاً لوجه آثار حُقن لمصول وهرمونات عضلية موضعية أدمن استعمالها لزيادة حجم عضلاته.. كان ذا وجه بيضوي وعينين بنيتين تميلان للحمرة كعيني مصاص دماء، ويكسبه شعره المُجعدُ المنكوش كشعر ميريام فارس وقد جمعه بشريط نحو الخلف، منظراً غريباً بالنسبةِ إلى رجُل شرقي.

علمتُ منه أنه يعيش وحيداً ولا أسرة له سوى أخته المتزوجة والتي منعها من زيارته بعد أن اقتسما إرث العائلةِ كله. ولكنه يذهب لزيارتِها بين الحين والآخر.

كان يسهرُ على سطح منزله مساء أغلب أيام الاسبوع مع بعض أصدقائِه المقربين ليدخنوا الناركيلة مرة مع حبة باراسيتامول وأخرى مع بعض الحبوب المخدرة والمهلوسة، كما يحتسون بعض المشروبات الكحولية. وحسن شاب لاديني يعتقد بعبثية الحياة وعدم جدواها. وهو ناشطٌ في ذلك المجال ضمن العديد من المجموعات على شبكة الانترنت.

كنت متابعاً لتعليقاته العلمية البحته على مواضيع صفحة تحمل اسم (هلوسة)، وقد ابتدأت متابعتها منذ أشترينا مخطوط (وردي) من الرجل الغامض، صديق خالي جواد.

دلّني حسن على عناوين مجموعة من إصدارات المركز القومي للترجمة في جمهورية مصر العربية، طلبتُ بعضاً منها عبر خدمات التوصيل المنزلي، واستطعتُ الحصول على عناوين أخرى من أصدقائي الكتبيين في شارع المتنبي، قرأت كتبا مثل (العلم الزائف وادعاء الخوارق) لجوناثان سي.سميث، وكتاب (أشهر 5. خرافة في علم النفس)، و غيرهما.. وقد استفدتُ منها جميعا.

وفي يومٍ ما، عرض عليّ لقاءه والمجموعة ليلاً ليعرفني عليهم فرداً فرداً، فلم أمانع ورحبتُ بالفكرة شاكراً إياه ممتنا لفضله.

ولاء: رؤى تبدد لي احلامي

«إنها الحياةُ أيضاً!
في ما بعد ستغدو لذاذات الهلاك
أكثر عمقاً و جريمة، بسرعة.
عسى أن أسقط في العدَم
تبعاً للشريعةِ الإنسانية»
رامبو ليلُ الجحيم

قررتُ أن أصارح رؤى بحقيقة مشاعري نحوها، ولكنني احترتُ في الطريقة المناسبة لفعل ذلك، حتى وقع اختياري على إرسال رسالة قصيرة لها أطلبُ فيها لقاءها يوم الغد في كافتريا الفنون.

ولما كان الغد كانت قد سبقتني بالحضور في الموعدِ الذي حددتُه، كانت حزينة شاردة الذهن اخفت عينيها بنظارة كبيرة غطت اعلى وجهها وقد علمت أنها كانت متغيبة الاسبوع الماضي كله، كما سألتني عن حامد بشكل يبدو معه عدم وجود تواصل بينهما في تلك الفترة، وهو ماشجعني أكثر لأفتح معها الموضوع بعد ان احضرت شاياً وبسكويتاً مُملحاً لنا..

- أطيب شاي لأروع رؤى بالدنيا.

- تسلم.

- لا أعرف كيف اجد للحديث بداية معك، أعترف انني مرتبك أكثر من أي

يوم مضى في حياتي...

- أمممم يبدو الموضوع مهما، سأذهب بشايي واضيف له بعض القهوة ريثما تتشجع قليلا وتجد للكلام مدخلا.

كنت ادعو اللّه وأنخى النبي وأبا الحسنين وكل من تذكرتهم من الأئمة لتقول لي كلمتي حب، أو لتبتسم ابتسامة رضا عما ستسمعه مما أنا مقبل على قوله، كلمة رضا منها ستجعلني أسعد رجال الدنيا..

تنبهت إلى صوت الراديو المرتفع وفيه يسأل كاظم الساهر حبيبته: (هل عندك شك انك عمري وحياتي وبأني من عينيك سرقت النار وقمت بأخطر ثوراتي) وهو ماشجعني حين عادت تحمل شايها بيدها..

- رؤى.. سأسألك سؤالا وارجو منك إجابتي بكل صراحة، وهو ماعهدته منك دوما.

- تفضل

- ماذا يعني ولاء بالنسبة اليك؟

- أنت؟ أمممم صديق مقرب، و رجل شريف مخلص ومؤتمن.

- هل من الممكن أن تشهد علاقة صداقتنا تحولا جديدا؟ هل يمكنك أن تشعري بمشاعر أخرى غير الصداقة؟

- أرجوك، وضح لي قصدك؟

مددتُ يدي محاولاً تحسُس أناملِها الرّقيقة وكانت عيناي متسمرتينِ بعينيها تستجديان عطفها، فبدا الطريق ليديها طويلا وشعرت أنني أتصبب عرقا.. هاهاها إنه العشقُ وحدهُ الذي جعلني فاقِداً لجرأتي خَجِلاً من ماضيي أمامها!

تشجع يا ولاء قلها ولاتخف، كلُّ ما ستقوله لك دعني أفكر بالموضوع فيما تحمر وجنتاها، أفي اشد المواقف تصبح (ططوة)!

- مابالك سارحاً، الووو أين أنت؟

- رؤى، أرجوك يا عزيزتي أن تتقبلي ما سأقوله، وأن لا تقاطعيني ريثما أنتهي

- أرجوك لقد أقلقتَني.. قل ما عندك يا ولاءُ دون مقدمات..

- حسناً.. أنا أحبك. وأريد الزواج بك. وأعلم أن علاقتك مع حامد هي عبث شباب لاغير. منعني خجلي وحيائي من مُصارحتك بما أكنُه لكِ من مشاعر لئلا أكون نذلا أمام حامد، لكنني وقد كنت متأكداً من أن ما بينكما سينتهي بعد حين. عزمتُ على إخبارك بما يجول في خاطري. سأجعلكِ ملكة قلبي وزوجتي وشريكة عمري واسعد امرأة في الدنيا.

أجابتني بحدة بادية في لهجتها وقد تغير صوتها ليكون قاطعا هذه المرة، غير قابل للنقاش:

- أوكي.. ها أنا لم أقاطعك حتى انتهيت.

- أشكرك لسعة صدرك يا عزيزتي.

- انتهيت؟

- نعم، أرجوك (قلتها شبه متوسل) لا تتسرعي، أرجوك خذي وقتك في التفكير ملِياً بما قلته.

- لا داعي للتفكير، لست مرتبطة بحامد بأي طريقة، وليس بيننا أي علاقة. كما أنني أرفضُ الارتباط بأحد، وليس في نيتي الزواج في الوقت الحالي.

لقد أصابتني بمقتلْ، ولم تترك لي فرصة أخرى للكلام.

ـ هل هذا كل شيء؟

ـ نعم يا عزيزي، هذا كل شيء، أرجو أن تنسى ما قلته الآن، أنا أعتز بكَ صديقاً مقرباً لا أكثر.

ـ سأتركك تفكرين، يوماً ويومين وعشراً، شهراً إن أنتِ شئت.

ـ أرجوك أنس الموضوع. (قالتها بحزم كافٍ كأنها ضابط اتخذ قراراً عسكرياً لا رجعة فيه). أنا مغادرة.

حملت حقيبتها بحركة سريعة لتضرب قدح الشاي بحقيبتها الانيقة فانسكب على الطاولة وسقط بعضه على بنطال الجينز البُني الذي اشتريته أول أمس مُلطخاً إياه، وانصرفت على عجل دون أن تنتبه لذلك.

قصص حسن و رياض و يمان

«لا بدّ أن نجد وقتاً طويلاً لكي نتحدث كما يتحدث الحشاشون:
دون جدولِ أعمال، بلا ضوابط، دون الرغبة
في أن يقنع الواحد الآخر أو أن نصل إلى الصراخ،
أن نحاولَ إعادة ترتيب الكون ومساعدة الخالق
في مهماته الثقيلة المتزايدة»
عبد الرحمن منيف ومروان قصاب باشي في أدب الصداقة

على سطح المنزل الذي يسكن فيه حسن كنا قد جلسنا مع كل من رياض و يمان بمنظرهما الذي يوحي بسكرهما دون أي مسكر، فهما شاردا الذهن في أغلب الأحيان، هزيلا البنية، يسيران ببطء وتثاقل وتبدو عليهما آثار دوار دائم.

رياض الأسود كما يسميه صاحباه لشدة سمرة بشرته، ذو الوجه الممتلئ شعرا والذي ربما لم يذهب إلى الحلاق لتحديد لحيته أو تنظيف وجهه من الشعر الزائد ولا مرة، ترك منزل والديه في أحد نواحي محافظة ذي قار، ليعمل في منطقة الباب الشرقي ببيع العقاقير الخاصة بزيادة الرغبة وتلك المخصصة لعلاج الرخو والضعف في الأداء، وقد اتخذ من غرفة بائسة في أحد فنادق البتاوين الرخيصة مسكنا دائما له، يقول عن نفسه أنه لم يؤذ بشرا قط وأنه حتى في عمله ذلك توخى اختيار أكثر الأعمال نفعا للناس جميعا، فجعلُ الناس سعداء، بكل الطرق الممكنة، كان أهم ما في فلسفته التي جعلها خلاصة لتجاربه في حياته.

كان رياض مثقفاً صوفي الهوى آمنَ بأفكار غريبة منها الاتحادُ والحُلول والسُكر والصحو والكشف بارتفاع الحُجُب الحسية عن عين القلبِ وعينِ البصر، والهواتف، والإلهام، والتلقي، لكن هناك تناقضا كبيراً في تكوين شخصيته، فهي خليط ما بين آراء أهل الطبقتين الثانية والثالثة من الصوفية، أي خليط ما بين عقائد الباطنية المخلوطة بعباراتِ الزهد لدى الطبقة الثانية كأبي يزيد البُسطامي والحلاج، وبين تصوف اختلط بالفلسفة اليونانية كتصوف السهروردي وابن عربي وابن سبعين من الطبقة الثالثة، كما كان في الوقت عينه يُردد الكثير من الآيات القرآنية التي تحمل عدة أوجه للتأويل، وكانت مثارَ اختلافِ علماء وأعلامِ الأمة الإسلامية على مرّ العصور وسبباً من أسبابِ تفرُقها، ليجعلها منطلقاً له لمهاجمة بعضِ آي القرآن خاصة والمسلمين عامة، فكان كل ذلك مادة دسمة لنقاشاتنا بعد ان التقيت بالمجموعة لعدة مرات..

تكلمنا عن إسقاط الحلاج لفريضة الحج بزعم البعض كما تناولنا بالنقاش تأويل قوله: (أنا الحق). وتحدثنا عن الاتحاد، والحلول، وَوحدة الوجود، وكيفية تجلي الصفات الإلهية في الإنسان إذا تيسر له الاستغراق في وحدانية اللّه لدى محيي الدين ابن عربي وغير ذلك..

وخلاصة الأمر أن رياض الأسود هو من أغرب و أعقد من عرفت في حياتي كلها.

وأما يمان فينحدر من أسرة يسارية بغدادية، تمت ملاحقة والده بعد اتهامه بالمشاركة بتعليق عدة لافتات في العاصمة بغداد إبان نشاط حركة الأنصار الشيوعيين، وتم إعدامه عام 1988 ميدانيا وعلى مرأى من العامة إثر مشادة كلاميةٍ مع من ألقوا القبض عليه انتهت بقيامه بسَبّ صدام حسين بأعلى صوته، وهو ما اودى بحياته على إثر طلقتين اخترقتا دماغه ونثرتا دمه في أوجه عناصر القوة الأمنية التي ألقت القبض عليه.

يتفاخر يمان بذلك حين يقول أن لا أحد جابه صدامَ النذل في يومها، وَوحده والدي من صرخ بلعنه أمام العراقيين الذين لم يحرك أحد منهم ساكناً في منطقة حي الجامعة وشارعها الربيع ببغداد.

ويبدو أن يَمان قد ورث اسلوب والده الذي يجعله يبدو عدائيا للوهلة الاولى، كما تصحب نقاشاته مع الاخرين بعض الرعونة في الادلاء برأيه في أحيان كثيرة..

بعد أن أدلى كل منا بدلوه في نقاشات عامة عَن الحياة والعمل والأدب والفن، رحت أسألهم عن تجاربهم الشخصية مع المواد المخدرة والخمور والتدخين، كما تحدثنا عن النساء والجنس والفن وغيرها، وكانت رفقتهم ممتعة إلى أبعد الحدود، يتخللها في كل مرة صخب وصراخ وسب وشتائم وعراك بالأيدي ورقص وأغان عراقية وعربية وغربية، من (انكسرت الشيشة) مروراً بـ(أقول أهواك) وموشح (لما بدا يتثنى) بصوت (لينا شماميان) وحتى جنون فيديو كليب (Aljandro) لـ(Lady GaGa) وغيرها!

رؤى: مع سولاف و ياسمين

تأخرت سولاف كثيراً.. لا أعلمُ سبباً لتأخرها، وقد اتصلتُ بها أكثر من مرة فلم تجب، إلى أين سنذهب ياترى؟ هل سنركب في تلك السيارات المتوجهة صوب البياع والكرادة؟ لم اختارت هذا المكان بالذات.. لم أعتد المجئ لوحدي إلى شارع السعدون والباب الشرقي، ثم أني شعرت بكثير من الحرج فربما رآني صاحب المكتبة التي أقف عندها وظن بي السوء، فهو يعرفني حق المعرفة إذ اشتريت منه كتباً كثيرة خلال ثلاث زيارات سابقة مني للمكتبة.

ها هي ذي أراها، من الجهة المقابلة، وأشارت لي بأن أعبر الشارعَ نحوها..

- صباح الخير سولاف. أينَ حامد؟

- الم أقل لك أنه لن يأتي؟ (أجابتني بحدةٍ باديةٍ في نبرتِها).

- ولكنهُ لم يقل لي ذلك. بل وعدَني أن يكون موجوداً معي!

- و أنا قلتُ لكِ أنه لن يأتي، اسمعي مني و عِ.. وانت في أيدٍ أمينة يا عزيزتي فاطمئني ولا تخافي.

أجرَت سولافُ اتصالاً هاتفياً مع حسام، الذي أجابها بأنه في الطريق واعتذر لتأخره، أخبرته بأننا في نفس المكان الذي اتفقا عليه.

وصل حسام بعد قليل. ركِبنا سيارتَه.. سلّمت سولاف عليه وتبادلا أطراف الحديث حول الزحام، و دخان عوادم السيارات الخانق في شوارع بغداد، سألته عن أحواله فأجابها: (على حطة ايدج.. لا جديد). قالت له:

ـ هذه رؤى، حدثتك عنها مسبقا..

ـ نعم، تشرفنا ست رؤى، إلى أين تأمرين ست؟

هنا يتحولُ الكلامُ إلي، فأكتفي بالصمتِ لتجيب سولاف:

ـ إلى بيت ياسمين.

ـ تأمرين أمر.. عَ بالي للأعظمية..

ـ كلا فلا عمل لدينا في الاعظمية، سنذهب بمفردنا في يومٍ آخر. (قالتها وهي تعلك العلكة بطريقةٍ رخيصة).

ابتسم حسام ابتسامة لم ترق لي بينما عيناه تنظران لي من المرآة الأمامية رافعاً هاتفه النقال في إشارة منه انه يريد رقم هاتفي! ثم قال:

ـ ست رؤى اذا احتاجيتي شي، اخزني رقمي يمج.

ـ شكراً جزيلاً لك.. تشرفت بمعرفتك، ستتصل بك سولاف إن احتجنا شيئاً.

ـ برسم الخدمة للغوالي.

ـ تجيبه سولاف باسمة: (ماتقصر. نرد أفضالك بالأفراح).

كنت قد شعرتُ بشئ من الارتياح حين سمعتُ اسم ياسمين، فهي على الأقل معروفةٌ بالنسبةِ لي، لم تُصِبني بسوءٍ أبداً، ولم أسمع منها إلا جميل الكلام...

مررنا بالسنك وجامع الخلاني فساحة الوثبة حيث ركن سيارته جانباً فهممنا بالنزول، دون ان تدفع سولاف الاجرة.. دلفنا إلى الدرابين الضيقة.. أجرت سولاف اتصالاً آخر، وأخبرت الطرف الثاني على الخط باننا سنكون عند الباب خلال دقيقتين.

كنتُ أحادث نفسي حينما دلفنا إلى دارِ ياسمين...

آه مما فعلتُ بنفسي؟ ولازال فيّ حتى هذا اليوم بعض من التعلق به برغم كل الذي كان! لو أنه على الأقل- قد عرض علي الزواج به والطلاق بعد فترة لرضيتُ بذلك، يكفيني منه بضعة أشهر حتى أضع ما بذرهُ في رحمي من بذرة، ربما لو أنه فعل معي ذلك لعشتُ كل عمري على ذكراه، ولأسميت ابنه حامد!

ربما يقول من يقرأ سيرتي أنني جبانة و أرضى الذل والهوان، ليقل من يقل ما يشاء.. أنا احبه، و أحمل له في قلبي الكثير مما أذكره ولا أنساه، لو انه أكمل فضله بتقديم عرضه بالزواج مني والإبقاء عليّ لتناسيتُ كل ذكرياتي السيئة معه ولعشتُ كل عمري في خدمته.. هل من المُمكن أن يتصلَ بعد كل ما كان منه معي ويطلب مني ترك ما اتفقنا عليه و درء الشر عني و عمّا في بطني؟

رحبتْ بنا ياسمين أفضل ترحيب، ولكنّي ما زلتُ خائفةً ومرعوبة..

سألتُهما عن الدكتورة، فأجابتني ياسمين بأنها على وشك الوصول وأردفت قائلة:

- ما لك مرتبكة و خائفة، اتركي للّه اللُطف فيما قدرهُ لك، و ضعي ثقتك بياسمين، فلم أكن لأؤذيك يوماً.
- ولكنني أظن أنني أحمل في بطني شيئا من حامد!
- ما علمت الأمر هكذا!! (ثم توجهت إلى سولاف بحركة دلت على مفاجأة كبيرة بما سمعت، فكان من سولاف أن أجابتها بنفي علمها بذلك هي الأخرى).
- أنتِ بنت كلب! كيف تفعلين ذلك بنفسك؟ هل تأكدت؟ هل أجريت اختباراً للحمل؟
- كلا. (بذلك أجبتها وببكاءٍ و دموعٍ ولا شيء لدي غير ذلك).

. اقتربت سولاف مني جلست على الأريكة ثم احتضنتني واضعة رأسي في حجرها، و صارت تمسدُ لي شعري وتمسحُ عني دُموعي، وطلبت من ياسمين أن تجلب لي حبة مُهدئ وعصير ليمون، إنها تبكي معي.. ابتلعت الحبة فشعرتُ بدوارٍ قليل.. ساعدتاني على النهوض نحو غرفةٍ ما في المنزل.

انتحارُ حسن سامي وما تلاهُ من مفاجآت

«سأسقطُ للأبد في جوفِ الظلام،
نبياً قتيلاً وما فاهَ بآية، إنتحارُهُ كانَ آيته»
تيسير السبول كاتب أردني ماتَ منتحراً عام1973

كنت في طريقي إلى خالي جواد لإجراء القراءة النهائية لبعض فصول روايته البوليسية (العالم قادم)، واضعا الهيدفون في أذني وأنا أستمع لأغنية (أحب يديك) للرائعة فايا يونان، أرى في جزئية جملة (أحب يديك) أحلاما مبعثرة لرؤى بطلة روايتي التي سجدت للّه آلاف المرات لتمتد يدا حامد لتداعبا شعرها ووَجنتيها، حين شمت رائحتهما عن بعد. وكنت أتصفح في ذات الوقت موقع الشاعر مهدي منصور كاتب كلمات القصيدة لأكتشف أنه دكتورٌ في فيزياء الجُزيئات..

(عيناكَ حُلمي الذي سيكون

كبيراً كما يحلمُ المتعبون

كبيراً كخيرِ بلادي

يداكَ تلوحُ للعائدين

و تحملُ خبزاً إلى الجائعين

أحبُّ يديك.. أحبُّ يدك و أكثرَ أكثر.. أحبُّ بلادي).

وفجأة انقطعت كل أفكاري على رنة جهازي النقال..

- صباح الخير أحمد..

- صباح الورد. كيف حالك أخي يمان، مر أسبوع ما رأيتكم فيه! ما رأيك بإخبار حسن و رياض بأن نلتقي مساء اليوم؟

- البقية بحياتك حمادة.. حسن سامي توفى أمس منتصف الليل، كان مخمورا لدرجة الهذيان و كيل الشتائم بأعلى صوته من على سطح المنزل، علمت ممن شاهدوا بعض هذيانِه وجنونه قبلَ أن ينهي حياته أنه كان يظن نفسهُ يخاطب الآلاف، يُخبرهم أن ما من جدوى للحياة البائسة، يُعْلِمهم أن وهج النور قد قارب الخفوت، ويطلب منهم عدم إنجاب المزيد من الأطفال!

يبكي بحرقة.. ويُكمِل:

- أنت تعلم تأثير الخراء الذي يستهلكه! (ثم تخنقه العبرات فلا يستطيع إكمال جملته.. يصمت محاولا سحب المزيد من الأوكسجين).. كان يبكي ويريد إنهاء حياته، حاولنا المبيت عنده، لردعه عن التصرفِ بحُمق وقيدناه إلى الأريكة حفاظاً عليه من إيذاء نفسه لكنه قابلنا بالضرب والاهانات وطردنا من المنزل شر طردة.

- لمَ لمْ يخبرني أحد؟ وماذا حصل بعدها؟

- لم نتوقع أن يصل لتلك الحالة، لم نتوقع أن يقتل نفسه..

- معقولة؟؟ لقد أذهلتني بكل ذلك!

- سنستلم جثة المرحوم هذا اليوم، أو غدا صباحاً من الطب العدلي لندفنها في النجف الأشرف. عسى اللّه أن يرأف بحاله بحق جاره أمير المؤمنين.

- رحمه اللّه تعالى.. أين أنت الآن؟

- أنا في طريقي إلى زيونة، حيث منزل أخته لإبلاغها بالأمر.

توجهت لسائق الكيا مخاطبا: (نازل هنا).

بعد أربعة أيام اتصل بي يمان وبعد أن حياني وسألني عن الحال وما إلى ذلك:

- هناك معلومات جديدة تخص وفاة حسن! هل تتابع التحقيق؟

- كلا فأنت ورياض مصدر المعلومات الوحيد لي حول وفاته رحمه اللّه.

- رياض مختف منذ الحادث، ولا معلومات عنه.

- عسى أن لا يكون شر أصابه.

- أشارت فحوصات الدم والمعمل الجنائي إلى كونه قد حقن كل عضلاته بمحلول أنتجه من إذابة مطحون عقاقير مختلفة الأنواع، كما عثر في شقته على صور تشير لذلك وفيديو صوّرَهُ لنفسه بكامرة نقاله الشخصي.

- ألم يترك معه رسالة فيها أسماؤنا حتى (تكتمل السبحة) ويرسلون في طلبنا للتحقيق؟

- ماذا؟

- كقصص الأفلام، ربما من يدري!

- هو مجنون، لكن جنونه لم يتعدَّ إيذاء نفسه نحو ايذاء الآخرين.

- ليت كل الناس تحمل طيبة قلبه. (قلت تلك الجملة بعد أن أحسست بالندم لقول ما سبقها)

- الذكر الطيب لروحه. لدي نسخ من كل تلك الصور والفيديوات، مارأيك بمشاهدتها يوم غد في تمام السابعة.

- واين سنلتقي يوم غد؟

- في منزلي بحي المنصور، سأرسل لك العنوان برسالة لئلا تنساه. دييل؟

- أوكي دييل.

كنت عند بناية مصرف النهرين الاسلامي في محلة الكرنتينة القريبة من باب المعظم، حزينا على فقدان حسن سامي، داعياً اللّه تعالى له بالمغفرة، كما قرأت لروحه سورة الفاتحة..

دلفت إلى احد الفروع فوجدت بعض الصِبيَة يتراكضون جيئة وذهابا..

- مرحباً.. أتسمحون لي بسؤال؟

يجيبني أحدهم:

- تفضل..

- أيعلم أحدكم أين يقع منزل ولاء وأخيه علي؟ (ينظر بعضهم إلى بعض، فأضيف): ولاء طالب الفنون الجميلة؟

- ولاء الرسام وأخوه الخطاط تقصد؟

- خطاط!! كلا يا عزيزي، لقد توفى أخوه رحمه اللّه.

- أنت مخطئ يا عم، فنحن نعرفهما جيدا. ولاء وعلي بيت جمال العركجي كلنا نعرفهم جيدا، لم يمت علي. لقد انتقلت الأسرة من الكرنتينة إلى الكسرة، وهناك يملكان محلاً على الشارع العام، مكتوب في أعلى المحل على قطعة بارزة (علي الخطاط وولاء الرسام)!!

ـ معقولة؟!

ـ إي وحق الحسن يا عم.

قلتُ ممازحاً له (وقد بدا ابن خمسة أعوام تزيد شهراً أو اثنين):

ـ أوتعرف الحسن يا صغير؟

ـ بالطبع، هو الحسن ابن علي بن أبي طالب، وابن فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد (صلى اللّه عليهم اجمعين)، لقد مات مسموماً. وهو وأخوه سيدا شباب أهل الجنة.

ـ احسنت.

لقد أعجبتني إجابته الوافية تلك.. شكرتهم جميعا وأعطيتُ كلا منهم ألف دينار وطلبت منهم أن ياخذوني إلى المنزل المقصود.

يبدو الشارع الفرعي ـ أو لنقل الدربونة ـ ضيقا ذا سلسلتين من المنازل المتجاورة، تقابل إحداهما الأخرى، ورائحة رطوبة طابوق المنازل الجمهوري والفرشي الذي لا تزال على الأغلب بعض سطوح المنازل مغطاة به منذ إنشائها في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي تفوح مالئة أنفي، كما أرى مجرى لتصريف المياه يمتد في وسط الشارع، بُنيت أغلب المنازل فيه بطريقة العكادة البغدادية المعروفة، وعلى الرغم من أن بعضها تم تعميرُها من قبل ساكنيها إلا أنها لا زالت ذات ملامح من الماضي القريب تميزها جميعا..

وها هو المنزل فعلاً كما تم وصفه في المخطوط.. كأن الكاتب قد راى كل شيء، كما تلوح أمام عيني شرفة منزل أم سلمان الخشبية و أرى بوضوح الحائط الواطئ الفاصل بين منزلي أم سلمان و بيت جمال العركجي والد ولاء وعلي.

لم يفارقني الحُزن منذ معرفتي بانتحار حسن سامي.. كنت قد قدمت

إجازة اعتيادية لشهر كامل، فضلت أن أختلي فيه بنفسي، وأن أبتعد عن أغلب المحيطين بي، وأجمع أفكاري وأقرأ مخطوط رواية (وردي).

كم تمنيت أن ألتقي بأوّاب ولو لسويعات قليلة لأعلم منه المزيد.. أو ربما لو ذهبت إلى الأعظمية باحثاً عن ولاء وأخيه فهما سيُعرّفانِني على أوّاب وحامد وبقية المجموعة!

ما عاد هؤلاء بالنسبة لي أبطال رواية مخطوطة لراو مغمور، بل أشخاصاً حقيقيين يعيش كل منهم حياته الخاصة ويجمعهم ما يجمعهم، في الحياة وعلى هذا الورق، ولكن ثمة اختلاف بين ما كان حقيقياً وما هو مكتوب، ويبدو أن تقاناتٍ ميتاقصية كثيرة قد استعملها الراوي لإكمال روايته، كالمذكرات والرسائل وتعدد الأصوات وغيرها، ووصلت إلي جاهزة للتحرير في معظمها.

رؤى.. الهروب

تحاورت كل من العجوز وردة وياسمين وسولاف والدكتورة خلف باب الغرفة، بينما لا زلت ممددة على السرير شبه يقظة فهمتُ بعض الحديث، وفسرتُ بعضهُ الآخر عبر قراءةِ شفاهِهن، ولكنني فقدتُ منه جلّه، لكني تيقنتُ من حضور الدكتورة.

لا اسمع شيئاً مما يقلن.. يبدو انني فقدت حاسة السمع، شفتاي ترتجفان خوفاً وقد اصبح الكلام صعباً جداً علي.. قربت الدكتورة فمها من أذني و بدا لي أنها على الأرجح قالت أنها ستعيدني إلى ما كنت عليه قبل وكأن بشراً لم يمسسني قط و طلبت أن لا أخاف..

تزاحمت الذكريات كشريط فيديو ماثلة أمامي باهتة ومُشوشة:

- هل تُحبني يا حامد؟

- هل تعلمين عدد المرات التي طلعت شمس اللّه على خلقه؟

- كلا.

- أحبكِ بقدر عدد تلك المرات.

- فاحلف إذن بالله..

- أقسم بالله.

- ضمني يا روحي إليك.

- أنا خائفة.. لم أعد كما أنا!

- أصبحت زوجتي وهذا هو المهم.

- سأخبر والدتي و والدي إن لم تعالج الموضوع!

- وكيف يكون علاجُ ذلك؟

- تتقدم لخطبتي.

- مُحال أن أفعل ذلك في هذا الوقت.

- متى إذن؟

- لقد ضقت ذرعاً بك.. ألف مرة اخبرتك، ليس الآن!

- سأفضحك.

- وتفضحين نفسك؟

- اتصلي بسولاف، سأرسل لك رقم هاتفها وأحدثها عنك.. ستساعدُك على تخطي تلك المشكلة.

- ومن هي هذه؟

- إنسانة طيبة.. هي صديقة قديمة أثق بها.

غشاني نعاسٌ خفيفٌ على إثر ابرة المخدر التي زرقتني نصفها حسب ما أبصرت، فإذا بصوتٍ مصحوبٍ بنور مُنزّلٍ نحوي من الأعلى يصيحُ بي: (لا تفرطي بابنك، الظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة).

وعند ذاك سرت فيّ قوة لم أدرك كُنهها جعلتني أصحو محاولة دفع الدكتورة عني.. سقطتُ أرضاً، ثم نهضتُ واقفة، أبعدتُها بيدي.. حاولتْ سولافُ إمساكي بشدة فعضَضتُها فصفعتني، مما زادَ رباطة جأشي وساعدني على المقاومة أكثر. العجوز تطلب منهن تركي وشأني، فتصيح بها سولاف:

ولكنها ستموت إن هي بقيت تنزف هكذا!

ـ لن تموت. اتركنها وشأنها. هي تريد الطفل. ولن تجري عملية إجهاض.

ارتديتُ تنورتي وسوّيتُ ثيابي على عجَل ثم خرجتُ محطمة خاوية القوى أجر ورائي أذيال الخُسران وأحمل فوق كتفي هُمومي وآلاماً لن تفارقني حتى آخر أنفاسي!

ولاء: كارثة مقتل علي

لدي إحساسٌ مخيفٌ بأن شيئاً سيئاً سيحصل، وهو ما جعلني أدخن بشراهة في طريقي إلى معرض السياراتِ الخاصِ بحامد، إذ عرضَ عليَّ العمل معه هناك مقابل مائتي ألف دينار أجراً شهرياً مقطوعاً مع مائة ألف أخرى يمنحني إياها كأجور نقل ذهاباً وإياباً.

وافقت نظراً للوضع المادي المزري الذي تعيشه أسرتي حيث بلغ بنا العوز أن نجعل طعامنا اليومي وجبتين بدلاً من ثلاثة. كما أنني بحاجة ماسةٍ للمال من أجل سدِ الحاجةِ المتزايدة لعلي من التدريس الخصوصي والملازم..

لم أمنع علي شيئاً أراده، فما هو متحصل له مني يستطيعُ أخذهُ بعيداً عني من أصدقاءٍ وخلان، فلو جعلتُه تحتَ مُراقبتي وسامعاً لنُصحي وإرشادي مع منحه الإذن بفعل الحد المعقول الممكن مما يرومُه لهو أفضل لي ولهُ من الحصولِ على بعض الملذاتِ بعيداً عن عيني، ثم أنه بعد كل هذا وذاك شاب طموحٌ، محبٌ لكل جديد، فخورٌ برجولته، وربما تجعله طيبة قلبه عرضة للانجراف فيما لا يُحمد عقباه بعيداً عني. لم أكن أفكر في غير ذلك تجاه علي، وهو ما أخبرته به أكثر من مرة.

فكرتُ كثيراً في علاقتهِ مع أم سلمان، هل أنا مثالٌ سيء لهُ في ذلك؟ لا أنكرُ أنني كنت أمامه متباهياً فخوراً بما جمعني بها وفِعلا قد جعلتُ العجوزَ المحرومة تتوسلُني للمزيد من اللقاءات التي أصبحت شبه يوميه حتى مللتها،

ولو لم أسمح له بالولوج إلى عالمها لكان قد ذهب إليه بنفسه دون عِلمي ومُشاورتي، ثم أني أرى المرأة الحوتة بعد كل ذلك امرأة مستورة طيبة القلب، لا تكن بغضاً أو عداوةً لأحد، يدلُّ على ذلك ابتسامتها التي لم تُفارق شفتيها يوماً رغم أشد المحن والمصاعب، كانت بحاجةٍ لحنان شاب وقد وجدت ضالتها لدي ولدى أخي علي..

ولما قاربت سيارة الكيا الوصولَ إلى الحبيبية أعلنَ هاتفي عن ورود عدة رسائل نصية، كانت أولاها من علي: (مساء العسل.. أخي وعضيدي، سأتأخر لدى أم سلمان لأن أبا سلمان تعِب و سَيَبيتُ في بيت العائلة. ستكون وحدها حتى الصباح).

وكانت الرسالة الثانية من رؤى حبيبة القلب: (مرحبا.. أرجو لقاءك يوم غد في تمام العاشرةِ صباحاً لموضوع هام. آسفة لما حدث في الكافيتريا ذلك اليوم).

وكانت الثالثة من ياسمين: (ستظل حبيبي برغم كل صدودِك وهجرك لي، أرجوك.. تعال عند بابي أشمُّك وأقبل شفتيك ليلاً، رؤيتُك وقبلة واحدة منك تكفيني لأعيش عدة أيام في غمرة مجيئك من أجلي وفي لذة طعم شفتيك. تعال وأنت السخيُّ الكريم. تعال يا من لم ترُدَّ مُحتاجاً يوماً)!

أقبلَ حامدٌ يستقبلُني مُرحِباً وقد بدا عليه فرحٌ غامرٌ لرؤيتي. كان أنيقا كعادته، وقد ارتدى ملابس لم تكن لتناسب أحدا سواه، بل لا أحد يمكنه ارتداء ما يرتديه حامد في العادة ويبدو مميزاً جميل الطلة، جاء بقميصٍ بُني مخططٍ بخطوطٍ طوليةٍ سوداء اللون وبنطالٍ أسود مع سترةٍ بنية وحذاء بُني لامع خالٍ من أي ذرة تراب يمكنها ان تعلق به.

- حيا اللّه ولاء من مسراك لملكاك..

- حيا اللّه أصلك الطيب. شكرا لك.

قال مازحاً وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه:

- شكراً؟ قلها مرة أخرى وسأصفعُك صفعتين، الأولى لأننا أخوين وليس بين الأخوة ما يستحق الشكر، بل من واجب كل أخ أن يكون سنداً لأخيه، كما تفعل مع علي تماماً، والثانية لأنني اتصلت بك أربعة مرات فلم ترد على هاتفك فخفت عليك.

لا أعلم بم أجيبه، هو فعلا ينظر إلي كأخ له، أنا بالذات دون غيري من المجموعة، وهذا ما يُربكني ويُشعِرُني بالذنب وأنا أكلمه، بخاصة أنني فعلت ما فعلته مع رؤى التي ربما تكون حبيبته في وقت مضى، ورُبما لازالت كذلك حتى الآن، لكنها لو كانت كذلك لكانَ قد قالَ ذلك لي، أو لنا نحنُ المجموعة، فهو يطلعنا على أدق تفاصيل مغامراته النسائِية دوما.

ابتسمتُ له وأكبرتُه في نظري إليه، لم أجد غير ذلك جواباً لما كان منه من حسن استقباله لي وعرضه عليّ العمل معه، فجذبني إليه محتضناً إياي، وهو يربت بيده على كتفي..

بئساً وتعساً لي. ما هذه المشاعر التي يُظهرها حامد لي من الإخاء والسخاء في كل شيء وأنا من لم أكن إلا خائناً له مع رؤى خاصته. إن كل ذلك يُمزقني من الداخل دونَ أن يشعُر.

اصطحبني إلى غرفة الادارة وهي غرفة كبيرة تقعُ في أقصى يمين المعرض، ذات جدران زجاجية مظللة تفصلها عن باقي المعرض، يشرف من يجلس فيها على كامل المعرض، يتوسطها مكتبٌ فخمٌ أنيق وضع عليه جهاز كمبيوتر وطابعة ليزرية وزهرية حملت ورداً صناعية أرجوانية اللون، مع زاوية لتعليق الجاكيتاتِ والملابس، وإلى يمينه بابٌ للحمام وفي جانبه الأيسر درجٌ ذهبي اللون يستديرُ حول عمود ذهبي هو الآخر، وقد زينت الجانبينْ لوحتان ذواتا أسلوب كارتوني

تشبهان أسلوب (مارفل كوميكس)، لكنهما اعتمدَتا تقنية نقطٍ متوازية، مع مسافاتٍ بينيةٍ مُتساوية الأبعاد. وقد جذبتاني كثيراً..

جلسنا على كرسيين متقابلين قبالة المكتب فقال حامد:

- أراك تنظر إليهما، (طريقة بكسل التنقيطية) من فن البوب في ستينيات القرن الماضي. اللوحتان ليستا أصليتين بالطبع، هما (copy) بإتقان لا مثيل له.

- من أين حصلت عليهما؟

- رسامةٌ مغمورة من إمارة أبو ظبي تعرفتُ عليها في الفيسبوك وكانت صداقتنا مثمرة جداً (يلمع بؤبؤا عينيه ويقول ذلك بخبث)

- و...

- اشتريتُ واحدة فأهدتني الثانية. أتشربُ شيئا؟ (وأشار إلى الثلاجة الصغيرة على جانبه.)

- ماء.

- فقط؟ (قالها مستغرباً ثم أردف): إذن خذ الماء واجلب لي علبة بيرة مثلجة فأنا عطش جداً وانتَ تعلم أنني لا أحتمل حرَّ الصيف.

- هاهاها إنه آذارُ يا حامد.

- وإن يكن، هو بداية الصيف في بغداد، بداية الجفاف والحر القاتل. آه حقاً لقد نسيت أن أخبرك، اشتريتُ مكيفين للهواء عموديين 2 طن، أنوي ان أهديك أحدهُما، هو في المنزل ويمكنك نقله متى شئت، فمبردات الهواء لم تعد جديرة بالاستخدام وقد مضى عليها قرن من الزمن. (يضحكُ مازحاً مرة اخرى) متى اشتريتموها؟

- اشتريناها منذ وقت زواج أمك أيها السافل.

- هاهاهاها.. نعم هكذا أريدك، أظهر سفالتك أمامي استعمل كل ألفاظك البذيئة.. شكراً لا شكر على واجب، تعال ابكِ في حضني أيها الخجول، ما هذا الأدب الذي تأدبتَ به فجأة؟ لم أعهدك هكذا!

نضحكُ سوياً فيكيلُ لي جُملتين من السباب الذي تعودناهُ بيننا فأجيبه بمثلهما، بل أقسى منهما.

- ما رأيك لو صعدنا إلى الأعلى، سأريك الغرفة العلوية بعد ترتيبها، ستكون وكراً لممارسةِ الحُب.

- لا بأس.

- تشيييرز. (قالها وقد أشار لي بعلبته وبدأ باحتسائها).

ينهض وأنهض ونصعد السلم سويا.

- على ذكر الحُب، كيف يبلي علي؟

- هو يبلي جيداً في دراسته، سينجح هذا العام، ولكني عرفتُ قصدك، فأنت لا تريد السؤال عن دراسته، بل عن الحوته! لقد أصبح يلتقيها يومياً وهو لا يملُّ منها ولا يكلّ.

لا تقلق. فهو نسخة طبق الأصل عنك، ما إن يجد غيرها حتى يتركها. ما الرأي في ياسمين؟ أتثيره هي أو إحدى فتياتها؟

يرن الهاتف عن مكالمة من رقم والدتي. تكلمني بصوت واهن متقطع:

- الووو الووووووو ولاء.. هلمّ نحو الدار بسرعة (بكاء ونواح يتعالى بجانبها ولا تقدر على الكلام، ترتجف كل عظامي لسماع ذلك، وأزداد خوفا

لسماح الأصوات قربها)

- ماذا حصل؟ ماذا هناك؟

- أخوك علي.. أأأأ أبوسلمان شق بطنه بالسكين. أبو سلمان وجد أخاك نائما مع العجوز أم سلمان..

- .....

- الووو الووووو ولاء؟ أخوك علي قد مات أخوك علي مات ماااااااات.

يسقط الهاتف من يدي وأنفجر بالبكاء.. انظر نظرة المكسور المهزوم لحامد.. أخاطبه بشفتين مرتعشتين: (حامد، اخويه مات)

لا أعلم كيف حملني حامد وأركبني سيارته، لقد فقدت الاحساس بما حولي، وأصابني دوار منع عني الرؤية، فلم أعد أرى إلا ظلاماً دامسا..

تجمهر الناس في (الدربونة) الضيقة بينما أخرج طاقم طبي مع رجال شرطة جثة أخي علي محمولا على سدية مغموراً بالدم.

ركضت والدتي حافية وقد سقطت عنها (شيلتها البيضاء) وبان شعرها وظفيرتاها الرماديتان متوسلة بالفريق الطبي ومحلفة إياهم بكل الأنبياء والأولياء لتقبيله فأبعدها شرطيان لتسقط أرضا..

قالت بصوت مبحوح:

(بروح الحسين خلوني أبوسه، بروح أم البنين، بس أشمه..

رجعولياه ما شبعت منه

ريت سهم العباس بعيني، وسم الحسن بضلوعي ولا هليوم الأغبر هاذ)

وحملت بكفيها تراباً من الشارع أسقطته على رأسها ومرّغت خدّيها بترابٍ

داسته أحذية الناس.

صاحت بصوت مبحوح:

(مات وليدي الحلو.. ياعزرايين شلون بيك

يالطولك نبع ريحان..وآخرها الكبر تاليك!

موت الأسود بِلاني بفضحية

يا كاع إنشكي وطُمّيني..

يا كاع إنشكي وطُمّيني)..

في منزل حسن سامي

«احلامُنا هي نحن، هي ما جُبِلنا عليه
هي ما يصنعُ حقيقتنا وهي.. ما ننساهُ على الدوام»
بثينة العيسى قيس وليلى والذئب

حاولتُ الاتصالَ برياض أكثرَ من مرة لكن هاتفه النقال كان مغلقاً منذ يوم انتحار حسن، حتى رنّ هاتفي على اتصالٍ منه عصر أحد الأيام..

- أهلا أهلا.. أين انت؟ نقالك مغلق وقد حاولت و يمان الاتصال بك مراراً وتكراراً، وعبثا حاولنا ذلك، لقد اختفيت فجأة! حتى أنك لم تكن متواجداً في محل عملك في الباب الشرقي؟

- السلام عليكم.. كيف حالك؟

- إنا للّه وإنا اليه راجعون.. لقد أصابني خبر انتحار حسن بمقتل، أسأل اللّه له الرحمة والغفران.

- لا تقل انتحر! قل هو أنهى حياته.

- لقد انتحر الرجل ببساطة، فلا تتفلسف!

- بل أنهى حياته بشكل اختياري، لأنها ملكه.

- و روحه التي ستنال الخلود في جهنم؟ أهي ملكه أيضا؟

- من قال أن روحه ستتعفن في جهنم؟ أمِثلُهُ ينال جهنم؟

- لم أقل كلمة تتعفن. ولكنه انهى حياته مخالفاً بذلك ما جاء من نواهٍ من قبل الشارع الحكيم. هو قتل روحه، والروح من أمر اللّه، ومن اللّه، (قل الروح من أمر ربي). وأيضا:(فنفخنا فيه من روحنا) وأيضا قال: (ولا تقتلوا أنفسكم) وفيها نهي مباشر عن الانتحار، أليس كذلك؟

- الروح من أمر ربي! ما الروح؟ أتعلم تفسير تلك المفردة في تلك الآية؟

- وهل تعلم ما لا أعلم؟ الروح هي الروح، ما يعيش به الإنسان ويستمر به في حياته؟

- كثيرون يعلمون ما لا تعلم. الروح في هذه الآية ملاك. أعظم الملائكة، أعظم من جبرائيل.

- ولكن..

- صه. ولا تقل ما ليس لك بك علم.

- لقد انتحر الرجل. وهو فعلا ما حدث. ثم أنه ليس بذي دين أصلا! وهو أكثر من يهاجم الأديان ويهزأ بها؟

- ولكنه يعلم أن للكونِ خالقاً عظيماً. أليس كذلك؟

- لا أدري. فصُحبتُك وإخاؤُك معه أكثر مني.

- هل ستعتذر عما تفوهتَ به من كلامٍ بحقه؟

- لم أقل بحقه أي سوء. وعلى كلٍ أنا آسف.. أنا آسف فعلاً لأني لم أسعَ للقاء بكم جميعا مرات أخرى قبل وفاته.

- لا عليك. كان رحمه اللّه يُقدرك ويحترمك. وقد امتدحَك كثيراً.

- أريد أن اطلب منك شيئا.

- أخبرني أولاً أين كنت؟

- مثلي لا يُسأل أين كان.

- آسف. لقد قلقنا عليك. أنت مهم بالنسبة لي وليمان أيضاً.

- أعلم ذلك يا أخي.. لقد كنت في خلوة.

- خلوة؟

- نعم، أريد أن نلتقي ثلاثتنا، أنا وأنت ويمان، ونتفق على أن لا نترك بعضنا في السراء والضراء.

- أنا طوع أمرك.. هذا هو فعلا ما أريده أخي الغالي.

وكان ما اتفقنا عليه، إجتمعنا في منزل حسن سامي، أنا ورياض و يمان وقد امتلك كل منهما نسخة من المفتاح.

وجدنا في الثلاجة بضع قناني من المياه المعدنية، واثنا عشر زجاجة شراب مختلفة الأنواع، وبعض الفاكهة والصمون قد طالها العفن..

كان هدف الاجتماع إحصاء ما تركه حسن من أموال وتقييم موجودات الشقة من أثاث وملابس وغيرها برضا و دعم أخته وقد أبلغنا يمان بذلك، كما كان من ضمن أهدافنا إعادة عرض ما تركه من تسجيلات صوتية وفيديويه تشرح أسبابه لفعل ما قام به، فقد شاهدناها أنا و يمان في منزله دون مشاركة رياض في حينه.

ترك المرحوم أموالاً تبلغ ثلاثة ملايين ونصف المليون دينار أخفاها في شقته في مكان يعلمه صاحباه. كما كان يعطي يمان مبالغ مالية بين الحين والآخر

ليوفرها له، ولم يكن يعلم رياض نفسه كم بلغت، وقد أحصاها يمان فوجدها مليونين وأربعمائة وخمسة وسبعين ألفا.. سنعطي تلك الاموال لأخته، وهي وريثته الوحيدة حالياً.

أحضر يمان معه علب مشروب بارد احتسيناه أثناء مشاهدتنا لتسجيلات حسن لنا، وكان البكاء والحزن سيد الموقف ثم استلقى كل منا علي أحد الأرائك صامتاً يتفكر.

وبعد أن قارب الغروب اقترح يمان مغادرتنا كما عرض أن يوصلنا بسيارته، وافقه رياض، لكني طلبت البقاء..

- البقاء! حتّام ستظل هنا وحدك؟ (سأل رياض مستغربا).

- حتى صباح الغد.

- تبدو متأثراً جداً، هل بك خطبٌ ما؟ (سألني يمان).

- كلا. لا شيء. لا تشغل بالك ياصديقي.

- فلمَ البقاء؟

- لا أريد العودة إلى المنزل الآن. كما أن لدي ما أريد أن اكتبه في عزلةٍ تامةٍ بعيداً عن كل أحد.

لم يمانعا أبدا من ذلك بعد أن اطلعتهما على مخطوط (وردي) الذي خطرت في بالي فكرة أن أتمّ قراءته هذه الليلة، وأطلعَ على ما فيه من نقص، فبعض صفحاته الأخيرة ممزقة، كما أن فيه قصاصاتٍ كثيرة بألوان مختلفة تحملُ إضافات للفصول ينبغي عليّ ترتيبها كل في محلها الصحيح.

تركا لي المفتاح وأبلغاني بأن أترك هاتفي قريبا مني فربما اتصل أحدهما بي ليلاً للاطمئنان علي.

كنت أقرأ وأعدّل وأكتب في الـ(notebook) الخاص بي ملخصات وإضافات وملاحظات، دون تقيد بنمط حكائي أو قواعد سردية معينة. وحاولت جاهداً الاستمرار صاحياً رغم التعب، فأعددت كوب قهوة كبير شربته كله. كما تناولت كمية من مسحوق قهوة من العلبة مباشرة ولكن دون فائدة.

دوار شديد أصابني وخدر في أطرافي ولساني لا أعلم لهما سبباً.. وفجأة، قطعت كهرباء المنزل.. أووووف (جانت عايزة وإلتمت)! توجهت إلى المطبخ وأحضرت إحدى عشر شمعة، هي كل ماوجدته من الشموع، أوقدت الشموع وصففتها عشوائيا في صالة الاستقبال فكونت جواً جميلاً لولا بعض الحر. جلستُ قبالة إحدى الشموع، مددتُ إصبعي من خلال شعلتها يميناً وشمالاً، أحسست بحرارة شديدة تجتاحني وما عدت أطيق ملابسي، خلعت التيشرت والعرق يتصبب مني كثيراً كثيراً حتى كاد أن يُغمى علي وجفناي يكادان الانطباق من شدة التعب..

صوتُ همس يصدر من الغرفة المجاورة..

- بسس بسسس أحمد.. أحمد تعال!

- حسن؟ حححسسن؟ سألت بشفتين مرتعشتين وتقدمت صوب الصوت. هو حسن بعينه مع ابتسامة شيطانية علت شفتيه وقد تلونت بشرته بلون غامق استنكرته عليه.

- مساء الخير صديقي (قالها وهو يربت على كتفي)، أتريد معرفة أسباب موتي؟ هل أطلعك على حقيقة الوردي؟

- ولكنك متّ!

- هاهاها وتم تكفيني ثم دُفنت!

ـ أرجوك يا صديقي لا تزدني هموماً، فلدي ما يكفيني منها.

ـ .....

ـ ثم أن موتك أصابنا بذهول ودهشة و..

قاطعني وهو يجلس قبالتي على الأريكة يتمطى كانه صحا للتو من نوم عميق، ثم قال:

ـ أنا أشكركم لاحتساب أموالي بدقة، ولوفائكم معي..

لم يكن كل ذلك حلما، فقد راودتني تلك الفكرة، إلا أنني كنتُ متيقناً من حقيقةِ ما يجري في حينه، حتى طلبَ مني حسن طلباً غريباً:

ـ صُبّ الشراب للضيوف، ثم تعال اجلس حدّي، لترى مخطوطك وترى نفسك!

ـ أي ضيوف؟

ـ صُبّه بعدد الكؤوس ياعزيزي.

صببت مشروبات مختلفة في الكؤوس التي وزعتُها في جهات الصالة.

عجوز سبعيني ذو وجه يشع بياضا وعينين بنيتين ولحية بيضاء وشارب خفيف، تبدو لحيته كغابة ملأها الثلج، يقارب طوله المترين ويزن قرابة مائة كيلوغرام، وقفت لشدة هيبته وخجلت من نظرة عينيه اللتين كادتا أن تخترقانني، تقدم نحوي ومد يديه مصافحا إياي مكشرا عن أنياب مخيفة مهيبة تشبه أسنان التماسيح، صافحته فضغط يدي بقوة، تنبهتُ إلى (الكابا) التي يعتمرُها فوق رأسه.. إنه واقف المحفل، محفل مابين الصوبين، واقف جواد كاظم محمد، يستهزئ بي مُقهقهاً، يحمل أحد الكؤوس! يفتح الواقف يديه بخط مستقيم ويشير بأصابعه أن هلموا لمن هم خلفه!

يظهر ولاء ببشرته السمراء وشعره المجعد القصير وشاربه ولحيته الخفيفة يضع يده في يد أخيه علي.

كما أشاهد حامد ببدلة سوداء ورباط ذهبي حافي القدمين يحمل عروسا تلبس البياض وتغطي وجهها ببرقع أبيض تعلوهما الدماء، يحني حامد رأسه نحو الأسفل ليقبل فم سولاف وما أن تلاقي شفتاهما حتى يتعثر بشعرها الأسود الطويل الذي زاد طوله على المترين متدليا نحو الأرض يسحبانه وراءهما..

وتبرز رؤى مرتدية عباءة سوداء وبوشية تغطي وجهها إلا عينيها العسليتين، اللتين ميزتها منها.

كما رأيت سنان أشعث الشعر وقد تلطخ قميصه الأبيض ببقع دمٍ ويداه كتلتان يملؤهما شرى أحمر وهو يتقدم إلى الأمام..

ياسمينُ برزت لي بلباس أبيض ملائكي وجناحين عملاقين أبيضين.

(يا اللّه من مال اللّه.. صدقة لوجه اللّه.. عجوز وتايهه ومالها والي، عجوز تريد تجمع فلوس لكبرها..) بذلك تصيح وردة مقتربة مني إلى حد وضعت فيه سبابتها في عيني! ألم حاد ينتاب عيني فتغدو الرؤية مشوشة، كما تتجمع الأصوات في أذني سويا فيصعب علي تمييز أصحابها.

الكل يتكلمون في وقت واحد هؤلاء وآخرون لا أعلمهم.. أفقد السيطرة على حواسي الواحدة تلو الأخرى، أدور حول نفسي وأميز أصوات جمع من الناس يرددون:

أنت أنا وأنا أنت.. أياً ما تنادي فأنت أنا وأنا أنت..

أصرخُ صرخة قوية لا أرى ولا أسمعُ بعدها شيئاً.

ولاء: علي يأخذني معه

«أيها الحطاب: إقطع ظلي
خلصني من عذابِ رؤيةِ نفسي بلا ثَمَر»
لوركا أغنية شجرةِ البُرتقال الذابلة

منذ حصلَ ما حصلَ لعليّ وأنا شارد الذهن أبكي وأنوحُ نواح الثكالى، فقدتُ توازني أمام الناس أكثر من مرة في سعيي للبحث عنه في شوارع وأزقة بغداد التي ضاقت علي كما ضاقت بي الدنيا..

لم يعُد يهمني شيء، لم أرد على اتصالاتِ أي من أصدقائي أو حتى أختيّ وزوجيهما، ولكنني كنتُ أشحن هاتفي منتظراً اتصالاً من علي أخي، ويبدو أنني قد أُصِبتُ بالجنون، فقد كانت الصدمةُ قوية جداً على أخٍ تحمل الكثير من المصائب والرزايا والأهوال في هذه الدنيا.

أشرب حتى أسقط أرضاً، فيحملني من يحملني ليرميني على الرصيف لئلا تدهسَني سيارة مارة. كنتُ أرى صورتَه وأسمعُ صوته في كلِ مكان، أنظرُ إلى زجاجِ واجهاتِ المحلاتِ فأراهُ يُكلمني وأكلمه، أدخل الحمام فأجده يستحم معي ويغسلُ دمه عن جسدِه.. أصبحتُ كومة عظام مرتبة في نسق معين، لا آكل إلا القليل، ولا أتنفس إلا القليل، كما أعاني نوبات اختناقٍ بين الحين والآخر..

أذكرُ جيداً ما قاله علي لوالدتي عصر ذلك اليوم المشؤوم، حينَ كانت تنصحهُ

باكية بأن يهتمّ بدراستهِ ليكونَ فخراً لها بين نساء الدربونة، وعدته بأن تزوجه أجملَ البنات، أخبرتهُ أنها لن تطلب منه الذهاب إلى الكلية إن لم يشأ ذلك، كما ستجعلهُ يعملُ مع حامد أو في أي مكان آخر ليعيل نفسه وزوجته.

أذكر جيداً كيف قبّلَها قبلة مُودع على خديها وجبهتِها..

ليت عزرائيل الموت قبض مني روحي قبلَ أن يأخذَ روحك، كنتَ لي كل شيء يا عليّ، و ما أنا إلا تافهٌ نذلٌ خسيسٌ سكيرٌ، لم أحافظ عليك وضيّعتك مني وضيّعتُ نفسي فالويلُ كلُ الويلِ لي!

صحوت فجر أحدِ الأيام على ناصيةِ الطريق، حبوبُ الوردي مرمية أمامي أرضاً، أربع أقراص أمام مرأى عيني، كانت ستاً مساء الأمس. هل تناولتُ اثنين منها؟ لا أعلم.

جمعتها كُلها وتناولتُها دفعة واحدة.. هل سأموت؟ الأمرُ سيان عندي، فأنا ميتٌ على كل حال.

أطفالٌ صغارٌ يمرون فيتعثر أحدهم بقدمي ويسقط أرضاً، يبكي فأحاول مساعدته لينهض.. قف ياصغيري علي، يرميني أخوه بحجر آلمني، هيا يا أولاد الكلاب أشبعوني ضرباً وزيدوا ألمي..

عذبوني، أقتلوني، أسلبوا مني حياتي الرخيصة كما سُلبتْ بحماقتي حياة أخي الغالي!

دعني يا رب أتألم، وسامح علي، وأنت الكريم الغفور، أذِقني ما أعددته لعلي من عذاب الآخرة في يومي هذا وفي كل يوم، واغفر بالمقابل له، فإنه لم يفعل ما فعل إلا بإرادتي وعِلمي وتأييدي..

أقفُ في وسط الشارع، بين السيارات، تتهاوى الأحجارُ عليّ من كل جانب

وأسمع صراخ الأطفال ينعتونني بالمجنون.. أبكي بكل حرقة وأصرخ بأعلى صوتي منادياً إياه! أكفر ألف مرة بآلهة السماء وأنزلها من أماكنها العاجية لتسحقها قدمي..

أصواتٌ من أرضِ المَوتى تهمس لي بالكثير، ومقابرُهم قد أصبحت مني قريبة، الأصواتُ متقاطعة غير مفهومة وهناك أيادٍ تتلاقفني وتنهشُ جسدي بأظافرها الشيطانية.

صوتٌ من الأصوات أميزه دونما حاجة إلى تركيز كبير: علي.. علي يركض معي.. يَجذبُني بقوةٍ من يَميني..

- إلى أين يا علي؟

- ليس لدينا وقت للكلام.

- لماذا؟

- .....

- ستأخذني معك؟

- نعم.

- إلى أين؟

- يبتسم علي ويشدُّ على يدي بقوة.

ذكرياتُ رؤى المؤلمة

كانت لا زالت تبكي بكل حرقة و تتساقط دموعها مِدراراً، حاولت السيرَ جاهدة لتبتعد عن تلك المنطقة المُكتظة أناساً وأسواقاً شعبية كثيرة. خائرة القوى، منهكة الجسم، لم تعلم إلى أين تتوجه وبمن تستعين.. ظلت تسير إلى حيث لا تدري، تُمزقُ روحَها ذكرياتُها وتُفطِّر هزيمتُها قلبَها المسكين..

وضعت يديها في جيبي تنورتها، فإذا بها تجد حبة وردي واحدة.. نظرت إليها مقربةً إياها من عينيها، ثم قربتها من شفتيها، لكنها تذكرت المناديَ الذي قال لها: (لا تفرطي بابنك، الظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة).. فرمت بها أرضا وسحقتها بقدمها.

أسرعت إلى (حِبٍ) يتدلى منه كوب معدني معلقٌ بخيطٍ سميك.. حملتهُ لتشربَ منها فما استطاعت، وبللت به ثيابها دون أن تشرب أي قطرة. سارت بضع خطوات حتى سقطت شبه مغشي عليها.

ولكنها نهضت تشير لامرأتين وشابين من السابلة قد حاولوا مساعدتها، أجابت تساؤلاتهم أن لا شيء يدعو للقلق وأنها في طريقها للمنزل. ابتاعت لها إحدى السيدتين عبوة مياه فشربت بعضاً منها بشفتين مرتعشتين وقد امسكت ببطنها إذ يبدو أن آلاماً حادةً ألمّت بها.

سارتْ مسافةً ليست بالقليلة في شارع الجمهورية حتى جلست القرفصاء على الأرض عند باب عمارةٍ مهجورة ناظرةً إلى الماضي القريب، بعضِ ما كانَ فيه..

خاطبها ولاء في اتصالٍ هاتفي:

- عزيزتي رؤى.. أنا أعلم جيداً أن حامد قد آذاك، هو لا يصلح زوجاً لك، و أنت تستحقين من هو أفضل منه.. رؤى.. سنكونُ معاً لنُصلِح كلَّ ما كان، أنا أعلم أنك شريفة طاهرة، أعلم أنك بنت بيوت وتختلفين كل الاختلاف عن حامد، رؤى أرجوك وافقي على الارتباط بي.. (هنا تدمع عيناها ولاتجيب فيضيف): لن أنتظر منك موافقة الآن، سأمنحك بعض الوقت لتفكري، بل سأمنحُك الكثيرَ من الوقت، وسأكون بانتظارك متى ما أصبحتِ مستعدةً للزواج بي على سنة اللّه ورسوله.

- آسفة.. لم اكن أعلم أنك جاد إلى هذا الحد.. سآخذ فترة لأفكر بالموضوع.. و.. (تتلعثم) و.. و حامد ما..؟

- ليذهب إلى الجحيم. أيربطك معه رابط؟

- .....

- ربما تكونين قد احببته في فترة ما مضت، وقد لا تُكنين لي المشاعر ذاتها، لا ضير في ذلك. سأعيش أيامي محاولاً إرضائك وسأكون لك خير زوج.

قالت لها والدتُها شبه متوسلة تحاولُ أن تستنطقها:

- بُنيَّتي اتركي حامد وكل من هو مُلحقٌ به، سيري إلى الأمام واتركي ما كان خلفك.. (تحتضنُها والدتُها بفيضٍ من الحنان وتمسُّد لها شعرها بينما تخنُقها عبراتها فتُفقدُها قدرة النطق، تسألها والدتُها): حبيبتي، انتي ماغلطانة وياه صح؟

وحدها في الغرفة ويعلو صوت أغنية (هند البحرينية):

(من تفارقنا وأنا عايش حزين

عيني اليسرى تبكيها اليمين

والسنين يا طول السنين

وكل يوم أكول أصبر بعد يوم

ضمني أبكي وأشكي لك عليك)

كانت تستمع إلى الأغنية وعيناه مغرورقتان بالدموع، وتمزقُ رواياته التي أهداها إيّاها وكل ما وصلت اليه يداها من ملابِسها وسجلاتِها ولوحاتِها، تجمع قصاصات الورق أمامها وترميها نحو الأعلى وتقول يائسة: (أريدك حامد أريدك.. لاتعوفني)!

تنظر إلى المقص اللامع النصل مُلقى على الارض، تضع يدها اليمنى تحت حافته الحادة وتبدو اوردتها زرقاء منتفخة بارزة، وقد جالت في بالها أفكارٌ شيطانية يائسةٌ ومجنونة..

آني مو مال زواج!

آني مو مال زواج!

آني مو مال زواج!

آني مو مال زواج!

ما أريدج. ما أريدج. ما أريدج!

- فكي مني ياخه، كافي دمرتيني!

- حامد بعد كلشي الصار بيننا هذا كلامك؟

- شنو كلشي؟

- إرحمني حامد.. راح اموت

- موتي للكبور! ولجهنم الحمرة!

ياسمين: النهايات

«إن الرفض المهزوم لا ينتهي إلا إلى تحويلٍ مَرَضي،
إلى الكبت والتعلُّق والأعراضِ المرَضية
(أو إلى التديُّن الطقوسي) أو إلى الخصائص الشخصية
المتعسفة، المتخشبة، التي تسجن الذات، بدلاً من
تحريرها للانطلاق نحو التحويل الخلاق»
د.أي. شنايدر التحليل النفسي والفن

تصطكُ أسناني ويتلعثمُ لساني وأنا أحاول أداءَ المقطع الذي خصصته لنفسي من القصيدة، أثني أصابع قدمي اليمنى كلها نحو الأسفل فأطقطق عظامها وأفعل الشيء ذاته مع قدمي اليسرى، أطقطق أصابع يدي اللتين أشبكهما ببعضهما سويا.. ليتني ما تبعتك ولا كنتُ خلفك ولا رضيتُ أن أكون من حاشيتك..

كنت خائفة جداً بعدَ أن صحوتُ ليلاً على كابوس مُريع أفقدني بعضاً من رجاحةِ عقلي، إذ رأيتُ حامداً ومعه ولاء وسنان مقبلين على أوّاب بأرجلهم التي باتت تشبه قدم الماعز تطرقُ الأرض طرقاً ذا صدي مخيف، وهو جالسٌ على كرسي ضخم كبير من الذهب الخالص يقبلون يديه ويخرجون ألسنتهم التي صارت ضخمة طويلة سوداء مشقوقة النهاية ليلعقوا بها قدميه، وبجانب كرسيه ذاك كانت شجرة الزقوم، لها ثمر يشبه رؤوس الشياطين، يأكلون فيملئون منها البطون، بما يقطع أمعاءهم فتتساقط أرضا وهم على مايفعلون مستمرون

صاغرون.. كابوس مرعبٌ أيبَسَ ريقي وكدتُ أختنق من شدةِ الخوف والفزع، صرختُ كثيراً ولكن دونَ جدوى تذكر، كانت روحي تنتزع مني، وقلبي يضخ الاوكسجين لدمي بمعدل متناقص شيئا فشيئا..

لم أكن أرى كوابيس ذات أهمية إلا عندما هجرني ولاء، وتركني ضحية سهلة الانقياد لكل من هبَّ ودب، كنتُ أنتقم منه في كل مرة أواعد فيها رجلاً على سريري، كنت أمنحهم كل ما يُمكنني وكل ما أستطيع، لم أتوانَ عن تلبيةِ رغباتِ زبائني كافة، أية رغبات كانت، مستعينة بتلك الأقراص الوردية التي كان حامدٌ قد أبقى منها مائتي حبة أو تزيد، كانت تنسيني همومي وتجعل قلبي يرفرف فرحاً بتحقيق الانتقام ممن فضل علي واحدة تافهة من ساقطاتي، اولئك اللواتي كنت اعلمهن كيف يلبين رغبات حامد وزيد و ضياء الدين وعمرو وسامي ومجاهد ووو...

وفي حقيقة الأمر ماكنت أنتقم إلا من ذاتي وما كنت محطِمَة إلا نفسي، قمتُ بقتل كل انسانية بداخلي، صرت كلبة جرباء تجوب الشوارع هائمة على وجهها ويتبعها كل الكلاب، وكل الجراء الصغيرة التي أصبحت اعضاؤها جاهزة للسكن إلى أنثى..

نهض أوّاب من كرسيه الذهبي وطوَّقُ رقبتي بيديه قائلاً:

قولي: (أياً ما أدعو فأنت أنا وأنا أنت)

إنحني في حضرته وقدمي له الولاء!

استجمعتُ قواي وأخرجتُ عبائتي البيضاء ذات الاجنحة الملائكية، ارتديتُها ووضعتُ مساحيق تجميل على وجهي لتبين نقاءهُ ونورانيته ثم توجهت نحو الباب لأضغط مفاتيح الطاقة فأرى من النافذة الصحراء كلها أمامي تشتعلُ الصحراء نورا، وأخرجُ للمُريدين من النور، وأوّاب واقفٌ في الظلام ينظر الي

بعينيه الحمراوين وقد أخفت الظلمة أغلب تعابير وجهه، ضاحكاً بصوتٍ عال، منتشياً بلذة النصر..

(سقاني من كأسه فكنت لهُ طوعاً

أنت أنا وأنا أنت وأيُما أنادي فأنت أنا)

أنادي في الحضور:

(ترحموا لوردة الشريفة)! فتتعالى الأصوات: (اللّه يرحمها.. اللّه يرحمها)..

أشير بيدي لأوّاب فيتجه نحو المنصة التي خرجتُ منها طائراً فوق غمامات سود، يناديني إليه فأستجيب ونغدو في الأعالي واحداً نصفه أسود والآخر يرتدي بياضا..

ندور وندور في حلقة لا نهائية ومعنا تدور أفلاك الأرضين ومُريدينا وخدمنا من الإنس والجان.

صحوتُ من الكابوس المرعب ووجدتني أردد ما قيل لي بصوت واهن ضعيف: أيا ما أدعو فأنت أنا وأنا أنت، وسمعتُ صوت الناعيات الباكياتِ خالتي وردة.. يبووووويبووووو ماتت الزينة، ماتت الشريفة العفيفة أم الخير، كن أم نورة وأم جابر وام عباس.. أويلاه ياسمينه ياهو الإلج بعد ماراحت الزينة! وفي غضون بضع ساعات كانت نسوة المنطقة قد استأجرن مع أزواجهن أربع باصات صغيرة لتشييعها إلى مثواها الأخير في النجف الأشرف حيث طلبت مني ذلك مسبقا.

وفي اليوم الثاني كنتُ قد في مجلس العزاء الذي أقمتُه لها، شقت النساء جيوبهن ولطمن خدودهن ورددن مع الملاية بصوت واحد مع لطم على الصدور والأرجل هو أشبه بالصفيق المتتابع: عمت عين المكابر تاخذ الزين.. وعمت عين المكابر تاخذ الزين..

كنت في الكابوس رأيتُ التابوت الفارغ المبارك يتحرك ويترجرج، ويخرج منه نور الشريفة، يعلو تارة ويهبط، والناس يمسحون برؤسهم وأياديهم وملابسهم التابوت، ليأخذوا منه البركة!

وفي الأعلى كنا ندور وندور ومن اسفل منا اجتمع المريدون، يتعبدون ويأخذون المراد ويهتفون بقصائدنا.

دم.. دم.. دم يتساقط نحو الأسفل ويرتفع.

أسير في بغداد أنتف شعر رأسي وأنادي من لا يسمعوني ولا يبصرون..

خالتي وردة، سولاف، حامد، رؤى، أوّاب، ولاء، نورة، عبد الملك، وحتى ياسمين التي ماعادت هنا.

إمخبلة.. إمخبلة.. إمخبلة أطفال يصيحون خلفي ويصفقون ويرمونني بالأحجار والدم يتساقط من كل مكان.

شتمتهم ألف مرة، وهربتُ منهُم باحثة عن علي، ولكني لم أجد إلا مستشفى الامراض النفسية منزِلاً لي بعد حين ولم اعلم كيف جئتُ إلى هنا، وكان أوّاب لي خير صاحب فيها.

كانت هذه قصتي.. أنا ياسمين المظلومة، أرويها لأوّاب. وهو وحده من يعلم عني كلَّ شئ.

حامد وسولاف.. اعترافٌ متبادل

حامد.. لستُ بخير!

أخبرته ذلك بينما كانا ذاهبينِ عصراً إلى المعرض الشخصي الثالث لإحدى معارفه (زينة رفعت ماضي) الأمريكية الجنسية والعراقية الأصل التي قابلاها ذات مرة في تقاطع الرواد حين كانا يتناولانِ الآيس كريم، جاءت مسرعة غير مصدقةٍ ما رأته عيناها..

- حامد؟ معقولة!! أين أنت يا عسل؟ لقد عُدتُ قبل ثلاثة أيامٍ من ميشيغان وكنت أتصل بكل أرقام هواتفك لكن بلا جدوى..

- زينة.. حُلوتي.. حمداً للّه على سلامتك. ألا تعلمينَ أنني أغيرُها بين الحين والآخر؟

- سلّمَك اللّه من كل مكروه.

- عضّت شفتها السُفلى وقالت: آسفة لم أعُد أستطيعُ التحمُّل فأنت تبدو شهيّاً جداً ولا أستطيعُ مقاوَمتك.. ثم طبعتْ قبلةً على خده على مرأى من المارة، وأردفت بعد أن انتبهت لسولاف:

- آسفة، ولكنني لم أستطيع.

- لا داعي للاعتذار، فعلاقتُنا مفتوحة! (قالت سولاف ذلك وقلبُها يتمزق)

- إذن ستسمحين لي بأخذه ليومٍ واحدٍ لنفسي!

- يوماً؟ هو لك يا عزيزتي من الآن فخُذيه.

أدارت وجهها بعد ذلكَ مغادرةً لتؤشر لسيارةِ تاكسي وتركبُ حتى دونَ أن تتكلم مع السائق كلمة واحدة. وهو الذي رآها على ذلك الحال فانطلقَ بأقصى سرعته.. لحق بها حامد وعبثاً حاول مناداتها ولكن دونَ جدوى.

وبعد يومين كاملين من الاعتذار من قبل زينة لم تكن تصدق أن زينة كانت تمزحُ معهما لا غير. والحقيقة أنها لم تكن تمزح بل كانت جادةً في كلامِها وقد تعودت من حامد إيضاحهُ مفهوم العلاقة المفتوحة لكل من تعرَّف بها ورافقته.

وحتى هو لم يكُن يتوقعُ منها ذلك التصرُف لأنه علّمَها ضرورة الالتزام بالاتكيت أمام معارفه وأصدقائه كافة، وفق قواعد وضعَها لها، وقد مرت بهما مواقفُ مشابهة تجاوزاها بحسنِ تدبيرٍ وحسن تصرُف، ولكن هذه المرة كانت مختلفة كل الاختلافِ عن سابقاتها..

على أنهُ لم ينفرِد بزينة بعدَ ذلك أبدا، ولم يلتقِ بها بالرغمِ من إمكانية ذلك وسهولته، كان بإمكانه أن يلتقي بها دون معرفة سولاف أصلاً. وهل كان يُعيرُ اهتماماً لسلوك نسائه قبلاً؟ كلا، بالطبع. فواحدةٌ تمضي تفسحُ المجال لعشرةٍ غيرها.

كان مشوشاً بشكلٍ كبير حينها، وتمنى من كل قلبه لو أن سولاف اتصلت به أو أرسلت له رسالة صباح الخير على الأقل.. صباح الخير؟ أوه كلا.. فرسالةٌ فارغةٌ منها كانت تفي بالغرض.. نعم. فهي كافيةٌ لتكون إيذاناً منها بفتحِ بابِ التواصل من جديد بعد قطيعةِ يومين، واليومانُ قد صارا سنة عليه فاستثقلهُما وكادَ أن يقتُل فيهما نفسه، ففي ذات الليلة تملكهُ غضبٌ شديدٌ مما فعلت، ما لبثَ أن فتُر بعد عدةِ ساعات، فبالرغمِ من كونه قد بات ليلتهُ في معرض السيارات وحيداً يشربُ بشراهة، إلا أنه لم يستطع إلى نومٍ هانئ سبيلاً، وظل ليلتهُ متفكراً في

علاقته بسولاف كلها، منذُ البدايةِ وحتى بدا منها ذلكَ التصرُف الغريب، الذي لا ينُم عن شيء سوى التعلق والحب، الحبُ الحقيقيُ لشخصه، وقد وصلَ لتلك النتيجةِ بعد تفكيرٍ طويل أرهقَ دماغه كثيراً.

ولما كان صباح اليومِ الثالث صالحها باتصالٍ منهُ، وهو فعلٌ لم يكُن ليفعله مع أي ممن عرفَ إطلاقاً، فهو لم يجعل للتنازلِ محلاً في قاموسِه أبداً.

وفي عصر ذلك اليوم، كانا في سيارته متوجِهينِ إلى منزِل ياسمين لتتلاقى روحاهما ويصلِحا أضرارَ ما كانَ من غيابهما عن بعضهما ثلاثة أيامٍ متتالية بعد أن بلغ شوقهما لبعضهما ذروته!.. إذ بادرت سولاف بالكلام وقد بدا عليها الإعياءُ والتعب:

- أحسُّ بإعياءٍ شديد ولم تعُد تُجدي معي نفعاً حبوب الوردي، لقد ابتلعتُ اثنتين منها قبل سويعاتٍ قليلة دون جدوى..

- حبيبتي.. خذي الثالثة، أنتِ تعلمين أن لا ضير فيها، إنها عقاقير السعادة لا غير، هيا اذهبي لمقعد السيارة الخلفي واستلقي لترتاحي قليلا.

- حبيبي.. أريد أن أخبرك امرا؟

- ماهو؟

- احبك

- وانا ايضاً.

- حامد.. لستُ أحبُك وحسب بل أعشقك، أعشق كل سنتمتر فيك، أنا اتنفسُك وبك أحيا، ولا أساوي شيئا بدونك.

إلتفتَ نحوها وكانت دموعه تنسابُ على خديه للمرةِ الأولى منذ معرفتِها به..

أوقفَ السيارةَ وركنها على جانب الطريق. ثم انحنى بكامل جسده ليطبع قبلة على شفتيها..

- حامد، حبيبي، أرجوك، لا تغضب مني، سأطلب طلباً منك، وأرجو أن تنظر فيه ملياً..

- ما هو يا قمري؟

- أريدُ أن نتخلى عن اتفاقنا الذي ألزمنا نفسينا به بحرية كل منا في العلاقة المفتوحة. هاكَ هاتفي، ليس فيه من رجل إلا انت وسنان و حسام، وحسام لم يمسسني قط، وقد طوّعتُه ليصبِح صديقاً وأخاً لي لا غير، أنا أنظرُ إليه كما أنظرُ لسنان.

- لا تتكلمي يا عزيزتي فأنتِ متعِبةٌ على ما يبدو.

- ما فائدة الحياة يا حامد إن لم يكن فيها حبٌ صادقٌ نقي؟ سيلقى الموتُ طريقه إلى هزيمة تلك الحياة إن لم يكن يزينُها ويُحيطيها ويحميها الحب.. حبيبي انت لي كل الحياة، انت لي اجمل حياة. (قالت ذلك متوسلة مستعطفة إياه وهي تمسك بيديه تفركهما بيديها وتنهمر منها أدمُعُها).

تناثرت الدموعُ من عينيه هو الآخر ورمى بهاتفه النقال على الطريق السريع لتحطمه عجلاتُ السيارات المارّةِ.

- لا تبكِ يا حبيبتي. سأفتدي بروحي عينيك ولمساتِ يديك وطعم رحيق شفتيك، ما نفع روحي التي ستهيمُ خائفة وحيدة في حياةٍ قميئةٍ خاليةٍ من حُبك، وبدون أن أتنفس زفيرك وأستضيء بقبلاتك التي تتحولُ لمصابيح تنير لي دروبي..

- حامد، أحس ببرد شديد!

أمسك بيديه كلتا يديها ثم ساقيها يتحسسهما ثم خلعَ عنه سُترته ودثرَها بها، وعاد إلى مقعدهِ ليشغل التدفئة ويقودَ السيارة بكل سرعتها بيد ويضع يده الأخرى بيدها التي جذبَها له بينما كانت مضطجِعة في الخلف.

- سآخذكِ إلى مستشفى قريب، ستكونين بخير.

يرن هاتفها (موسيقى أوبرالية يتبعُها صوت هبة القواس: أحبك) فتصحو من غفوتها..

- إنه سنان. أجبه. قل له أني معك في السيارة لتسوق بعض البضائع. أخبرته أني سأكون معك للتسوق، ثم ستقلني إلى بيت إحدى صديقاتي وتعيدُني للمنزِلِ عند حلول المساء.

- حاضر.

حيدر.. حيدر

﴿ *قل يا عبادِيَ الذينَ أسرفوا على أنفُسهم لا تقنطوا من رحمةِ اللّه إنَّ اللّهَ يغفِرُ الذنوبَ جميعاً إنهُ هو الغفورُ الرحيم* ﴾

القرآنُ الكريم سورة الزُمَر:53

إصطدم برؤى طفلٌ لم يبلغ الرابعة، أبيض البشرة ذو عينين عسليتين، متسخ الوجه، يمد يده يستجديها:

- خاله.. خاله.. من مال اللّه.. يخليلج وليدج!
- هاا!!.. منو؟.. وليدي؟
- واللّه يتيم وماعدنا ناكل، من مال اللّه.

بحثت في جيب تنورتها فوجدت ثلاث ورقات فئة خمسة آلاف دينار، أعطتهُ إحداها فتراقص فرحاً ومضى مسرعاً دون أن يقدم أي كلمة شكر ربما فكر في إمكانية أن تطلب منه إعادة أربعة آلاف منها.

كانت تمضي إلى ما لاتعلم، إذ لم تكن تملك الشجاعة لمواجهة والديها. بل لم تكن تريد مواجهة أحد. قادتها قدماها إلى جسر السنك حيث كان قد تحرش بها بضع نفر من الحمّالين وبائِعي المعداتِ الزراعيةِ والبذور والمبيدات الحشرية. لم تكن تأبهُ لما حولها هناك، بل لم تلق بالاً لزحمة الناس و لكل الاصواتِ المتعالية في الأرجاء.

نظرت إلى الأسفل فرأت تدفق الماءِ صافياً من غير شوائب تُذكر، كانت أكيدة أن مياه نهر دجلة هي وَحدها من تُنظف القلب، وتغسلُ الروح.. وقلّبت نظراتها يميناً ويساراً فما وجدت أحداً من الناسِ على الجسر، بل لم تجد احداً أبداً، حتى السيارات اختفت، لم يكن من أحدٍ سواها!

اختلطت دموعها المتساقطة مع نهر بغداد، عقدت العزم على أن تهب جسدها للنهر، فهو الوحيد الذي سيحتفظ بها دون أن يُلوثها وسيُعيد لها ذاتها المفقودة، بعد أن يَنقلَها إلى ربٍ رَحيم. رددتْ بشفتين مُرتعشتين وصوتٍ متقطع (يا اللّه خايفة.. يا اللّه خايفة)، ثم نادت بصوت واهٍ:

- لا إله إلا أنت سبحانك.. إني كنت من الظالمين.. أستودعك يا دجلة نفسي فكُن عليها أميناً واذكر دُعائي غداً عند ربٍ غفور كريم.

- لالالا.. لا يُمّه لا.. كولي يا اللّه كولي يا اللّه..

إمرأة تتشح بالسواد احتضنتها قبل أن تلقي بنفسها نحو الأسفل..

- يا اللّه ارحمنا، شبيج بنيتي؟ تردين تنتحرين؟ وشتكولين للّه والنبي وأبو الحسنين؟؟

احتضنت المرأة كل آلامها ومعاناتها.. أمسكت رأسها بيمناها لتحصنها وتُلقي عليها بعض آيات الحفظ: قل أعوذ برب الفلق من شر ماخلق.. قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شرّ الوسواس الخناس.. حصنتج بسور سليمان يُمّة.. حصنتج براية النبي و أهل البيت بنيتي.. حامت يدا المرأة ذات العباءة حول رأس رؤى: سور سليمان، سور سليمان يُمّه. يحرسج اللّه بنيتي، روحي لداحي الباب، روحي للأمير!

وما هي إلا هُنيهاتٌ حتى أختفتْ تلك المرأة ووجدتْ رؤى نفسَها مرتدية عباءتها.

لملمت العباءة لتغطي كل ما بدا منها عدا وجهها وسارت على غير هدى لتجد نفسها في وسط مرآب العلاوي.

رجلٌ قاربَ الخمسين يرتدي (دشداشة بيضاء) و يبدو وجهه منيراً تعلوهُ ابتسامة رضا وتفوح منه رائحة عطر tea rose)) وعلى جبهته أثر السجود، يقترب منها:

- إلى أين ذاهبةٌ يا بُنيَّة؟؟
- للأمير. داحي الباب!
- تعالي معي.
- إلى أين؟
- سيارتي ينقصها شخص واحد فننطلق إلى النجف الأشرف، لا تخافي، ستكونين بأمان، وستصلين إلى حيث أردتِ.

ركبت السيارة، لا تعلم اين و متى و كيف و لماذا.. كل الأسئلة قد غادرت تفكيرها، وأحست براحة نفسية وحاجة كبيرة للنوم. استيقظت خلال الطريق لتجد رأسها مستنداً إلى رأس الحاجة الجالسةِ بجانبها والتي بدت عليها الهيبة و الوقار. شربت قدح ماء من الحاجة وعادت للنوم مرة أخرى.

نور يبدد الظلمة ويغطي الأرجاء ويمنع العيون رؤية الأشياء.

وسط الحشود، في الصحن الشريف وجدت نفسها، خلعت حذائها وأودعته في الكيشوان كما فعلت الزائرات الأخريات..

تعالت الأصوات من الخارج والداخل:

حيدر حيدر.. حيدر حيدر..

عطروا أفواهكم بالصلاة على محمد وآل محمد:

اللهم صل على محمد وآل محمد.. اللّه م صل على محمد وآل محمد.

شبح الموت..

«يأتي الفجرُ ولا يستقبلهُ أحدٌ بفمِه
فلا صباحٌ ولا أملٌ محتمَلٌ
هناك أحياناً نقودُ في أسرابِ نحلٍ هائجة
تلدغُ أطفالاً مهجورين وتلتهمُهم»
لوركا أغنية الفجر

كانا في السيارة و دوارٌ شديدٌ ألمَّ بسولاف، مع ألمٍ في كل مفاصلها وقد كانت تهذي من شدة الحرارة، بينما كان يقودُ السيارة بجنون، بيدين ترتعشان، وعينين اغرورقتا دموعاً.. وربما يكون هو الآخر يهذي:

- حبيبتي، عمري، قمري، لاتخافي يابعد روحي، واللّه حامد يفديج بعمره، سوسو، حبيبتي، أتسمعيني؟

- لا تقلق، ستمرُّ الأزمة وسننهضُ من جديد!

- سولاف.. من عُمري على عمرج. ريتني متُّ ألف مرةٍ قبل أن أراكِ مريضة على هذهِ الحال!

- اسم اللّه عليك. أين نحنُ؟

- ذاك مستشفى الراهبات، على بعدِ 2.. متر.

يبدو شارع الكرادةِ مغلقاً، تزدحمُ السيارات محاولة المرور دون جدوى ولا

أحد يعلم سببَ إغلاقِ الشارع في أواخر أيام رمضان، حيث يتجه الناسُ للتبضع وشراء ملابس العيد.

- يابعد بيتي.. (يبكي ويُخرج الكلمات قسراً من حباله الصوتية اذ يبدو منهاراً غير قادرٍ على الكلام).. لنترُك السيارة، سأحمِلُكِ، ما رأيُك؟...

- ..... (لاجواب. وتبدو قد أغمي عليها فيجن جنونه)

يحمل حامد سولاف ويترُكُ كلَّ شئ، وراءه، سيارته ومفاتيحها، يثبتُ في حزام بنطاله رُزمتي نقود من فئة الخمسة وعشرين ألف دينار، ويحمل حبيبته بين ذراعيه..

أخرج خمساً وعشرين ألفا ورماها بيد أحد أصحاب المحلات على وأخذ منه عبوة مياه بلاستيكية سَكبها على وجهها.. الباقي يا أخ.. يركض الرجل وراءه فلا هو يلحقُ به ولا هو يستطيعُ ترك محله.

السيارات ابتدأت بالعُبور ويبدو أن السلطات قد سمحت لها بالمُرور ولكنه لازال يُهرولُ حاملا إياها.. يلعنُ رجال الأمن والمرور وكل هذه الدنيا القذرة الفانية.. يبكي مزيداً من الدموع ويلعنُ حظه العاثر وبؤسه وشقاءه، ألن تمنحهُ الحياة بضعة أشهر أخرى مع من اكتشف حبه لها وتعلقه بها في لحظاتها الأخيرة، إنه يفقدها الآن، سيفقدها وإلى الأبد.

يا إلهي.. سولاف تموت.. ساعدني يارب.

صوتُ انفجارٍ ضخمٍ يهز الكرادة بأسرها، وأعمدة دُخان أسود تتصاعدُ، وروائحُ موادٍ كيمياويةٍ خانقةٍ تملأ السماء وحناجرُ مبحوحة تُنادي خالقها اللطف في قضاءه وقدره،

يصل الفرع المؤدي للمستشفى، يحاول أن يشق حشود الناس المتجمهرين محاولين إدخال أهليهم المصابين جراء الانفجار ولكن دون جدوى..

تفتحُ سولاف عينيها: (حبيبي أنا أختنِق أخرجني من هنا.. أينَ نحن؟).. يصرخ بأعلى صوته: (أولاد الكلب خلي نفوت)! وما من أحد يسمعه، فيخرج متجهاً نحو داخل الكرادة لعلهُ يجد مشفى آخر.

السماء تتشح بالسواد والنيران تتصاعد على مراى منه والنواح والعويل لازال متصاعدا شيئا فشيئا..

- حامد.. سأموت!
- كلا يا قمري، لن تموتي، لا تخافي.. أنا معكِ
- إني مُودّعةٌ إياك، وإني موصيتكَ وصية، تصدّق عني وادعُ اللّه لي بالمغفرة وانشئ من بعدي مسكناً لأطفالٍ سيموتُ آباؤهم مَعي هنا.. مساكينٌ من سيُصبحون بلا أب وأم.
- سنحيا يا حلوتي، وسنبني لنا بيتاً من الخشب على نهر دجلة أو الفرات في جنوب البلاد، نحيا بعيداً عن الناس، سنجوبُ الدنيا ونسافرُ لأقصى أقاصي الأرض، وسننشُرُ الحب بين الناس أينما حللنا يا حبيبتي.
- نعم.. سننشُرُ الحب. (قالتها وأغمضت عينيها مرةً أخرى)

يضعها أرضاً، ينتحبُ ويلطمُ رأسه، يُقبل خديها ويديها ورقبتها وصدرها قبلة واثنين وثلاثاً وعشراً.. يحاول جعلها تستيقظ، يُناديها لتنهض فلا تسمعه. جسدها يبدو هزيلا نحيلا متيبساً فاقداً للسوائل واطرافها على وشك الانجماد في ظل تصاعد حرارة الجو.

الأسر تتراكض باتجاه كهرمانة وباتجاه شارع أبي نؤاس وشارع الكرادة خارج لكنه تسمر يحتضن حبيبته يشمها ويلفظ اسمها مئات المرات.

معركة في السماء

«المفارقة التي تؤكدُ على أن الوجود البشري
على هذا الخراب المسمى الأرض يميلُ إلى
الرذيلة والعنفِ والإرهاب هي كونُ أغلب الهرطقات
والتمرُدات ضمن جميع الدوائر اللاهوتية الدينية
تحولت إلى صِداماتٍ حقيقيةٍ راحَ ضحيتُها الكثيرون»
جوتيار تمر صديق بشرٌ يمتهِنونَ صناعةَ الآلهة

(أوّاب كفكف دموعك. سيكون لك شأن عظيم

أوّاب كفكف دموعك. سيكون لك شأن عظيم)

تعالى صوتٌ سوميا في السماء محيطاً بأوّاب من كل جانب..

- سيدُك يُناديك فلتأتمر بأمره أيها الذليلُ القاتلْ.

- أنا طوعُ أمرِ سيدي.. حاضر.

قالها وهو يمسحُ دموعهُ بيديه اللتين تلونتا بلونٍ أسود كالفحم.

- الآن ستحقق لي رغبتي، وما اصطنعتُك لأجله، سنُميتُ حرثاً كافراً جاحداً نتِناً قميئاً!

- وكيفَ ذاك؟

ـ أنظُرْ إليك كيف سأصَيرُك إلى ما لا طاقة لأحدٍ بردعِه، سأمنحك من القوة ما لم ينبغي لأي ممن سبقوكَ من الأولينَ أبدا.

كان ينادي بصوته المرعبِ كلَّ أبنائه وأتباعِه ليشهدوا ذلك الحدث الكبير.

أوّاب يصَّعَدُ نحو أعالي السماء التي اصطبغت بأسود مخيفٍ مرعب احتجب لشدته ضوءُ القمرِ حتى أصبح الليل حالك السوادِ كما لم يكن قد كان قبلاً.. وفجأة ينتبهُ الناسُ إلى أوّاب وقد بدا أكبرَ من حجمه الطبيعي كان كلما علا ازدادَ جِسمُه ضخامة حتى ملأ سماءَ الكرادة كلها يحيطُ به أبناء سوميا الأبالسة ومريدوه وكلٌ له دورٌ يقومُ به، حتى كان الدويُّ العظيم!

تشتعلُ عالياً على جانِبي شارع الكرادة داخل وصراخُ الناس قد تعالى حتى اختلطت الأصوات وأصبحت صراخاً موحداً ناتجاً عن ألم وأذى وخوفٍ كبير.

كان الملائكةُ آلافاً مؤلفة يمارسونَ أعمالهُم، إسرافيلُ وعزرائيلُ وميكال وجبريلُ والروحُ وملائكة النار والجنة والقبور والكاتبون والمدبرون لشؤونِ العالم.. وها قد جاءَ أمرُ اللّه تعالى عن طريق إسرافيل حاجبه وأقرب خلقهِ إليه، أن ابطشوا بسوميا وأتباعهِ فقد طغوا في الأرضِ طغياناً كبيراً.

كان حامد قد استنجد باللّه وكل من تذكرهم من أوليائه ليُعيدوا سولاف إليه، سولاف التي أحبها من كلِ قلبه، بل عشق كلَّ شيء فيها، حتى سقطَ مغمياً عليه بجانبِها بعدَ أن تحسس وريد رسغها الأيسر وقلبها فما أحس فيهما نبضاً وصار متيقِناً أنها فارقت الحياة..

تنزّل الملائكة أفواجاً أفواجاً إلى السماءِ الدُنيا كأنهُم طيورٌ عملاقة بأجنحة

متعددةٍ فمنهم من كان بجناحين أو ثلاثة أو أربعة وكانوا على أهبةِ الاستعداد للقِتال من أجل نصرةِ المظلومين استجابة لأمرِ إلههم جل جلالـه.

كما كان جبرائيل يغتمسُ كثيراً في ذلكَ الحين في نهرٍ من أنهار الجنة ثم يخرُجُ فينفُضُ فيخلُقُ اللّه من كلِ قطرةٍ ملكاً، ليزيدَ عددَهم فيستطيعوا نجدة من أمِروا بنجدَتِهم.

نفث سوميا وأتباعُه النار وعمِلوا على زيادة سعيرِها حتى صاحت الجدران منها، واستجارت الأرضُ بربها لشدة حرارتها..

كان الناسُ مُحاصرين في أحدِ المجمعاتِ التجارية فلا هُم يستطيعونَ الخروج إلى سطحِ البنايةِ فيتقافزونَ إلى بنايةٍ أخرى مجاورة، ولا هم يستطيعونَ الخروج من بابها الامامي الذي تناولته النارُ فأصبحَ كالهشيم وَتساقطت أعمدتُهُ وقطع الشيلمان التي أسندت سقفه، وعدا ذلك اختلطت أجسادُ الكثيرِ من الضحايا بحطامِ الانفجار الكبير في ملجأ البناية.

نهضت سولاف قويةً بعينين تلمعان كأنما بعِثت فيها الروحُ من جديد وساعدت حامد على النهوض.. هيا يا حبيبي لننقذ من استطعنا من الناس، إنهُم أحباؤنا وأهلونا.. ما الحياةُ إلا تراحمٌ ومساندة ومساعدة بين الناس، فإن فقِدت هذه ما بقي للحياة من معنى يا حبيبي..

كانا يركضان بكلِ ما أوتِيا من قوة يُساعدان الناس للخُروجِ من سعير الحريق.. قفز حامد نحو الداخل، أخرج طفلين صغيرين حملهما بين ذراعية وخبأهما تحت سترته ليحجب عنهُما لهيب النار، حتى أعطى سولاف أحدهما وقد كانت تنتظرهُ خارجاً، ركضا بالطفلينِ حتى أوصلاهُما إلى سيارةِ إسعاف وسلماهُما إلى فريقِ المُسعفين ومضيا بعد ذلك يساعدان أشخاصاً آخرين.

كانت معركةً عظيمة بين الخيرِ كلهِ والشرِ كله، بين الحياةِ والموت، بين إرادة اللّه تبارك وتعالى وإرادة أبي الجن وأبالسة الدنيا وشياطينها، حتى تحققت كلمة اللّه تعالى وإرادته، ونصر عباده بجندِه وهزم أحزابَ الشر بقدرتِه وسلطانه.

فتحت سولافُ عينيها كأنها عروسٌ غافية بعد حلم فجرٍ جميل، كانت ذات هيئة ملائكية يشع من جسدِها كله بريقٌ كأنهُ من بريق جنان النعيم..

- حبيبي حامد.. إنهض فأمامنا عملٌ كبير. إنهض يا روح روحي وحبيب عمري في الدارين.
- سولاف! سس..سوولاااف! أنت على قيد الحياة؟ ظننتُك ميتة ياعزيزتي. (قالها وهو يفركُ عينيهِ غيرَ مُصدِق ما يراهُ ويسمعه)
- هيا يا حامد، فالملاكُ ينتظرُ تزويجنا، ألا تريد أن نتزوج؟ ألا تريدُ الارتباط بحبيبتِك سولاف؟
- الملاك؟ نتزوج؟

كانت ملائكةُ اللّه أحاطت بهما وقد كساهُما ملاكٌ كبيرٌ لطيفُ الجسم عظيمُ الهيئة ذي أجنحة أربعة، ملابسَ من نور، حتى زوجهُما ومضى بهما يحمِلُهُما بقدرته نحو الأعالي.

نهاية الرواية

(يأبى اللّهُ العصمة لكتابٍ غير كتابِه، والمنصفُ من اغتفرَ قليلَ خطأ المرءِ في كثيرِ صوابِه)

احمد العتبي

بغداد/ 2017

الفهرس

ولاء: غيضٌ من فيض 7
ياسمين: شيء عن عائلتي 11
أوّاب: شيخي ونشأتي/1 17
حامد.. مع والدة لاوان وعشرينية ما 21
سنان: بعضٌ من حكايتي 25
سولاف: شئ عن العائلة والنشأة 29
ولاء: مع الجارة أم سلمان 33
أوّاب: شيخي و نشأتي/2 37
رؤى: العائلة والتربية 43
سولاف: سنان في المستشفى 47
سنان.. تجمعُ الأصدقاء في منزلي 53
أوّاب: وحدةٌ و رُعب 55
سنان: مع الـ(وردي) للمرة الأولى 59
حامد: The tale of tales ولقاءُ سولاف 65
ولاء: في منزل سنان 71
رؤى.. أول الغيث 75
حامد: ليس حلماً ما كان! 79
رؤى وحامد/1 83
حامد: سولاف تغرق في بحاري 89

ياسمين: أنا و نورة والأصدقاء 93
رؤى وحامد/2 99
أوّاب: ظهور سيدي سوميا 105
سولاف: حياةٌ جديدة 109
سولاف: عن عبثية حامد 113
رؤى.. في حمام تركي 117
ياسمين: مع إبن الحفافة.. وغيره 121
رؤى: أحبك يا حامد 125
ياسمين: لقاءٌ صاخبٌ في منزلي 129
ولاء: حامد يظلم رؤى 135
أوّاب: في مستشفى الأمراض النفسية 139
سولاف: قصتي مع حسام 143
رؤى.. فشل وكوابيس 147
أوّاب: الخلاصُ من شيخي 155
المخطوط: (1) 159
سولاف: أنا مريضة ومجنونة 165
ولاء: زيديني عشقاً يا رؤى.. 169
ياسمين: المزيد من الألم 173
في المستشفى: قصتا آدم وبنيامين وكلامُ المخلوقات 177
سولاف: حفلةُ تتويجِ الشيطان 183
المخطوط: (2) 185
سولاف: كما الريشة 187
ولاء: تفكير عقلاني 193
المزيدُ من عملياتِ البحث 197
ولاء: رؤى تبدد لي احلامي 201

قصص حسن و رياض و يمان 205
رؤى: مع سولاف و ياسمين 209
انتحارُ حسن سامي وما تلاهُ من مفاجآت 213
رؤى.. الهروب 219
ولاء: كارثة مقتل علي 223
في منزل حسن سامي 231
ولاء: علي يأخذني معه 239
ذكرياتُ رؤى المؤلمة 243
ياسمين: النهايات 247
حامد وسولاف.. اعترافٌ متبادل 251
حيدر.. حيدر 257
شبح الموت 261
معركة في السماء 265

وردي

كل ما سيردُ في الرواية ليس حقيقياً البتة، كل الشخصيات والأسماء والأحداث من وحي الخيال، وهي لا تمتُ للواقع بأي صلة، ولا أحد يتحملُ مسؤولية ما ورد في رواية (وردي) من معلومات وأفكارٍ وآراء سوى كاتبها وحده.

تتكونُ الرواية من فصولٍ تضمنت بوحاً ذاتياً لأبطالها على شكل مذكراتٍ مكتوبة بخط بعضهم أو بحكاياهم الشفاهية ورسائلهم التي بَعثوا بها لمن دوّنَها بالنيابة عنهم (أواب) وهو أحدُ الشخصيات التي عاشت في ذهن الروائي ولا تزال، فالروايةُ أولاً وأخيراً هي روايةٌ من قصص أبطالها وقد سمّيتُ الفصولَ بأسمائهم للحيلولةِ دون ضياع قارئ بسيطٍ في اشكالاتٍ سرديةٍ هو في غنى عنها.

أدعو قرّاء الرواية للصبر على تحصيل أجوبة لماذا وكيف ولم، فما لم يكُن مفهوماً في أحدِ الفصول يزول عنه اللبسُ والإيهامُ في فصولٍ لاحقة، كما أن طريقة تعدُد أصوات الرواة في هذه الرواية تجعلُ من الصعبِ السيطرةُ على التتابُع الحدثي وفق زمنٍ متسقٍ متصاعد، وتجعلُ مايسردهُ هؤلاء في فصولٍ مُتباعدة تتشابكُ فيها المصالحُ والمصائر وحدةً واحدة لتكوين النص الروائي.

Designed by
Studio
ISBN 978-1-7732251-0-4
9 781773 225104